فى الأدب الأندلسي

الأستاذ الدكتور
طلعت صبح السيد

المقـــدمــــــة

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله سبحانه وتعـــالى ، ونســـتعين بــــه ونســـتهديه ، ونستلهمه الرشد فى كل عمل نقدم عليه ، ونصلى ونســـلم علـــى رسوله الأمين ، المثل الكامل ، والمعلم الأميـــن ، وعلـــى آلـــه وصحبه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد :

فنحن فى كتابنا هذا نحاول أن نحدد مكانة الأدب الأندلسى فى حركة الأدب العربى فى كل العصور ، وسنتناول هذا الأدب من شتى جوانبه بالدراسة والنقد والموازنة ، ونبين مدى ما بينـــه وبين الأدب العربى فى المشرق من تـــأثر وتــــأثير ،ونعـــرض الآراء المختلفة فى هذا الأمر ، ونناقشها ، ونمحصها ، مراعيـــن فى ذلك كله الحقائق العلمية التى تضع الأمـــور فـــى نصابــــها ، وتضع كذلك الحركة الأدبية فى الأندلس فى مكانها الطبيعى بيـــن الحركة الأدبية فى شتى عصور الأدب العربى .

ولا نبالغ إذا قلنا إن هذه الدراسة إنما تفصح عن ملامــــح الحركة الأدبية فى الأندلس ، كما تكشف من جهة أخــــرى عـــن منهج جديد فى دراسة الأدب الأندلسى وفهمه ونقده ، لأنها تربـــط النتاج الأدبى بمسيرة الأدب الأندلسى وتطوره من ناحية ، كمــــا تكشف من ناحية أخرى عن الخصائص المشتركة بين الأدبـــاء ، وما يتميز به بعضهم من السمات والخصائص ، وهذه الجوانـــب فى ذاتها دراسة فنية موسعة لتطور الأدب الأندلسى واتجاهاتـــه ،

سواء فى الجانب الدراسى للأدباء الأندلسيين ، من حيث مناقشة آثار الأديب ، واتجاهاته الفنية ، وربطها بذاته من جهة ، وببيئته من جهة أخرى ، أو فى الجانب التحليلى من حيث دراستنا للفنون والموضوعات الجديدة ، وآراء النقاد فى النهوض بالأدب ، أو فى الجانب التصويرى الذى عرضنا فيه صورا فنية للأدباء ،وربطناها بحياتهم ، هذا فضلا عن تناول كثير من قضايا الأدب فى الأندلس ، ودراسة لعشرات الأدباء ، والاجتهاد فى إصدار كثير من الأحكام النقدية على آثارهم الأدبية .

وإنى لأرجو أن تنال دراستنا هذه اهتماما ملحوظا ، وأن تتوالى البحوث التطبيقية فى حقول الأدب الأندلسى ، فذلك بلا شك عمل له أهميته فى الكشف عن طبيعة هذا الأدب ، واتجاهاته من ناحية،ثم فى جلاء نواحى الأصالة فيه من ناحية أخرى .

وأملنا أن نكون قد وفقنا فى بعض ما إليه قصدنا ، والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

الأستاذ الدكتور

طلعت صبح السيد

المنصورة جمادى الآخرة ١٤٢٢ هـ / سبتمبر ٢٠٠١ م

الفصل الأول

لمحة تاريخية

الأندلس

المعروف لدى المؤرخين أن الأندلس كانت قبـــل الفتـــح الإسلامى على أسوأ حالة من الضعف السياسى والاجتمـاعى،وأن الوضع فيها كان مض طربا ،وهذا ما شجع "موسى بن نصـــير" والى أفريقيا من قبل الدولة الأموية على التفكير فى فتحها،وقـــد دفعه هذا التفكير إلى بعث قائده الشجاع "طارق بن زياد" ليـــنزل بجيشه عام ٩٢ هـــ فى المكان الذى سمى فيما بعد "جبل طـــارق" وانطلق بعد ذلك يفتح الأندلس،وينتصر على حاكمـــها "لذريـــق" وتوالت الجيوش الإسلامية على الأندلس،وقدم موسى بن نصـــير وتابع هو وطارق الفتح متوغلين فى بلاد الفرنجة،وبذلك دخلـــت الأندلس فى دين الإسلام،وأصبح لها فى التاريخ الإسلامى شـــأن عظيم .

وحين انتهى موسى من فتح الأندلس ولـــى ابنـــه "عبـــد العزيز"عليها وغادرها مع طارق إلى الشرق في ذى القعـــدة ٩٥ هـــ ،ومنذ أن ولى عليها "عبد العزيز بن موسى بن نصير" بـــدأ عهد الولاة .

فالأندلس: هى جميـــع البلـــدان الأســـبانية التـــي فتحـــها المسلمون سنة ٩٢ هـــ على يد طارق بن زيـــاد وموســـى بـــن نصير.

والواقع أن هذه البلاد لم تعرف باسم الأندلس قبل أن تعرف المسلمين[١]،فلما قدموا إليها وفتحوها أطلقوا عليها هذا الاسم،وظل علماؤهم وأدباؤهم يستعملون هذه التسمية بل ويفضلونها ، وحين خرج المسلمون من الأندلس صار هذا الاسم قاصرا على جنوب شبه الجزيرة الأسبانية بعدأن كان يشمل شبه الجزيرة كلها .

وتقع هذه البلاد فى الجهة الجنوبية الغربية للقارة الأوربية،ويحدها من الغرب المحيط الأطلسى ،ومن الشرق البحر الأبيض المتوسط،ومن الشمال فرنسا تلك التى كان العرب يطلقون عليها اسم بلاد الفرنجة،أما من الجنوب فيحدها مضيق جبل طارق وجزء من البحر الأبيض المتوسط،وتعرف هذه البلاد فى عصرنا الحالى بأسبانيا والبرتغال،وهى شبه جزيرة لا جزيرة،وقد سميت جزيرة من باب التغليب.

يقول المقرى : "إن أول من سكن بالأندلس على قديم الأيام فيما نقله الإخباريون ...قوم يعرفون بالأندلش – بالشين المعجمة – بهم سمى المكان فعرب فيما بعد بالسين غير المعجمة الأندلس .." [٢] .

وقد عاشت هذه البلدان تحت حكم العرب ما يجاوز ثمانية قرون ، حيث تم فتحها عام ٩٢هـ /٧١٠ م وخرجوا منها عام ٨٩٨ هـ /١٤٩٢ م .

---

(١) انظر الأدب الأندلسى ، الدكتور أحمد هيكل ص ١٩،٢٠ .دار المعارف بمصر،الطبعة الخامسة .

(٢) نفح الطيب ١ / ١٣٠ .

والحق أن هذه الفترة قد اتسمت بالفتن والقلاقل،فلم يقتصر الاضطراب والشقاق فيها فيما بين المسلمين الفاتحين والنصارى سكان البلاد الأصليين(الذين خضع منهم أو لم يخضع للإسلام) فحسب،بل حدث شقاق عظيم بين المسلمين بعضهم البعض كما في عهد الولاة،الأمر الذى كان له أثره القوى فى إضعاف دولة العرب فى الأندلس،وتشتت شملها حتى سقطت في أيدى الفرنجة سنة ٨٩٨ هـ /١٤٩٢ م .

وقد مرت الأندلس بعهود كثيرة نوضحها فيما يلى :

عهد الولاة (٩٢ – ١٣٨ هـ) (٧١٠ – ٧٥٥م) :

ويبدأ هذا العهد بالفتح الإسلامى على يد طارق بن زياد سنة ٩٢ هـ ، وينتهى بقيام دولة بنى أمية فى الأندلس على يد عبد الرحمن الداخل سنة ١٣٨ هـ . ويسمى هذا العهد "عهد الولاة" لأن الأندلس كانت تحكم فيه بواسطة وال يعينه خليفة دمشق أو حاكم شمال أفريقيا .

وقد تعاقب على حكم الأندلس فى هذا العهد مجموعة من الولاة التابعين للدولة الأموية،وقد تميز هذا العهد بالاضطراب والشقاق ، إذ قامت فيه ثورات من أبناء البلاد الأصليين ضد العرب. ومن ناحية أخرى فقد استحكم فيه التنافس بين الولاة القادمين من الشرق،ولذلك يمكن القول إن عهد الولاة كان عهد محاولة للاستقرار ، ومجاهدة فى سبيل تثبيت الملك .

ويبلغ عدد ولاة هذا العهد ثمانية عشر واليا ،و كان أولهم "عبد العزيز بن موسى بن نصير" ،بينما كان آخرهم"يوسف بن

عبد الرحمن الفهرى" الذى تغلب عليه عبد الرحمن الداخل،وأنهى بنهايته دولة بنى أمية فى الأندلس.

يذكر المؤرخ الأندلسى ابن القوطية أحوال الولاة فى الفترة من عام ٩٢ هـ حتى عام ١٣٨ هـ فيقول[١] :

"ولى الأندلس عبد العزيز بن موسى بن نصير بعد أبيه سنة ثم ولى بعده أيوب بن حبيب اللخمى ستة اشهر، ثم الحر بن عبد الرحمن ثلاث سنين ، ثم السمح بن مالك ثلاث سنين ونصفا ، ثم عنبة (بن سحيم القلبى) سنتين وتسعة أشهر ثم يحيى بن مسلمة سنة وثلاثة أشهر ، ثم حذيفة بن الأحوص ستة أشهر، ثم عثمان بن أبى نسعة الخثمعى ستة أشهر، ثم الهيثم بن عبيد سنة وشهرين، ثم عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى أربع سنين،ثم عبد الملك بن قطن الفهرى أربع سنين،ثم عقبة بن حجاج خمس سنين وثلاثة أشهر،ثم عبد الملك بن قطن أيضا سنة،ثم بلج بن بشر القشيرى ستة أشهر،ثم ثعلبة بن سلامة خمسة أشهر،ثم أبو الخطار بن ضرار القلبى ثلاث سنين،ثم ثوابة بن سلامة سنة وشهرا،فلما وهن سلطان بنى أمية بالمشرق ولوا على أنفسهم يوسف بن عبد الرحمن الفهرى عن غير عهد من الخليفة ولاسجل،فملك الأندلس عشر سنين،إلى أن دخل عليه عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف" .

والحق يقال إن من أشهر ولاة الأندلس فى تلك الحقبة

---

[١] تاريخ الأندلس لابن القوطية ص ١٩٣ ،١٩٤ .تحقيق عبد الله أنيس الطباع ، بيروت ١٩٥٧ م.

عبد الرحمن الغافقى،ذلك لأنه كان عازما على نشر الإسلام فـــى فرنسا وسائر القارة الأوروبية ، لكن أمله قد خاب بهزيمته فـــى موقعة "بلاط الشهداء"عام ١١٤ هــ ٧٣٢ م على يد"شارل مارتل" ،وبهزيمته هذه توقف الفتح الإسلامى فى أوربا من جهة الأندلس.

عهد الدولة الأموية (١٣٨-٣٠٠ هـ) (٧٥٦-٩١٢ م) حتى خلافة عبد الرحمن الثالث (٣٠٠-٣٥٠هـ) (٩١٢-٩٦١ م)

وهذا العهد الذى يبدأ بدخول عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان (عبد الرحمن الداخل وصقـــر قريش) .

وقد فر عبد الرحمن من بطش العباسيين بعـــد ســقوط الدولة الأموية فى دمشق عام ١٣٢ هــ ولجأإلى مصر ثم إلـــى شمال أفريقيا،واستطاع أن يتعرف على أحوال الأندلس وما كانت تعيش فيه من فوضى واضطراب ، واستطاع بعد معارك متعـددة أن يهزم والى الأندلس يوسف بن عبد الرحمـــن الفـهرى وأن يؤسس فى الغرب إمارة للأمويـــن فـــى الأندلـــس بعـد أن سقطت دولتهم فى دمشق ، وأخذ فى تحقيـــق طموحاتـــه فدعـم السلطة الأموية فى جميع أنحاء بلاد الأندلس .

وقد لقب بعبد الرحمن الداخل لأنه أول من دخل الأندلـــس من الأمويين ، كما أن المنصور قد لقبه وهو عدوه اللدود "بصقـو قريش" وذلك لما أبداه من بسالة وشجاعة نادرة،ولما لقيـــه مـــن

أهوال ، وتحمله لما لا يحتمل ولا يطاق عند هروبه من المشـرق إلى المغرب وعند تأسيسه لدولته الجديدة .

وظل عبد الرحمن الداخل أربعا وثلاثين سنة (سنة١٣٨-١٧٢ هـ) (٧٥٥-٧٨٨ م)وتوفى والدولة الأموية فى الأندلـس تتمتع بجميع صفات الدولة القوية المنظمة ، مع ما واجهـه مـن عقبات ، وما قامت فى وجهه من ثورات متعددة .

وقد تولى الملك بعده أبناؤه وأحفاده :

- هشام بن عبد الرحمن (١٧٢-١٨٢ هـ)
- الحكم بن هشام (١٨٠-٢٠٦ هـ)
- عبد الرحمن الأوسط بن الحكم (٢٠٦-٢٣٨ هـ)
- محمد بن عبد الرحمن بن الحكم (٢٣٨-٢٧٣ هـ)
- المنذر بن محمد بن عبد الرحمن (٢٧٣-٢٧٥ هـ)
- عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن (٢٧٥-٣٠٠ هـ)

كل هؤلاء لقبوا بالأمراء . إلا أن الدولة لم تبلـغ أوجهـا من الرقى والحضارة إلا فى عهد عبد الرحمن الناصر بن محمـد ابن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط بن الحكم بن هشام ابن عبد الرحمن الداخل ، فقد دام ملكه خمسـين عامـا (٣٠٠-٣٥٠ هـ) فكان أعظم حكام الأندلس بعد جده عبـد الرحمـن الداخل ، ولم يعرف التاريخ الإسلامى عهدا زاهرا كعهده ، فقـد سمحت له مدة ملكه الطويلة أن يجعل الأندلس أمة واحدة تحـت سلطانه ، وحول الإمارة الأموية فى الأندلس إلى خلافة ، وأعلـن نفسه خليفة ، ولقب بأمير الناصر لدين الله (سنة ٣١٦ هـ ٩٢٨ م)

، "وأصبحت قرطبة على أيامه درة العالم المتمدين،وعقـــد مـــع جيرانه الأسبانيين معاهدة عدم اعتداء،ودانت له إمارات الشـــمال النصرانية ، وارتـــاد الأوربيـــون الأندلـــس للثقافـــة،والتجـــارة والاستشفاء "[١]

وقد توفى عبد الرحمن عام ٣٥٠ هـ ، ونتيجة لضعـــف الخلافة العباسية فى المشرق انتقلت الخلافة بعده لابنه الحكـــم ، وقد بلغت الأندلس فى عهده أوج عظمتـــها ومجدهـــا ، وغايـــة رفعتها ، مثله فى ذلك مثل والده .

والحق إن فترة عبد الرحمن الناصر ، ومن بعـــده ابنـــه الحكم كانت أزهر عصور التاريخ الإسلامى فـــى الأندلـــس علـــى الإطلاق :

"فقد وافقت وصول الدولة الأندلسية إلى أوج عظمتها . فالممـــالك المسيحية فى شمال إسبانيا لا يكاد يذكر لها شأن بعد أن خضـــد عبد الرحمن الناصر شوكتها ، وأصبح هو- ومـــن بعـــده ابنـــه الحكم- المتحكمين فى مصير أسبانيا ، بحيـــث كـــان الأمـــراء المسيحيون فى الشمال يحتكمون إليها فيما يشـــجر بينـــهم مـــن خلاف، وكان معظمهم يؤدون إليها الجزية عن يد وهم صاغرون وملوك البلاد الأوروبية المجاورة يهابونها ويلطفون إليهما بالهدايا والسفارات ، حتى شمال إفريقية دان جانب كبير منـــه بالطاعـــة

---

[١] دراسات أدبية فى الشعر الأندلسى ، دكتور سعد إسماعيل شلبى ص ٦ .دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ١٣٩٢ هـ ١٩٧٣ م .

للخلافة الأندلسية ، وأصبح كثير من حكام الإمـــارات المغربيـــة يناوئون سلطان الفاطميين معتمدين على تأييد قرطبة ..."[١]

وبعد موت الحكم أخذت الخلافة تتخبط وســـط المعـــامع والأهواء،وتسير نحو الاضمحلال والضعف ، فطرأ على الدولـــة الفساد،وسادت الفوضى،واضطرب الأمن ..وطبيعـــى أن يفتقـد الأدب فى مثل هذا المناخ من يشجعه أو يأخذ بيده،على الرغم من أن بعض الخلفاء كان شاعرا ينظم الشعر ويتذوقه .

وكان آخر خلفاء بني أمية فى الأندلس هشام الثالث الـذى كتب فى عهده السقوط للدولة الأموية عام٤٢٢ هـ ، وجاء بعدها ما عرف فى تاريخ الأندلس بعهد ملوك الطوائف .

والحق أن البلاد فى ظل العهد الأموى قد نعمت بـــالأمن والاستقرار،والرفاهية والرخاء،وأخذت العقول والقلوب تتشبع بما فى هذه البيئة الجديدة من سحر وجمال،وأصبحت قرطبة ومـــدن الأندلس الشهيرة محط أنظار طـــلاب العلـم،ومقصـد علمـاء العرب،ومطمح أفكار الأدباء والشعراء،ذلك لأن حكام بنى أميـــة بالأندلس قد ساروا على نهج آبائهم فى المشرق،فقربوا العلمـــاء وشجعوا الأدباء والشعراء ، ورحبوا بذوى المواهب فى كل علـم وفن،فكان مـــن أثـر ذلـك كلـه الارتقـاء الفكـرى والـثراء

---

[١] تصدير ديوان ابن دارج القسطلى ، تحقيق وتقديم وتعليق الدكتور محمود على مكى ص ٣٣ .المكتب الإسلامى الطبعة الثانية ١٣٨٨٩ هـ .

الأدبي،وظهور بواكير التجديد في أغراض الشعر،وفي ألفاظه وأساليبه،ومعانيه وأخيلته،وأوزانه وقوافيه.[١]

عهد ملوك الطوائف (٤٠٣-٥٣٦ هـ) (١٠١٢-١١٤١م)

وهو العهد الذي دب فيه الضعف في جسم الدولة الأموية،فقد انحدرت فيه الدولة بعد صعود،وضعفت بعد قوة،وانكمشت بعد امتداد،حتى قام رؤساء القبائل من عرب وبربر وموال يستقلون بالإمارات،ويستبدون بأمرها،ويقتسمون خططها،وقد انقسمت الدولة نتيجة لهذه الأحداث إلى أقاليم عديدة،وتحولت إلى طوائف،وأصبحت المدن الهامة فيها عواصم لهذه الدويلات الصغيرة .

وعلى الرغم مما بين هذه الدويلات من روابط الدين واللغة والجنس أحيانا ، فإن الخلافات قد تفاقمت بينهم إلى درجة كبيرة ، واستيقظت الفتن التي كانت قد أخمدت،وأخذ الخطر يكشر عن أنيابه في كل وقت وحين .ولقد كثر عدد الدول في هذا العهد حتى أوردت المصادر ما يزيد على عشرين دولة، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على حالة التمزق التي منيت بها الدولة الإسلامية الأندلسية على الصعيد السياسي،فقد عمت الفوضى،وساد الانشقاق بانقسام البلاد إلى دويلات صغيرة .

وأشهر ملوك الطوائف:[٢]

---

[١] انظر الشعر الأندلسي في ظلال الخلافة الأموية ، الدكتور عبد العزيز بن عبد الله العواد ص ١٩٠ وما بعدها . مطابع بحر العلوم ،العليا،الرياض،الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م .

[٢] انظر أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث،بطرس البستاني .

(أ) بنو هود فى سرقسطة (٤٠٠-٥٣٦هـ) .

(ب) بنو رزين فى شنتمرية (٤٠٢-٤٩٧هـ) .

(ج) بنو عامر فى بلنسية (٤١٢-٤٧٨هـ) .

(د) بنو الأفطس فى بطليوس (٤١٣-٤٨٧هـ) .

(هـ) بنو عباد فى إشبيلية (٤١٤-٤٨٤هـ) .

(و) بنو جهور فى قرطبة (٤٢٢-٤٦٣هـ) .

(ز) بنو ذى النون فى طليطلة (٤٢٧-٤٨٧هـ) .

ويلاحظ أن بعض هؤلاء الملوك من العرب كبنى عباد وبنى هود،وأن بعضهم الآخر من البربر كبنى رزين وبنى الأفطس وبنى ذى النون .

ويمتاز هذا العهد من الناحية السياسية بكثرة الاضطرابات والحروب،فقد قامت بين هذه الأقاليم والطوائف حروب متصلة،حتى إن بعضهم كان يستنجد فى حربه بملوك الفرنجة .

ولا يقتصر الأمر على ذلك فى آثاره ونتائجه،بل إن آثاره امتدت إلى جميع نواحى الحياة ،حيث ضعفت الموارد وبالغ ملوك النصارى فى البطش والشدة ، وأثقلوا كاهل الأمراء بالإتاوات والضرائب،بل إنهم أخذوا ينكلون بهؤلاء الأمراء ورعاياهم فى كل فرصة تسنح لهمم .

يضاف إلى ذلك أن عددا كبيرا من أمراء الطوائف حرصوا على مظاهر السلطان والجاه،وأخذوا يبذلون الأموال الطائلة فى تدعيم ملكهم،وفى وسائل الترف والبذخ،وقد جرهم

ذلك إلى فرض الضرائب الفادحة،تلك التى كانت ذات أثر كبير فى إضعاف الناس وإفقارهم ماديا ومعنويا[١] .

وكان من نتائج تفاقم هذا الصراع أن زاد ضعف الدولة،وقلت هيبتها،وانفرط عقدها مما أغرى الطامعين فيها ، وجرأهم عليها ، وبدأ كل من يأنس من نفسه القدرة من رؤساء الطوائف من العرب والموالى فيستقل بإمارته ويسميها دولة ،وينصب نفسه ملكا عليها ، وصارت الدولة تتساقط إمارة بعد إمارة ، حتى استحالت إلى دول كثيرة صغيرة،يحكمها ملوك عرفوا فى تاريخ الأندلس باسم ملوك الطوائف .

وبذلك أصبحت الأندلس دولا متناثرة فى بقاع متباينة ، وكثرت من ثم الحروب ، وشاعت المنازعات بينهم من جهة وبينهم وبين ملوك إسبانيا المسيحية من جهة أخرى ، ورغب الكل فى الجاه والشهرةَ ، والنتيجة الطبيعية لذلك أن اضطربت الحياة السياسية ، وكثر الثائرون على الدولة ، الأمر الذى جعل عددا من ملوك الطوائف يلجئون إلى سياسة البطش والقسوة والضرب بأيد من حديد على أيدى أعدائهم ، وقد سجل التاريخ على المعتضد العبادى أخبارا كثيرة فى هذا المجال ، لدرجة أنه كان يحتفظ بجماجم أعدائه فى خزانة بيته .[٢]

---

[١] انظر تاريخ الأدب الأندلسى ، الدكتور إحسان عباس/ عصر سيادة قرطبة ص ٣٩-٤٢ . وانظر كذلك إشبيلية فى القرن الخامس الهجرى،صلاح خالص ص ٤٣ وما بعدها . دار الثقافة، بيروت،لبنان ١٩٦٥ م .

[٢] الذخيرة ق ١ م ٢ص٢٧ مقدمة التحقيق دكتور طه حسين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، نشر كلية الآداب .

وهكذا أعقب هذه القوة السياسية الموحدة الضاربة فى شبه الجزيرة الأندلسية تمزقا وضعفا وتراجعا وهوانا ، مما دفع بعض الكاتبين إلى وصف هذا التمزق بأنه " ضربة لم تنهض الأندلس من آثارها قط ، إذ كانت بداية عهد الانحلال الطويل الذى ظلت الأندلس تتقلب فيه زهاء أربعة قرون " [١] .

والأمر الذى يحسب لهذا التنافس أنه لم يكن سياسيا فحسب بل كان هناك تنافس فى الفنون والآداب ، وظهر تنافس فى مجال الأدب والطرب وفى تشجيع الشعراء والكتاب،هذا فضلا عن أن كل ملك منهم كان ينافس الملوك الآخرين فى تقريب الأدباء ومنحهم العطايا والهبات ، حتى كثر الشعراء والشاعرات ، وشاع فن الموشح بعد أن ظهرت طلائعه فى مطلع هذا الدور .

ومن هنا يمكن القول إن عصر ملوك الطوائف كان عصر ازدهار ثقافى بكل ما لهذه الكلمة من معان .

دولة المرابطين

وإزاء تدهور الحالة السياسية وترديها ، نشطت دعوة إسلامية قوية تتطلع إلى توحيد ملوك الأندلس ، وإسعاف الأوضاع التى بدأت تنذر بالخطر " [٢] ، فكان من ثمار تلك الدعوة دخول المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين [٣] الذى شرع فى خلع ملوك الطوائف الواحد تلو الآخر ولم تأت سنة

---

[١] دول الطوائف،محمد عبد الله عنان ص ١٠٤ موسسة الخانجى ، القاهرة ١٩٦٨ م .

[٢] الاتجاه الإسلامى فى الشعر الأندلسى (فى عهد ملوك الطوائف والمرابطين) دكتور منجد مصطفى بهجت ص ٢٤ .موسسة الرسالة بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ ١٩٨٦ م .

[٣] الذخيرة ق ٢م٤ ص ٦٥٣ .

(٤٩٥هـ) حتى تمت للمرابطين السيطرة على الأندلس وضمها لدولتهم المغربية .

ويبدأ هذا العهد بيحيى بن عمر سنة ٤٨٨ هـ ، وخلفه أخوه أبو بكر ، ثم تنازل أبو بكر لابن عمه يوسف بن تاشفين، وقد ذاع ذكره وعظمت هيبته ، وقضى على المناوئين عندما استنجد به المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، وقد استنجد به مرتين مرة سنة ٤٩٧ هـ ومرة سنة ٤٨٤هـ ، وكانت المرة الثانية هى المرة التى تمكن فيها من بسط سلطانه على الأندلس،وتوفى يوسف سنة ٥٠٠ هـ .

وقد بذل المرابطون جهودا كبيرة فى تثبيت أركان الدولة الأندلسية[١]، وظلوا يحكمون الأندلس حتى عام (٥٤٢هـ) [٢] حين ثار أهل الأندلس عليهم وخرجوا عن طاعتهم ، بعد أن أصابهم الانهيار لانحطاط هممهم الحربية واستغراقهم فى الترف .

ولم تنعم الأندلس بعد يوسف ، فقد ساد التعصب والإرهاب،وكثرت الوشايات ، وقد دام ملك المرابطين فيها نحو ستين سنة ، أديل بعدها إلى الموحدين .

دولة الموحدين

طائفة من أفريقيا أعلنوا الجهاد على المرابطين وغلبوهم فى الأندلس وأول من استولى على الأندلس من الموحدين عبد

---

[١] انظر التاريخ الأندلسى من الفتح الإسلامى إلى سقوط غرناطة ، الدكتور عبد الرحمن الحجى ص٤٤٢،دار القلم ، دمشق ،الطبعة الأولى ١٩٧٦ م .

[٢] المصدر السابق ص ٤٧٥ .

المؤمن بن على الذى قضى على دولة المرابطين فى المغـــرب ، ثم دخل الأندلس عام ٥٥٦هـــ واستولى على أجزاء كثيرة منـــها ، ثم توفى عام ٥٥٨ هـــ، وقد خلفه ابنه أبو يعقوب يوســـف بـــن عبد المؤمن الذى أحكم سيطرة الموحدين على الأندلس ، وبلغـــت دولة الموحدين أوج عزها كذلك فى عـــهد ولـــده أبـــى يوســـف يعقوب.

وقد مال الموحدون إلى تشجيع الآداب والعلـــوم [1] ،ودام ملكهم نحو مائة وثلاثين سنة وانتهى بسقوط دولتهم علـــى أيـــدى ملوك النصارى فى الأندلس .

دولة بنى الأحمر

وبعد سقوط دولة الموحدين أقام بنو الأحمر دولة عربيـــة إسلامية فى غرناطة عام ٦٣٦ هـــ . ويبدأ هذا العـــهد بقيـــام أول ملوكهم محمد بن يوسف بن نصر المعروف بـــابن الأحمـــر بقتـــال النصارى وتأسيسه دولة بنى الأحمر وعاصمتها غرناطة ، ولذا تسمى الدولة دولة بنى الأحمر أو الدولة النصرية .

وقد استطاعت هذه الدولة أن تقف فى وجه التوسع الإفرنجـــى مدة طالت نحو قرنين ونصف ، وينتهى عهد هذه الدولة بنهاية حكـــم العرب لأسبانيا وسقوط غرناطة آخر معاقلهم فيـــها سنة٨٩٨هـــ ١٤٩٢ م .

---

[1] انظر الشعر الأندلسى فى عصر الموحدين ، للدكتور فوزى سعد عيسى ص ٥٩ وما بعدها الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الإسكندرية ، الطبعة الأولى ١٩٧٩ م .

ونتيجة للخطوب والقلاقل التى دبرها أعداء بنى الأحمر سقطت غرناطة آخر معقل للفاتحين ، وسقط بسقوطها الحكم العربى كله .

وهكذا نرى أن دولة المسلمين فى الأندلس قد سقطت بعد حكم دام أكثر من ثمانية قرون،وبعد أن قدمت هذه الدولة حضارة إسلامية رائدة،كانت دون شك منارة العلم فى أوربا،تلك التى كانت تعيش فى تخلف وفى جهل منقطع النظير.

يقول الدكتور محمود على مكى[١] :

"كان للأندلس دائما فى نفوس الناس فى الشرق العربى مكانة خاصة،ومازال ذكر هذه الكلمة يثير فينا مشاعر كثيرة من الذكريات الحزينة والحنين إلى ماضى هذه البلاد التى كانت جزءا من أعظم أجزاء العالم العربى وأعزه عليه طول فترة غير قصيرة من تاريخها".

ويقول الدكتور سعد إسماعيل شلبى[٢] :

"وطويت صفحة كريمة من صفحات التاريخ،سطر فيها المسلمون أروع آيات المجد والفخار فى شتى ميادين العلوم والفنون والآداب ولم توار هذه العثرات السياسية-التى قضت على الحكم الإسلامى-جلال هذا المجد فبقى منارا يهدى العقول،ويسمو بالنفوس،وأصبحت الأندلس فى ذمة التاريخ فردوسا مفقودا يهز القلوب بالأسى ويحرك الوجدان بالآلام" .

---

(١) مقدمة ديوان ابن دراج القسطلى،تحقيق وتقديم الدكتور محمود على مكى ص ٧. المكتب الإسلامى،الطبعة الثانية سنة ١٣٨٩هـ .

(٢) دراسات أدبية فى الشعر الأندلسى ص ٩.

الحالة الاجتماعية والثقافية والفكرية

أولا :الحالة الاجتماعية

يتألف المجتمع الأندلسى من أجناس متنوعـــة وأصنـــاف متعددة من الأقوام التى عاشـــت متآخيـــة وكونـــت الشـــخصية الأندلسية،وتضافرت على صنع الحيـــاة الثقافيـــة والاجتماعيـــة والمجتمع الإسلامى بسماته الخاصة وطابعة المميز.

فهناك سكان الأندلس الأصليون من الأسبان الذين اعتنقـوا الإسلام وكانوا فى الأندلس قبل الفتح الإسلامى،وهنـــاك العـــرب الذين دخلوا الأندلس فاتحين أو هاجروا إليها بعد الفتـــح،وهنـــاك البربر الذين شاركوا فى الفتح الإسلامى أو نزحوا مـــن الشـــمال الإفريقى،وهناك أهل الذمة من اليهود والنصارى وهـــم الأســـبان الذين بقوا على ديانتهم ، وقد ضمن لـــهم المســـلمون حريتـــهم ، وأدخلوهم فى ذمتهم ، وجعلوهم يتمتعون بكامل حريتهم[1].

والحق أن كل تلك الأجناس قد امتزجت بعضـــها ببعـــض امتزاجا تسرب فى عقولهم كما تسرب فى دمائهم،حتى اندمجـــت فئات المجتمع ووحد الإسلام بينها،فأصبحت اللغة العربيـــة لغـــة الجميع،وأخذوا يساهمون جميعا فى الحضـــارة الإســـلامية فـــى

---

[1] انظر حضارة العرب فى الأندلس،ليفى بروفنسال،ترجمة ذوقان قرقوط ص ٧١ .مطبعة الحياة، بيروت.

الأندلس،وكان من أثر ذلك كله أن أصبحت لهم مميزات عقليـــة خاصة وصفات لم تكن لغيرهم [١].

ولم يخل المجتمع الأندلسى من عوامل الضعف ومكونــات الفساد،فقد شاع فيه البذخ والترف،ومالت الغالبية العظمـــى مــن الملوك والفقهاء والتجار والمقربين من الحكام إلى حياة الـــترف والدعة والإسراف واللهو والغناء،وقد تجلى ذلك واضحا فى بنــاء الدور والقصور[٢]،كما تجلى فى المواســـم والاحتفــالات التــى احتفلوا بها[٣]،وفى شيوع الغناء وانتشار مجالس الطرب فى كثير من الأمصار الأندلسية [٤].

واستتبع ذلك كله فرض ضرائب باهظة على سواد النــاس وقد بلغت الجباية التى كان يتقاضاها مظفر ومبارك من بلنســية وشاطبة مائة وعشرين ألف دينار كل شهر سبعون تحصل مـــن بلنسية،وخمسون تحصل من شاطبة[٥].

وقد لاحظ بعض الباحثين ما كانت تحدثه تلك الضرائـــب من إرهاق للناس ، وأشار إلى وســـائل الأمـــراء فـــى جمعـــها وأوجزها قائلا[٦] :

---

(١) انظر بلاغة العرب فى الأندلس،أحمد ضيف ص ٨ مطبعة مصر،الطبعة الأ,لى ١٣٤٢ هـــ ١٩٩٢٤م .

(٢) انظر الذخيرة لابن بسام ق٣م٥ ص ١٧ .

(٣) الذخيرة ق٤م٧ ص١٢٨-١٣٧ .

(٤) انظر تاريخ النقد الأدبى ف الأندلس، دكتور محمد رضوان الداية ص٢٧.دار الأنوار،بيروت،الطبعة الأولى ١٣٨٨ هـــ ١٩٦٨م .

(٥) الذخيرة ق٣م١٥ ص١٥ .

(٦) إشبيلية فى القرن الخامس الهجرى ، صلاح خالص ص٤٣ وما بعدها .

"...مصادرة ممتلكات منافسيهم أو غيرهم من أغنياء المدينة الكبار بعد اتهامهم بشتى التهم... والسبيل الثانى أن يجبر الأمراء المالكين الصغارعلى ترك أراضيهم بمختلف الوسائل " .

ويذكر وسيلة ثالثة كان عدد من الأمراء-وعلى وجه الخصوص أمراء الطوائف-يلجأون إليها فى جمع الأموال وهى [1] :

"...إثقال كاهل الشعب بالضرائب الباهظة ، أو توسيع رقعة المملكة بالضرائب العسكرية "

وينبغى أن نشير إلى أن وجود عدد من الأسبان الذين لم يدخلوا الإسلام،ووجود عدد آخر من اليهود فى وسط المجتمع كان عاملا من عوامل الضعف والانهيار،إضافة إلى استعانة بعض الحكام وعلى وجه الخصوص فى عصر الطوائف وما بعده بالنصارى من ملوك الأسبان الحاقدين على الإسلام والإصهار إليهم،كل ذلك أدى إلى انهيار الدولة الإسلامية فى الأندلس ،وخروج المسلمين منها فى آخر الأمر.

وأيا ما كان الأمر فلا ينبغى أن تصرفنا كل تلك الجوانب السلبية التى كانت فى المجتمع الأندلسى عن تلمس الجوانب المشرقة والإيجابية فى هذا المجتمع،فهذه الجوانب على قلتها لا ينبغى أن تنكر، وقد أدت الإشارات والأخبار المتناثرة فى المصادر الأندلسية وجود قيم سامية ، ومثل إسلامية عليا فى المجتمع الأندلسى ، مما جعله يستجيب لداعى الجهاد،وتتيقظ فيه

---

[1] المصدر نفسه ص ٤٦ .

روح العزة والكرامة ، هذا فضلا عما تحقق في عهد بعض الأمراء من تقدم حضاري وعمران تمثل في بناء المساجد والقصور والعمارات ، والتفنن في زخرفتها وتأثيثها بأبهى ألوان الزينة .

على أننا نعرف أن المجتمع الأندلسي في الفترة التي وافقت حكم الناصر والمستنصر ، وبفضل السياسة الحكيمة التي اتبعها كل منهما- صار مجتمعها متكاملا،بحيث لا يمكن لأحد أن يميز بين الطبقات ، ولهذا "لم يكن من الغريب أن تزدهر الحياة الاقتصادية كذلك ، ويعم الرخاء بشكل لا تكاد ترى له مثيلا في تاريخ الأندلس قبل هذين الخليفتين العبقريين..."[١] .

يقول أحد المعنيين بالحضارة الإسلامية [٢] :

" ظل فن قرطبة المتمثل في مسجدها حيا في دول الطوائف إبان القرن الحادي عشر دون أن يفقد الاستمرار ، مقترنا بمظاهر الاعتدال في صعيد الأندلس بمالقة وغرناطة والمرية حيث اكتسبت هذه المظاهر حركات تطورية احتفظت ببعض الكلاسيكية مع استعداد للسير في طرق جديدة ، ففي هذه المنطقة ولدت عمارة المرابطين ... وإذا كان القصر قد غلب في عصر الطوائف فإن الدافع الديني في عصر المرابطين قد شيد

---

(١) تصدير ديوان ابن دارج القسطلي ، تحقيق وتعليق وتقديم الدكتور محمود على مكي ص٣٣ .المكتب الإسلامي ، الطبعة الثانية ١٣٨٩ هـ .

(٢) الفن الإسلامي في أسبانيا ، مانويل كومث مورينو،ترجمة لطفي عبد البديع ومحمد عبد العزيز سالم ، مراجعة جمال محمد محرز ص ١٤ وص ٢٣٢ .الدار المصرية للتأليف والترجمة .

مساجد كثيرة جدا بسط بناءها واستبدل بالعمود الدعـــائم القويـــة ....." .

ويشير بعض الباحثين إلى جهود أمــراء الطوائــف فـــى العمران والعلوم والثقافة ، ويأخذ يستقصى جهود هؤلاء الأمــراء ، والآثار التى خلفوها حتى يقرر أنه "كان لكل أمير من أمـــراء الطوائف ميزة اختص بها دون جيرانه ، فامتاز المتوكل صــاحب بطليوس بالعلم العزير ، وامتاز ابن ذى النون صاحب طليطلـــة بالبذخ البالغ ، وفاق ابن رزين صـــاحب الســهلة أنــداده فـــى الموسيقى ، واختص المقتدر بن هود صاحب سرقسطة بـــالعلوم ..." [1] .

والحق أن الأندلس كانت درة الحضارة الإســـلامية فـــى أوروبا [2] ،وكان لهذه الحضارة الأثر العظيـــم والرائـــع عـــلى أوروبا جميعها ،وكانت مضرب المثل فـــى الجمـــال والنظافـــة ومظاهر المدنية،هذا فضلا عن أن طبيعة الأندلس كانت تخلـــب الألباب بمروجـــها الخضـــر،وأشـــجارها الجميلـــة،وأزهارهـــا الفواحة،وأنهارها الرقراقة المتدفقة.

وهذا هو الشاعر الرقيق ابن خفاجة ، يصف ما تتمتع بـــه بلاده من نعم كبرى فيقول[3]:

إن للجنـــة بالأنــدلــس مجتلـــى حســـن وريا نفس

---

[1] الشعر الأندلسى ، غارسيا غومس ،ترجمة دكتور حسين مؤنس ص ٤٥ .الطبعة الثالثة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٩ م .

[2] انظر ظهر الإسلام،أحمد أمين : ٣/ ٣٠٩ . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،القاهرة .

[3] نفح الطيب :١ / ١٥٨ .

فسنا صبحتها من شنب ودجى ليلتها من لعس
وإذا ما هبت الريح صبا صحت واشوقى إلى الأندلس

وهذا شاعر آخر يقول[1] :

لله أندلس وما جمعت بها من كل ما ضمت لها الأهواء
فكأنما تلك الديار كواكب وكأنما تلك البقاع سماء
وبكل قطر جدول فى جنة ولعت بها الأفياء والأنداء

ولا يخفى أنه فى الوقت الذى كانت الأندلس تعيش فيه فى قمة الحضارة كانت أوروبا تعيش فى عصر الظلام والانحطاط والجهل ، ومن هنا تلقى الأوربيون العلم عن الأندلس ورحلوا إليها لدراسة الطب والعلوم الأخرى .

ومن هنا فلا عجب إذا سمعنا أن الأوربيون قد أقروا بفضل الحضارة الإسلامية فى الأندلس عليهم ، وأنهم قد ألفوا فى ذلك كتبا ودراسات كثيرة .

ولعل هذا هو السبب نفسه الذى جعل أدباءنا العرب يهتمون اهتماما بالغا بالحديث عن الأندلس،وعن الأدب الأندلسى .

يقول الدكتور / مصطفى الشكعة فى مقدمة كتابه (الأدب الأندلسى موضوعاته وفنونه) [2] :

"لماذا نهتم بالأدب الأندلسى ؟

الأندلس بلاد عزيزة على العرب والمسلمين،وهى فى تصور العقلاء ممن يفقهون أحداث التاريخ منا تشكل واحدة من

---

(1) المصدر السابق : ١ / ٢١١ .

(2) الطبعة السابعة ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٩٢ م ،ص ٧ .

النكبات الكبرى التى حلت بالإسلام والمسلمين،بل هى فى نظرنا نكبة حلت بالإسلام فى التاريخ الوسيط، ولا يكاد يقف معها أهمية وآلما من حيث ضراوة الكوارث التى حلت بنا إلا استباحة فلسطين واغتصابها وطرد سكانها من عرب ومسلمين من ديارهم ...".

ويقول أيضا[1] :

"ومما يزيد اهتمامنا بدراسة الأندلس،تلك الحضارة الرفيعة التى أنشأناها فى مدنه وربوعه فكانت كالكوكب اللامع المضىء فى سماء امتلأت بالظلمة وغرقت فى الحلك ، كانت أوروبا هى تلك السماء المظلمة حيث يحرق الفلاسفة والمفكرون،وكانت الأندلس الإسلامية مهدا للفكر المنطلق،وللعلم المتقدم المتطور وللأدب الريق الرائق المتجدد المتنوع " .

ويقول أيضا[2] :

" إن اهتمامنا بالأندلس فكرا وأدبا وحضارة وتاريخا ينبثق من كل هذه المعانى ، فضلا عن معنى كبير عزيز حاول بعض الذين غررت بهم "الأوروبية " الحديثة حجبه حينا و إنكاره حينا آخر،هذا المعنى هو أن كل الحضارة الأوروبية الحديثة بكل أسباب تقدمها وعوامل ازدهارها حضارة عربية إسلامية ، رضعتها أوروبا ، أو بالأحرى اغتصبتها من فكرنا الإسلامى

---

(١) المصدر السابق ص ٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٩ .

وأساتذتنا المسلمين فى الأندلس وصقلية حسبما أثبتت ذلك حقائق التاريخ المحايد وتفاصيله البعيدة عن التزييف والتغيير " .

ثانيا : الحالة الثقافية والفكرية

تعد الأندلس جزءا من أعظم أجزاء العالم الإسلامى ، وكان لها فى نفوس أهل الشرق العربى مكانة خاصة،ومن أجل هذا وجه الباحثون فى الأدب العربى وتاريخه فى الوقت الحاضر مزيدا من الجهد لبحث مختلف ألوان الحياة الثقافية والأدبية والفكرية التى كان عليها .

يقول الدكتور محمود على مكى [١] :

" وأما الحياة العلمية والثقافية،فقد طالما تحدثت المراجع الأندلسية القديمة والدراسات الحديثة عن النهضة الرائعة التى قدرت للأندلس فى هذا الميدان خلال ذلك العصر،فما نرى أن الحديث عنه يعود ترددا وتكرارا لما قيل،يغنى عنه تصفح أى كتاب من كتب التراجم الأندلسية مثل "تاريخ علماء الأندلس" لابن الفرضى،أو"جذوة المقتبس"للحميدى،أو"صلة"ابن بشكوال،لكى نرى كيف قيض للأندلس مكان بالغ العلو فى جميع نواحى الثقافة العربية،وكيف أصبحت قرطبة تقف على قدم المساواة مع كبريات العواصم الإسلامية مثل بغداد ودمشق والقاهرة " .

وإذا كان كثير من العهود التى مر بها الأندلس قد اتسم بالاضطراب والقلق إلى الصعيدين السياسى والعسكرى،وعانى

---

(١) تصدير ديوان ابن دارج القسطلى ص ٣٤ .

المجتمع من جراء ذلك كله ضعفا في الصعيدين الاجتماعي والاقتصادي،فإن الحق يقتضينا أن نقول إن المجتمع الأندلسي قد استطاع أن يحقق- على الرغم من ذلك - قدرا كبيرا لايستهان به في الصعيد الفكري والثقافي،وقد وضح هذا كل الوضوح ونطقت به صفحات العديد من المصادر التاريخية والأدبية الأندلسية والمشرقية في مقدمتها الذخيرة لابن بسام،ونفح الطيب للمقري،وقلائد الفتح،وجذوة الحميدي،ومعجم الأدباء،وخريدة القصر،ووفيات الأعيان،وقد احتفظت كل هذه المصادر وغيرها بمجموعات وافرة من الأخبار والروايات حول أدباء العصر الأندلسي ومثقفيه،وترجمت لهم،وعرفت بهم،وأوردت آثارهم العلمية والثقافية والأدبية،وذكرت نماذج من آثارهم في الشعر والنثر .

وقد اشتهر المجتمع الأندلسي بحب الثقافة والاطلاع،وتقدير العلماء وإعلاء شأنهم[١]،ونتيجة لذلك كثر العلماء في الأندلس،وكثرت مؤلفاتهم،وبلغت الثقافة الأندلسية قمة الرقي،وقدمت الأندلس للثقافة الإسلامية والعربية أعلاما بارزين في مختلف العلوم والفنون .

لقد حرص كل أمير أندلسي على أن يكون واسع الثقافة،متشعب ألوان المعرفة،كما حرص على أن تكون له مشاركات في الأدب من شعر ونثر،وحرص كذلك على أن

---

[١] انظر تاريخ قضاة الأندلس ، والمغرب في حلى المغرب ، وشيوخ العصر في الأندلس،ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ومطمح الأنفس ومسرح التأنس .

يكون على مستوى من الثقافة الدينية تسمح له بمجالسة الفقهاء الذين هم فى العادة زينة مجالس الأمراء ومستشاريهم فى كل الأحوال.

وإذا أردنا أن نحصى الملوك أو الأمراء العلماء الذين حفلت بهم الأندلس،والذين اشتهروا بتخصص من التخصصات،ولهم ببعض العلوم عميق دراية،وأسهموا بعلمهم وفضلهم فى الرخاء العقلى والفكرى والاقتصادى الذى شهدته الأندلس–فإننا لن نستطيع؛ذلك لأن كل ملك من الملوك ، أو أمير من الأمراء كان حريصا على أن يتفقه فى كل العلوم حتى يجمع بين الاحترام الرسمى الذى هو له بحكم كونه أميرا وبين الإجلال والإكبار الاجتماعى الذى يكتسبه نتيجة كونه عالما من العلماء أو فقيها من الفقهاء ، هذا فضلا عن أن ثقافة الأمراء كانت تدفع بهم إلى احترام العلماء وتقديرهم ووضعهم فى المكانة التى تليق بهم[1] .

كذلك امتاز المجتمع الأندلسى بكثرة المكتبات،وأقبل الناس جميعهم على اقتناء الكتب،وأخذ الأمراء ينشئون المكتبات الضخمة كتلك التى أنشأها الحكم بن عبد الرحمن الناصر فى قرطبة،والتى تعتبر من مفاخر الأندلس ، بل إن شئت فقل من أشهر المكتبات فى العالم الإسلامى[2] .

---

(١) انظر المصادر السابقة فى مواضع كثيرة مختلفة منها .

(٢) انظر الأدب الأندلسى موضوعاته وفنونه،د/مصطفى الشكعة ص ٩٧ وما بعدها .

هذا فضلا عن حرص الأندلسيين على التأثر بروافد الثقافة المشرقية،وقد صادف هذا التأثرهوى فى نفوسهم حكاما ومحكومين على السواء .

يقول الدكتور أحمد أمين[١] :

"إن قلنا : إن الأدب العربى نهر جار فالأندلس رافد من روافده لا نهر مستقل مواز له،وبعبارة أخرى: الأندلسيون وسعوا النهر الأصلى،ولم ينشئوا نهرا جديدا ولئن دفع الأدب الجاهلى الأدب المشرقى،فالأدب المشرقى دفع الأدب الأندلسي" .

ولن نستطيع ونحن بصدد هذه الدراسة أن نحصى المؤلفات التى انتقلت من المشرق إلى الغرب،وكل ما يهمنا أن نذكر أن هناك مؤلفات أدبية كثيرة وصلت من المشرق إلى المغرب،منها على سبيل المثال :

المختارات : " كالمعلقات، والمفضليات ، والأصمعيات، وكتاب الحماسةلأبى تمام، وأشعار الهذليين ، والنقائض بين جرير والفرزدق ، وكتاب اليتيمة للثعالبى .

ومنها الدواوين:ديوان ذى الرمة،والأعشى،وأبى تمام،والمتنبى،والصنوبرى،وسقط الزند،واللزوميات للمعرى،وديوان أبى العتاهية،والدواوين التى جلبها أبو على القالى من الشرق إلى الأندلس .

ومنها كتب الطبقات : الطبقات لابن قتيبة (سنة٢٧٦) والطبقات لابن النحاس (سنة٣٢٧) .

---

[١] ظهر الإسلام : ٣ / ٢٣٠ .

ومنها كتب النوادر : ....كتاب النوادر لعلى بن حزم اللحيانى،والنوادر لأبى زياد الكلابى،والنوادر للحصرى....

ومنها كتب الأدب : كتاب زهر الآداب للحصرى،وكتاب الآداب لابن المعتز"[١] .

والمعلوم أن نخبة كبيرة من طلاب العلم فى الأندلس قد رحلوا إلى المشرق لتلقى العلم والأدب،ولنقل الثقافة المشرقية إلى المغرب والأندلس،فقد رحل يحيى بن يحيى الليثى إلى المدينة المنورة،وتلقى العلم على الإمام مالك-رضى الله عنه-ثم عاد إلى الأندلس،ورحل كذلك الشاعر الأندلسى المشهور يحيى بن الحكم الغزال إلى بغداد والتقى بأدبائها وروى عنهم الشعر .

وكان الأمويون فى الأندلس قد عنوا عناية بالغة بجلب العلماء من المشرق إلى الأندلس،وذلك لإحداث التأثير والتأثر فى مجال العلوم،فكان أن هاجر إلى الأندلس عدد من علماء المشرق فى شتى ألوان المعرفة،فى اللغة والأدب والفقه وغيرها،مثال ذلك أبو على القالى صاحب كتاب " الأمالى ".

وكان أثر القالى عظيما " حيث تخرج على يده أعلام ثقات فى الدراسات اللغوية،كما استطاع أن ينصر المذهب القديم فى الشعر العربى حين روى آثار الجاهليين والإسلاميين،وظل فى قرطبة ثمانية وعشرين عاما،ومهما كان من تأثيره اللغوى والأدبى فإنه لايقاس بأثره العظيم فى تنشئة الحكم نشأة أدبية جعلته وهو ولى العهد يبذل المستطاع فى جمع الكتب

---

[١] فى الأدب الأندلسى،دكتور جودت الركابى ص ٦٩،٧٠ .

وتأليفها،حتى إذا أصبح صاحب الأمر فى البلاد،أحدث هذا الدوى الرنان فى دنيا الثقافة الأندلسية "[١] .

وتدلنا سيرة الحكم على العناية بضروب العلوم.يقول الزبيدى فى مقدمة كتابه عن النحاة.[٢]:

" وأن أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله-رضى الله عنه-لما اختصه الله به،ومنحه الفضيلة فيه من العناية بضروب العلم،أمر بتأليف كتاب يشمل على ذكر من سلف من النحويين واللغويين فى صدر الإسلام ثم من تلاهم من بعد إلى زماننا هذا،وأن أطبقهم على بلادهم حسب مذاهبهم فى العلم ومراتبهم..فألفت هذا الكتاب على الوجه الذى أمرنى به،وأقمته على الشكل الذى حده،وأمدنى رضى الله عنه فى ذلك بعنايته وعلمه،وأوسعنى من روايته وحفظه،إذ هو البحر الذى لاتعبر أواذيه،ولا تدرك سواحله،ولا ينزح غمره،ولا تنضب مادته".

ويقول الدكتور البيومى عنه أيضا[٣] :

".. وأنا أعجب لهذا الخليفة العالم البحاثة كيف استطاعت مآذق السياسة ومعاثر الدولة أن تهيئ له من الوقت ما ينفقه فى بناء الثقافة! ووضع الفهارس لبعض المؤلفات،وجمع الأدباء من شتى الأقطار! وشراء الكتب من أبعد الممالك،وحرصه على ذلك حرصا مدهشا! " .

---

(١) الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير،دكتور رجب البيومى ص ٣٠ .

(٢) طبقات الزبيدى : ٩ - ١٠ نقلا عن الدكتور إحسان عباس (عصر سيادة قرطبة)ص ٥٠ .

(٣) الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير ص ٣١ .

والحق أنه ليس باستطاعتنا أن نتبع المزيد من الإشـــارات والأخبار والرسائل المتعلقة بالحديث حول تقدم الحالـــة الثقافيـــة والفكرية فى الأندلس،وأحسب أن ما أورده البـــاحثون الأقدمـــون والمحدثون من إشارات،وما قاموا بتســـجيله لسـمات الحركـــة العلمية والثقافية فى الأندلس ليكفى لإعطاء فكـــرة وافيـــة عـــن الازدهار الفكرى والثقافى فى الأندلس،وهو بالتالى دليل على مـا بذله بعض الأمراء من جهود فى هذا السبيل كادت تغطى ما كـان من تقصيرهم فى النواحى السياسية والعسكرية "[1]

والذى لامحيد من الإشارة إليه هـــو أن علمـــاء الأندلـــس عرفوا التخصص فى ميادين بعينها،فســـطع فـــى آفـــاق الفكـــر الإسلامى جمهرة كبيرة من نجوم العلم والفكر والأدب .

فهذا هو الفيلسوف والفقيه ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ)[2]
وهذا هو الجغرافى أبو عبد الله بن عبد العزيز البكرى (ت ٤٨٧ هـ)[3]،وهذا هو ابن بسام (ت٥٤٢هـ)صاحب كتاب الذخيرة،وهذا هو ابن خاقان(ت ٥٣٥ هـ) .

---

[1] انظر المعجب فى تلخيص أخبار المغرب،عبد الواحد المراكشى ص ٢٢٧ وما بعدها،وانظر أعمـــال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلال فى ملوك الإسلام أو تاريخ أسبانيا الإسلامية،لسان الدين بن الخطيب، تحقيق ليفى بروفنسال ص ١٤٤ طبعة دار المكشوف،الطبعة الثانية ١٩٥٦م ترجمة محمد عبد الله عنان، وانظر أيضا الذخيرة لابن بسام،ونفح الطيب للمقرى،وتاريخ الأدب الأندلسى،دكتور إحسان عباس، ودول الطوائف حتى الفتح المرابطى،محمد عبد الله عنان.

[2] انظر نفح الطيب للمقرى : ١ / ٤٦٣ .

[3] انظر الحلة السيراء لابن الأبار ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس : ٢ / ١٨٠ . الشركة العربية للطباعة والنشر،القاهرة،الطبعة الأولى ١٩٦٣ م .

والحق يقال إن كل واحد من هذين الأخيرين قـــد نـــهض نهوضا قويا بالثقافة الأندلسية،فصان ذخائرها،وخلد كنوزها[١].

كما أن لأهل الأندلس عنايـــة فائقـــة بالتـــأليف وتنوعـــه، وظهور الموسعات العلمية،ولهم أيضا عناية بالغة باللغة العربيـــة لدرجة تجعلنا نقول إن الـــأندلس قد تعربت بعـــد الفتـــح،وعمـــل الأمويون فيها على ازدهار اللغة العربية وآدابها،فكان من نتـــائج ذلك هـــذا الـــتراث الأدبـــى واللغـــوى الضخـــم الـــذى خلفـــه الأندلسيون،وساهموا به فى خدمة اللغة العربية وعلومها.

ويطول بنا البحث لو ذهبنا نستقصى حظ الثقافة والعلـــوم بعامة فى العصر الأندلسى،ولعل فى هذه الخلاصة التى قدمناهـــا ما يلقى الضوء على قوة الحركة الثقافية والعلمية،واتساع نطاقـــها وشمولها.

وإذا كان حظ الثقافة والعلوم وافرا وذا مكانة بارزة فـــى الدراسات العلمية والثقافية لهذا العصـــــر،فمـــا هـــو دور الأدب باعتباره لونا ثقافيا،وفنا عربيا أصيلا منبثقا عن حياة المســـلمين والعرب،وممثلا لتجاربهم الحياتية والنفسية قبل الإسلام وبعده؟

وللجواب على هذا السؤال نقول إن الأدب لم يكـــن أقـــل ازدهارا من باقى العلوم والفنون التى عرفت فى الأندلس،بـــل إن مكانته تكاد تطغى على باقى المعارف والفنون،ذلـــك لأن الأدب صورة الحياة ومرآتها،يتأثر بها ويتجاوب مع أصدائها،ويعبر عن مشكلاتها.

---

[١] انظر دراسات أدبية فى الشعر الأندلسى،دكتورسعد إسماعيل شلبى ص٦٠ نهضة مصر،القاهرة ١٩٧٧م .

وإذا فتشنا فى المجتمع الأندلسى وجدنا طبيعته من جهة تتسم بالجمال والبهجة،مما يشكل عنصرا مهما من عناصر تقدم الأدب وتطوره،ووجدنا طبيعة أهل الأندلس مجبولة على حب الأدب والتعلق به،وكانوا حريصين كل الحرص على متابعة أهل المشرق والاقتداء بهم،بل ومنافستهم،ومحاولة الإتيان بأحسن مما عندهم .

ومن هنا أقبل الناس على الأدب فى جميع الأحوال،وعلى مختلف مستويات المجتمع الأندلسى،وازداد الاهتمام بالأدب،وكثر الأدباء،ونتيجة لذلك شهدت الأندلس تقدما أدبيا ردده التاريخ،وشهدت به الأجيال،والحق إن هذا التقدم كان مذهلا،وعلى وجه الخصوص فى فترات من عهد الدولة الأموية وفى عهدى الطوائف والمرابطين .

ففى السنوات الأخيرة من خلافة عبد الرحمن الناصر أول خلفاء بنى أمية،وفى خلافة هشام بن المستنصر شهدت الأندلس نهضة أدبية لا مثيل لها،وأصبحت أروج أسواق الأدب والثقافة،وصارت قرطبة تجذب إليها الأدباء والشعراء،وقد دأب الأمراء على استدعاء علماء اللغة فى المشرق،والأدباء والشعراء والظرفاء والمغنيين إلى قرطبة،وصار هذا الأمر سنة جرى عليها الأندلس منذ أن ولى عليها عبد الرحمن الأوسط،واستمر الأمراء الأمويون يتوسعون فى ذلك ولا يبخلون فى سبيله،حتى أصبحت قرطبة تقف على قدم المساواة مع العواصم الكبرى أمثال بغداد والقاهرة و دمشق،بل وتفاخر أترابها من العواصم

الإسلامية،وتنافسهم منافسة شديدة،مما كان له أثر عظيم وبالغ فى حياة الأندلس الاجتماعية والفكرية والفنية .يجمـــــل ذلـــــك الدكتور/مصطفى الشكعة فيقول[1]:

"إن قرطبة عاصمة الأندلس الأولى تاريخا وقدرا، ففيـــها تجلت الحضارة الإسلامية بمختلف أنواع عطائها، وفيها تـــألقت أعظم خلافة فى غرب المملكة الإسلامية، وفى قرطبة نشأ ملـــك بنى أمية فى الأندلس،وترتبط بقرطبة أسماء كبيرة غزيـــرة مـــن بشر ومنشآت،يرتبط بها اسم عبد الرحمن الناصر كبـــير ملـوك الدنيا على زمانه، ويرتبط بهامسجدها الكبير تحفة الفن الإســلامى الخالد، وترتبط باسمها ضاحيتاها الزهــراء المونقـــة،والزهــراء الآسرة اللتان قيل عنهما الزهراء والزاهرة قرطا قرطبة،وبقرطـة يتمثل بجمال الطبيعة،وخصب الحقل وروعة العمران،وازدهـــار العلوم وفيض الثقافة،وتألق الفنون،وسحر الشعر،وبهاء النهر.."

لقد دفعت البلاد فى عهد النـــاصر إلـــى نهضـــة ثقافيـــة شاملة،ساعده فى ذلك بجانب طموح الأمل فى نفســـه-اســتقرار الأمر وازدهار الرخاء فى عصره .

وما أن جاء عهد ولده الحكم حتى"كانا بـــالأندلس بمكـــان الرشيد وولده المأمون بالمشرق،فإذا كان هارون الرشيد قد أحيـــا الحركة الأدبية ببغداد على عهده بما نفح به الشعراء من هبـــات جزيلة،وبما شاهد من المناظرات العلمية بين الكسائى وأئمة اللغـة والأدب فى أبهاء مجالسه،ثم بما أنشأ من خزانة الحكمـــة حيـــن

---

[1] الأدب الأندلسى موضوعاته وفنونه ص ١٧٧.

يوحنا بن ماسويه ترجمة الكتب الطبية القديمة،وأخذ يجمعها من أنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم،ثم جاء ولده المأمون فسار فى الشوط إلى نهايته،وشابه أباه فى تغذية الحركة الفكرية،بحيث كانت مجالسه مدارس علماء وحلقات مفكرين،ثم زاد فى نطاق بيت الحكمة حين راسل ملك الروم فى إنقاذ ما يختار من العلوم القديمة المدخرة لديه،وبعث لذلك جماعة من أفذاذ التراجمة كابن البطريق وسلم والحجاج بن مطر حتى أصبحت بغداد وارثة الروم ثقافة وعلما،كما تمثلت فارس والهند أدبا وحكمة،إذا كان الرشيد والمأمون قد خطوا هذه الخطوات العلمية ببغداد فإنهما قد رسما الطريق للناصر وولده الحكم بالأندلس أن يقفوا أثريهما فى هذا المجال المديد"[1] .

وهذا متنبى المغرب الشاعر ابن دراج القسطلى لم يتابع ما كانت تموج به قرطبة من أخبار أدبائها وعلمائها فحسب،بل نراه يقوم بعدة رحلات إليها،ويأخذ يطلع على جوها الأدبى،ويجتمع فى منتدياتها مع أمثاله من الشعراء الذين يشقون طريق المجد والشهرة فى العاصمة الأندلسية عروس الغرب الإسلامى كله فى ذلك الوقت.

ففى قصيدته الهائية التى أنشدها بين يدى المنصور نراه يشير لرحلته إلى قرطبة،تلك الرحلة التى جعلته يودع زوجه وابنته ، يقول[2] :

---

[1] الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير ، د / رجب بيومى ص ٢٩ .

[2] ديوانه ، تحقيق وتعليق وتقديم الدكتور محمود على مكى ص ١١ .

ولله عزمى يوم ودعت نحوه نفوسا شجانى بينها وشجانى
وربة خدر كالجمان دموعها عزيز على قلبى شطوط نواها
وبنت ثمان لا يزال يروعنى على النأى تذكارى خفوق حشاها
وموقفها والبين قد جد جده منوطا بحبلى عاتقى يداها
تشكى جفاء الأقربين إذا النوى ترامت برحلى فى البلاد فتاها

وقد كان المنصور محبا للعلم،مؤثرا للأدب،مشجعا للأدباء،مفرطا فى إكرامهم،وهو مع ذلك كله لم يكن يسمح لشاعر بالمثول بين يديه إلا بعد أن يجرى عليه اختبارا قاسيا،وكان امتحان الشعراء بين يديه يتم على صور مختلفة[1].

على أننا نستطيع أن نقول إن الثقافة فى بلاد الأندلس كانت تسير – وبخاصة فى عصر الخلافة – فى طريق النضج والاستقلال بخطى سريعة،بحيث يمكن القول إن علماء الأندلس الذين دأبوا على الرحلة إلى المشرق طلبا للعلم لم يعودوا بحاجة إلى موجهين مشارقة يوجهونهم فى نواحى الثقافة العربية،ولهذا فإن استقدام بعض علماء المشرق فى عصرى الناصر والمستنصر إنما كان ضربا من ضروب الترف والمباهاة لاحاجة ماسة ضرورية[2].

وكان من ثمار هذا التقدم ارتفاع لواء الشعر،وظهور مشاهير فى الأدب الأندلسى،من أمثال: ابن شهيد الأندلسى (ت٤٢٧هـ)،وابن دراج القسطلى (ت٤٣١هـ)،وابن شرف

---

[1] انظر نفح الطيب للمقرى،والذخيرة لابن بسام،والمغرب لابن سعيد،والجذوة للحميدى.
[2] تصدير ديوان ابن دراج القسطلى ص ٣٥.

القيروانى (ت٤٦٠هـ)،وابن زيدون (ت٤٦٣هـ)،وابن عمار (ت٤٧٧هـ)،وابن الحداد (ت٤٨٠هـ)،وابن عبدون(ت٥٢٠هـ)، وابن خفاجة الأندلسى(٥٣٣هـ)، هذا إلى جانب اشتهار أسر كثيرة بأكملها بالشعر،وعلى سبيل المثال:أسرة بنى عباد،وبنى حزم،وبنى زهر،وغيرهم.

على أن مما يلفت النظر فى هذا الموضوع أن من يتأمل النتاج الشعرى لشعراء الأندلس يدرك أصالة الشعراء فهم وإن كانوا قد بدءوا نظم الشعر مقلدين،نراهم عارضوا به وتحدوا من سواهم حتى أظهروا استقلالا وتفوقا على كثير من شعراء المشرق،وقد لفتت هذه الظاهرة نظر كثير من الباحثين،وعلل الكثيرون منهم لها بأن البيئة الأندلسية كانت بيئة خصبة للشعر والشعراء .

ومن عجب أن العدد الضخم من الشعراء الذين نشأوا فى الأندلس قد أنشأوا قصائد تنحو نحوا دقيقا فى الاتجاه الوجدانى،ومن السمات البارزة فى شعر كل واحد منهم أنه لايمكن فصله بأى حال من الأحوال عن شخصه،فمن عرف شخصية شاعر فى العصر الأندلسى سهل عليه إدراك فنه،ذلك لأن الشاعر يكشف فى شعره عن شخصيته كشفا واضحا،ولا يتوقف هذا الكشف على مرحلة واحدة من حياته،ولكنه يشمل جميع مراحل حياته،وفى مختلف أغراض شعره،الأمر الذى أظهر للمشارقة أن الأندلس وإن كانت حديثة عهد بالشعر والشعراء فإن شعراءها لا يقلون فى ميدان الأصالة وقوة

الشخصية عن شعراء المشرق بصفة عامة،أو عــن شــعراء أى قطر عربى بصفة خاصة .

ونحن لو اخترنا شاعرا أندلسيا وتصفحنا كل الأغــراض الشعرية التى طرقها،فإننا سنجد أن من الظواهر البــارزة فــى شعره أنه يكشف عن شخصيته،وأنه يلون هذه الأغــراض كلــها بألوان ذاتية فريدة.

ولعلنا لانكون مغالين إذا قلنا إن ما حققــه شــاعر كــابن زيدون من مجد،وما أحرزه من رقى فى عالم الشعر،وما تحقــق له من تجديد فى مضمون القصيدة إنما يدل على حقيقــة هامــة وهى أن شعره لاينتمى إلى التقليد ولكنه يمثل رؤيته الذاتية،وهى حوار مستمربين مأساته وطموحه ،ذلك الطموح الــذى واجهتــه كثير من العقبات والمشقات.وليس فى ذلك غرابة،فالظروف التــى عاشها كانت بعضا من مأساته،ولم تكن فى الغالب الأعم ظروفــا شخصية خالصة تتصل بحياته ونشأته،ولكنها ظــروف تتصــل بالعصر الذى نشأ فيه،ولاريب أنــه عصــر تناقضــات شــديدة ،وعصر فتن وتقلبات،ومن شأن شاعر موهوب كابن زيــدون أن يحس بالغربة فى مثل هذه الظروف وفى كل تلك الأحــوال،وأن تصبح قصائده الشعرية رؤية ذاتية يجسد فيها كل مواقفــه وكــل رؤاه.

..هذا هو حال الشــعر فــى الأندلــس،حيــث نشــطت حركته،وشجع عليه الخلفــاء والأمــراء،حتــى بلــغ الشــعراء الأندلسيون من الكثرة مبلغا عظيما،لدرجة تخيل إلى البــاحث أن

كل أندلسى كان ينظم الشعر،بل إن أكثر وزراء الأندلس كانوا شعراء يجيدون الشعر ويجيدون نقده،ويتبارون فى عقد مجالس الشعر وندواته،وقد فتن بالشعر أيضا عدد من العلماء والفقهاء والقضاة[1].

فشعراء الأندلس إذا منهم الخلفاء والأمراء ، والوزراء ، والقضاة ، والفقهاء ، وكثير منهم من عامة الناس وخاصتهم.

أما عن دور الشواعر فى الأندلس فكان لايقل عن دور الرجال الشعراء،ونذكر منهن:ولادة بنت المستكفى،ومريم بنت أبى يعقوب الفضولى الشلبى،واعتماد الرميكية زوجة المعتمد، وبثينة ابنته،وأم الكرم بنت المعتصم[2] .

ومن الشواعر الأميرات ولادة بنت المستكفى الخليفة الأموى،وقد قامت بدور خطير فى الأدب الأندلسى يشبه دور المرأة فى الأدب الفرنسى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر،والحق أنها مثلت مع ابن زيدون"نموذجا للحب لعله كان الأول من نوعه،حيث كان الجانب الفكرى والاجتماعى يمثلان جانبا هاما من الجوانب التى كانت تشد ابن زيدون إليها" [3] .

ثم إن لشعراء الأندلس بصفة عامة – إلى جانب قيمته الأدبية العظيمة – أهمية كبيرة من الناحية التاريخية،فنحن نراه مرآة

---

(1) انظر نفح الطيب للمقرى : ٦ / ٢٦ – ٣٠ . طبعة دار المأمون مطبعة عيسى البابى الحلبى بمصر ١٣٥٥هـ ١٩٣٦ م .

(2) انظر جذوة المقتبس للحميدى ص ٣٨٨ مطبعة السعادة ١٩٥٣ ومحاسن النساء ص ١٠٨ ، ونفح الطيب: ٢ / ٦٢٨ ، والمغرب فى حلى المغرب : ٢ / ٢٠٣ دار المعارف بمصر ١٩٦٤ م .

(3) دراسات أدبية فى الشعر الأندلسى د/ سعد إسماعيل شلبى ص ١٢١ .

تسجل لنا حياة الأندلس فى تاريخها الماضى،ذلك الذى يثير فى المسلمين مشاعر كثيرة من الذكريات والحنين،ولعل لنا فى شعر شعراء الأندلس فى تلك الفترات التاريخية موعظة نحسن الانتفاع بها من ماضينا لحاضرنا.

وإذا تركنا الشعر وانتقلنا إلى النثر فإننا نقول إن الناظر فى فنون النثر الأندلسى يرى مدى التقدم الذى تم إحرازه وبخاصة فى عصر الطوائف والمرابطين[١] ،إذ صار مستقلا متميزا،وكثرت نصوصه كثرة فاقت الحصر،واتصفت بالتنوع والشمول والعموم .

ونحن حين نبحث عن سر ازدهار كتب التراجم والأخبار والتاريخ فى العصر الأندلسى نجد لدينا ما نقوله ! فالمؤلفات المشرقية وفدت إلى الأندلس،وتداول الأندلسيون هذه المؤلفات.

ومهما كان تأثيرها فإن أحدها وهو " يتيمة الدهر" للثعالبى قد بلغ بتأثيره فى صياغة النثر واتجاه النقد،وكتابة التاريخ ما لم يبلغه أثر سواه[٢]،فلقد تقبله الأندلسيون بارتياح،وأخذوا ينهلون منه،واتخذوه نمطا عاليا يحتذى فى صناعة التأليف،بل إن واحدا من كتاب التاريخ الذين رزقوا حظا كبيرا من الذيوع والشهرة كابن بسام صاحب كتاب "الذخيرة" قد سحره كتاب اليتيمة

---

[١] راجع ملامح التجديد فى النثر الأندلسى خلال القرن الخامس الهجرى د/مصطفى محمد احمد السيوفى،وانظر كذلك النثر الأندلسى فى عصر الطوائف والمرابطين د/حازم عبد الله خضر،منشورات وزارة الثقافة والإعلام،دار الحرية للطباعة ، بغداد ١٤٠١هـ ١٩٨١ م .

[٢] الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير د / رجب البيومى ص ٤٠ .

وبهره،لدرجة أنه قال في مقدمة كتابه إنه اتخذ تقاسيم الثعـــالبى في كتابه اليتيمة منهجا له في كتابه الذخيرة .

وهذان فارسان آخران وهما (لسان الدين بن الخطيـب) و (ابن سعيد المغربى) يتتلمذان على الثعـــالبى ويتـــأثران بكتابـــه اليتيمة،وغير هذا وذاك مما يجعلنا نقول إن طريقة كتاب اليتيمـــة قد تأصلت في المؤلفات الأندلسية .

ونحن إذا حاولنا أن نبحث عن سر هذا الولوع نجده قريبـا غير بعيد " فمناظر الأندلس توحى بالزينة،وحضارة الأندلس قـــد أوجبت تنميق الأثاث،وتجميل الرياش وتحلية القصور والأبهاء،ثم انتقلت إلى اختراع الموشحات في دنيا النظم،ومـــن الطبيعـــى أن تنتقل إلى استحسان البديع في دنيا النثر،أضف إلى ذلك أن أكـــثر القائمين بكتابة الرسائل لدى ملوك الأندلس أدباء وفقهاء في وقـت واحد،وولوع هذا النوع من الكاتبين بالبهارج اللفظية كـــان أشـــد وأكثر "[1].

ومهما يكن من أمر فإن الأدب الأندلسى بصفة عامة جـزء مهم من تاريخ الأدب العربى ، وجزء مهم من الإنتـــاج الفكـــرى العربى، وهو دون شك امتداد طبيعي للأدب العربى في المشرق .

والحق أن هذا الامتداد والاتساع ليبرز من جهة المـــيزات الخاصة بذلك الأدب،تلك التى تجعله في كثير مـــن الجوانـــب ذا أهمية أكبر وأخطر، ومن جهة أخرى فإن هذا الامتـــداد يعـــد ذا أهمية تاريخية وقومية وإنسانية.

---

[1] المصدر السابق ص ٤٢ .

أما عن الحركة النقدية فى الأندلس فيمكننا القول بأن النقد الأندلسى كان فى أولياته جزئيا ذوقيا،يلتفت فى الغالب الأعم إلى النحو والصرف واللغة وطرق استعمال الكلمات[١]،ومع ذلك يمكننا القول إن الحركة النقدية قد تبلورت فى الأندلس وعلى وجه الخصوص فى عصر الطوائف والمرابطين،وتحمل بعض المصادر إشارات عن الحركة النقدية،وهى حركة تجعل من مبدأ المفاضلة ومنهج الطبقات فى تقسيم الشعراء والكتاب منهاجا لها[٢].

وإذا قررنا أن الأندلسيين لم يقبلوا على الدراسات النقدية إقبال المشارقة عليها،وأن المشارقة كانوا أرسخ فى النقد قدما وأوفر جهدا ودرسا،فليس معنى ذلك ،أننا لم نجد بين الأندلسيين من عنى بالنقد أو ألف فيه،وليس معنى ذلك أيضا أن أدباء الأندلس ليست لهم نظرات أدبية وأحكام ذوقية يستطيع من يتتبعها أن يجد فيها ملامح نقدية .

فمعالم النقد واضحة كل الوضوح عند الأديب الأندلسى أحمد بن عبد ربه،ومن يتصفح كتابه"العقد الفريد" يراه – وإن تأثر بآراء من سبقه من نقاد المشارقة – يدلى بآراء شخصية ذات قيمة فى الشعر والشعراء .

---

(١) انظر تاريخ النقد الأدبى فى الأندلس،دكتور محمد رضوان الداية ص ٢٧٤.

(٢) انظر تيارات النقد الأدبى فى الأندلس فى القرن الخامس الهجرى د/مصطفى عليان إبراهيم ص ٥١ مؤسسة الرسالة ، بيروت ،ط ٢ ، ١٤٠٧ هـ ١٩٨٦ م .

ولدينا فى الأندلس كذلك أبو الوليد إسماعيل بـــن عــامر (الملقب بحبيب) ، وأبو عامر أحمد بن عبد الملك (ابن شهيد) والعالم الناقد الشاعر ابن حزم، وابن بســام صــاحب كتــاب الذخيرة ، والشاعر ابن خفاجة الأندلسى ،فكل هــؤلاء لــهم آراء نقدية أفادوها من جهود أسلافهم المشرقيين،ولعلنا لانبعـــد عــن الصواب إذا قلنا إن هؤلاء الأندلسيين قد تذوقوا آراء المشـــرقيين النقدية وطبقوها،فتحقق لهم لون من السبق التطبيقـــى يســتحقون لأجله التقدير .

وإذا تركنا هذه الناحية إلى ما كان يجرى فـــى مجــالس الأمراء،والوزراء،وندوات الأدباء والشعراء،وجدناها تنـــم عــن نظرات نقدية صائبة لا تبعد عن جهود أسلافهم المشرقيين.

والحق أن هذه الجلسات الأدبية كانت شائعة فى الأندلـــس على نحو لم يتوفر مثله فى المشرق،ولاسبيل لنا أن نتحسس هــذه الآراء وتلك النظرات،وحسب من يريد الوقوف عليها الاطـــلاع على كتاب "العقد الفريد" لابن عبد ربه،وكتاب"الذخيرة"لابن بســام ومقدمة ديوان ابن خفاجة الأندلسى،وغير ذلك .

وأغلب الظن أن ازدهار الثقافـــة والفكــر فـــى عصــر الأندلس،ذلك العصر الذى شهد اضطرابات سياســـية يصعــب حصرها – إنما كان إفرازا طبيعيــا لبنــاء شــخصية المجتمــع الأندلسى،ذلك المجتمع الذى أقيم بنيانه على أساس مـــن الفكــر الإسلامى،دون أن يكون للتردى السياسى أثر سلبى يذكر إلا فـــى حدود ضيقة .

ويمكن إضافة عوامل أخرى إلى هذا،منها:حب الأمراء للعلم والثقافة،وتشجيعهم للأدب والأدباء،وبخاصة الذين كانوا في عداد العلماء والأدباء، كالمظفر بن الأفطس،فقد نهض الأدب في عصره،وتوافرت أخبار المؤرخين والأدباء في الإشادة بمكانته والثناء على علمه وثقافته.

ومما قاله فيه ابن بسام[١]:

"كان المظفر بن الأفطس أبو محمد بن عبد الله بن مسلمة المعروف بابن الأفطس أديب ملوك عصره غير مدافع ولا منازع،وله التصنيف الرائق،والتأليف الفائق المترجم بالتذكرة والمشتهر أيضا اسمه بكتاب ابن المظفر في خمسين مجلدا يشتمل على فنون وعلوم ومغازي وسير ومثل وخبر...".

والذي لا شك فيه أنه نتج عن تشجيع الأمراء بسبب حبهم للعلم اتساع المدى أمام العلماء والأدباء،فكانوا يتنقلون بين المدن والحواضر،أو قل بين الدويلات المختلفة بمحض رغبتهم،أو باستدعاء الأمراء لهم،وتشجيعهم على المثول بين أيديهم والعيش في أكنافهم[٢].

ومن هنا لم يحل انقسام دولة الأندلس إلى دويلات دون نضوج الثمرة العلمية التي بدأت قبل عصر الطوائف،بل صارت كل دويلة مركز إشعاع فكري، وتخصص بعضها في فن دون

---

(١) الذخيرة القسم الثاني ص٣٩٥.وينظر ابن عذارى المراكشي:البيان المغرب:٣/٢٣٦،٢٣٧.

(٢) تراجع الحركة اللغوية في الأندلس،البير حبيب مطلق ص ٢٦٠.المكتبة العصرية بيروت ١٩٦٧م.
وتراجع أيضا مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مجلد ٣١ج٣ص٣٧٦ مقال لعبد الله كنونة بعنوان (الشعر الأندلسي).

آخر،فقرطبة عرفت بالعلم،وإشبيلية عرفت بالموسيقى[١]،وهكذا.

وبهذا توفرت الأسباب لنهضة الأندلس فكريا وثقافيا،وكان من أثر ذلك أن كثر العلماء والمؤلفون كثرة لم يكن لها مثيل في تاريخ الأندلس،وازدهرت حركة التأليف ونهضت حتى شملت مختلف العلوم،وظهر علماء في مختلف حقول العلم والمعرفة،في مجال العلوم الشرعية،وفي مجال اللغة والأدب،وفي مجال التاريخ،وفي مجال الطب والرياضيات وغيرها[٢].

وأظهر من فطن إلى هذا الازدهار علامة الأندلس ابن حزم،ففي رسالة عقدها في فضل الأندلس وذكر رجالها نراه يستعرض ما أثر عن بلاد الأندلس في مجال العلوم والفنون.

وقد أتى الدكتور محمد رجب البيومي في كتابه **(الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثيرص٣٤) بقول ابن حزم في ختام** رسالته:

"وبلدنا هذا على بعده من ينبوع العلم،ونأيه من محلة العلماء،فقد ذكرنا من تأليف أهله ما أن طلب مثلها بالأهواز وفارس وديار مضر وديار ربيعة،واليمن والشام أعوز وجود ذلك على قرب المسافة في هذه البلاد من العراق التي هي دار هجرة الفهم وذويه،ومراد المعارف وأربابها،ونحن إذا ذكرنا أبا الأجرب جفونه بن الصمة الكلابي لم نباه به إلا جريرا أو الفرزدق لكونه

---

(١) انظر الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي،دكتور محمد مصطفى محت ص ٣٤.

(٢)انظر مثالا لذلك:الشعر في ظل بني عباد ، محمد مجيد السعيد ص٥٩.

فى عصرهما،ولو أنصف لاستشهد بشعره فهو جار على مذهب الأوائل لا على طريقة المحدثين،وإذا سمينا بقى بن مخلد لم نسابق به إلا محمد بن اسماعيل التجارى ومسلم بن الحجاج النيسابورى-ثم أفاض ابن حزم فيما يشبه ذلك عن العلماء حتى قال عن الأدباء:

" ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن دراج القسطلى لما تأخر عن شأو بشار وحبيب والمتنبى،فكيف ولنا معه جعفر بن عثمان الحاجب،وأحمد بن عبد الملك بن مروان،وأغلب بن شعيب،ومحمد بن شخيص،وأحمد بن فرج،وعبد الملك بن سعيد البرادى،وكل هؤلاء فحل يهاب جانبه وحصان ممسوح الغرة " .

والحق أن الأوربيين قد اعتمدوا فى نهضتهم الحديثة على تلك النهضة العلمية التى كانت للعرب،إذ ترجموا كثيرا من كتب العرب فى الفلسفة والرياضيات والطب،والهندسة،وغيرها إلى اللاتينية،فتوفر لهم من كل تلك العلوم أساس قوى بنوا عليه حضارتهم المعاصرة[١].

ويبدو أن التأثير الأندلسى قد امتد إلى الفكر العربى الحديث[٢]،مما يجعلنا نقول إن فاعلية الفكر الأندلسى أصبحت قوية،وهنا تبرز أهمية الأدب العربى فى الأندلس من فاعلية

---

(١) انظر فصول فى الأدب الأندلسى فى القرنين الثانى والثالث للهجرة،دكتور حكمة على الأوسى ، ص١٨٥ وما بعدها،ط٣.نشر مكتبة الخانجى القاهرة.

(٢) انظر مقدمة الكتاب السابق.

الفكر الذى يصدر عنه،فبعد أن استوعب العلوم فـــرض عليــها شخصيته وقدرته التأثيرية.

وإزاء هذا العرض الموجز والإشارات المختصرة إلى حظ الثقافة والعلوم فى الأندلس،لا بد أن يستوقفنا سؤال لا محيد مـــن طرحه والإجابة عليه وهو:

ما الأسباب التى أدت إلىهذه النهضة العلمية والثقافية،على الرغم من الضعف السياسى الذى تعرضت له البلاد مـــن فـترة لأخرى؟

وللجواب على هذا السؤال ينبغى النظر فى أحداث الزمـــن وتطورات الأحوال من خلال طبيعة المجتمع الأندلسى،والظروف الاجتماعية والسياسة والاقتصادية التى ظللت هذا المجتمـــع،ثـم المثل والقيم التى سادت هذا المجتمع،ومـــا كـــان يـــراود الفـــرد الأندلسى من أفكار وأهداف وغايات.

وإذا كـــانت هـــذه النقطـــة موضـــع عنايـــة البـــاحثين واهتمامهم،وظهرت لـــهم فيـــها آراء ووجـــهات نظـــر متباينـــة ومتفاوتة،فإننى أرى أن الوضع السياسى الذى شـــهدته الأندلـــس وأدى فى كثير من الأحيان إلى انقسام الدولة إلى دويلات،أرى أن من نتائجه الإيجابية ازدياد النشاط الثقافى والعلمى،واتساع الآفـاق الرحبة أمام العلماء والمثقفين والمتأدبين،هذا فضلا عن أنـــه أدى بشكل أو بآخر إلى التنافس بين الأمـــراء فـــى تقريـــب الأدبـــاء والعلماء،وإغداق الأموال عليهم،وكان هذا الاضطراب السياســـى

وانقسام العاصمة الأندلسية المركزية إلى عواصم كما يقول أحـــد المستشرقين[١] :

"كان ذا نتيجة مزدوجة على الأدب والثقافة،فقد أدى إلـــى تنافس الأمراء،وإلى تعدد المراكز الثقافية،ممـــا شـــجع الحركـــة الأدبية،وفتح الباب واســـعا والميـــدان فســـيحا أمـــام الشـــعراء والأدباء،ينتقلون بين هذه المراكز وهم يتمتعون بقسط وافر مـــــن التقدير والاحترام،وأصبح لهم قدر لا يستهان بـــه مـــن الحريـــة والاختيار بين الأمراء والأماكن التى يسكنها الشـــاعر ويمـــارس فيها مواهبه الأدبية،وقابلياته العلمية والثقافية".

والحقيقة أن انقسام الدولة فى عهد ملوك الطوائـــف قـــد جعل الأمراء يتنافسون فى مجالى العلوم والأدب،مما جعل البـذرة الأولى التى وضعها الأمويون تنضج فى عهدهم، ويكـــون مـــن نتائج تنشيط الحركة العلمية أن ترى فى الأندلس فى هذه الفـــترة ابن حزم وابن شهيد[٢] .

ومما لايخفى على الباحثين أن هناك عوامل آخرى يمكـــن أن تضاف إلى ما سبق أن ذكرناه من عوامل كـــانت ذات أثـــر واضح فى دفع عجلة الثقافة والأدب فى الأندلـــس،ومـــن هـــذه العوامل أثر الإسلام فى اللغة وعلومها،والرباط اللغـــوى الـــذى يربطه الدين بين أتباعه من جانب واللغة العربيـــة مـــن جـــانب

---

(١) الشعر الأندلسى،غارسيا غومس،ترجمة الدكتور حسين مؤنس ص ٤٤ مكتبة النهضة المصرية.

(٢) ظهر الإسلام،أحمد أمين: ٣ / ٤٢.طبعة مكتبة النهضة المصرية.

آخر،هذا فضلا عما تمتاز به اللغة العربية من حيوية وقوة بسـبب كونها لغة القرآن الكريم.

ويمكن أن يعد من العوامل أيضا قوة الصلة بين الأندلـــس والمشرق،وشعور الأندلســيين مـــن جهتـــهم بارتباطـــهم بـــأهل المشرق،ومشاركتهم لهم فى كل ما يحصل لديهم من تقدم علمــــى وثقافى،وإقبالهم على دواوينهم وكتب الـــتراجم والأدب،وتقليدهـــم ومحاكاتهم لهم،ثم حبهم وتطلعهم للتفوق عليهم.

...كل هذا كان له أثره الواضح فى دفع حركـــة الثقافـــة ودعم الأدب الأندلسى،بل إن شئت فقل ونضج وتكامل الشــخصية الأندلسية،وتبلور أفكارها وتصوراتـــها إزاء مختلــف القضايـــا والأمور العامة والخاصة.

الفصل الثانى

أغراض الشعر الأندلسى

نظم شعراء الأندلس فى مختلف الأغراض الشعرية المعروفة فى المشرق العربى،من مدح وفخر،وهجاء،ورثاء،وغزل،كما أنهم توسعوا فى بعض الأغراض وتفوقوا فيها على شعراء المشرق،كوصف الطبيعة،ورثاء المدن والممالك الزائلة .

والملفت للنظر أن الأندلسيين لم يشذوا بوجه عام عن القواعد الأساسية والأساليب التى كان المشارقة يلتزمونها فى أشعارهم .

وسوف نتناول بإيجاز أغراض الشعر الأندلسى مع التمثيل بنماذج مختارة لكل غرض .

(١) المديح

شعر المدح من الأغراض الشعرية الشائعة فى الشعر العربى على امتداد عصوره،وكان الشعراء فى الأندلس قد ذكروا فى المديح قصائد كثيرة،وكلها فى مديح الخلفاء،والأمراء،والعظماء،والقادة .

وقصائد المديح تحافظ فى مجملها على الأسلوب القديم،ولا تخرج عن الطريقة التقليدية للمدح فى الشعر العربى،من بدأ القصيدة فى الغالب بالغزل،أو وصف الرحلة إلى الممدوح،وربما بدأت عندهم بوصف الطبيعة،أو الخمر،أو الشكوى،أو العتاب،وقلما شذ أحد من الشعراء عن هذه الطريقة .

ثم يبدأ الشاعر فى تعداد صفات الممدوح من شجاعة وكرم وغير ذلك من الصفات التى يدور عليها المديح فى الشعر العربى .

كل ما فى الأمر أن مديح الأندلسيين يمتاز بشىء من الرقة،تلك التى كانت طابعا عاما للشعر الأندلسى،كما يمتاز المديح بوصف الطبيعة الأندلسية الساحرة،وبوصف مظاهر الحضارة من قصور وقلاع وحصون .

ومن أشهر شعراء المديح فى الأندلس::ابن هانئ الأندلسى،وابن دراج القسطلى،وابن حمديس الصقلى،وابن عمار،ويحيى بن الحكم الغزال،وأحمد بن محمد بن عبد ربه،وأحمد بن عبد الملك ابن شهيد .

يقول ابن دراج القسطلى يمدح المنصور بن أبى عامر[1] :

ولما توافوا للسلام ورفعت   عن الشمس فى أفق الشروق ستور
وقد قام من زرق الأسنة دونها   صفوف ومن بيض السيوف سطور
رأوا طاعة الرحمن كيف اعتزازها   وآيات صنع الله كيف تنير
وكيف استوى بالبحر والبدر مجلس   وقام بعبء الراسيات سرير
فساروا عجالا والقلوب خوافق   وأدنوا بطاء والنواظر صور
يقولون والإجلال يخرس ألسنا   وحازت عيون ملأها وصدور
لقد حاط أعلام الهدى بك حائط   وقدر فيك المكرمات قدير
مقيم على بذل الرغائب واللهى   وفكرك فى أقصى البلاد يسير
وأين انتوى فل الضلالة فانتهى   وأين جيوش المسلمين تغير

---

[1] ديوان ابن دراج ص٢٥٣ ، ٢٥٤ .

وحسبـــك من خفض النعيم معبدا جهـــاز إلى أرض العـــدى ونفير
فقدها إلى الأعداء شعثـــا كأنهـــا أراقم فى شـــم الربـــا وصقـــور
فعزمـــك بالنصـــر العزيز مخبـــر وسعـــدك بالفتـــح المبين بشيـــر
وناداك ياابن المنعمين ابن عشرة وعبد لنعمـــاك الجســـام شكـــور

والحق أن ابن دراج قد مدح المنصور بأشعار كثيرة،وقد بلغت قصائده فيه شهرة هائلة،وهى تعد من أروع مـــا نظـــم وأحقه بالتقدير،لدرجة أن الذى يقرأ هذا الشعر "لايملك تفكـــيره من أن يثب إلى مدائح المتنبى فى سيف الدولة"[1].

والأمر الملفت للنظر أن ديوان ابن دراج يضم عشـــرات القطع والقصائد التى تعبر عن إعجابه بشخصية المنصور،فـــهو البطل الذى كان رمزا لمجد الإسلام فى تلك البلاد،ولو أننا تتبعنا أشعار ابن دراج التى قالها فى المنصور لاحتجنا إلى صفحـــات أكثر بكثير مما تسمح به هذه الدراسة الموجزة .

وحين تولى عبد الملك بعد وفاة أبيه المنصور،مدحه ابـــن دراج أيضا،وأخذ يتغنى بغزواته التى قام بها فى أسبانيا،وله مـــن ذلك رائيته التى منها[2] :

لئن سرت الدنيا فأنت سرورها وإن سطعت نورا فوجهك نورها
سلام على الأيام ما شمت للعلى أهلتهـــا واستقبلتـــك بدورهـــا
وبوركت الأزمان ما أشرقت لنا بوجهك هيجاواتهـــا وقصورها
فلا أوحشت من عز ذكرك دولة إليك انتهى مأمورها وأميرهـــا

(١) تصدير ديوان ابن دراج ص ٤٨ .
(٢) الديوان ص ١٨ .

فما راق إلا في جبينك تاجهـــا ولا قـــر إلا إذ حواك سيرهـــا
فلا راعها خطب وسيفك أنسها ولا رامها ضيم وأنت مجيرها
ومن ذا يناوئها وأنت أميرهـــا ومن نسلك الزاكى الكريم وزيرها ؟
فتى طالعتـــه بالسعود نجومـــها وطارت له باليمن فينا طيورها
أذل له"عبـــد المليـــك"ملوكهـــا وأنجبه"المنصور" فهو نصيرها

ومدائح ابن دراج لم تقتصر على المنصور وابنـــه عبـــد الملك المظفر،بل إنه توجه بشعره إلى وزير عبد الملك"عيسى بـن سعيد اليحصبى" [1] ، كل ما فى الأمر أن قصائده فى هذا الأمـــير كانت تتسم فى الغالب الأعم بطابع الشكوى،ولعل ذلك راجع إلـــى ما قيل عنه من أنه قد لقى شدة وعسفا على يد هذا الوزير.

ويمدح أحمد بن عبد ربه الخليفة عبد الرحمـــن النـــاصر فيقول[2] :

قد أوضح الله للإســـلام منهاجـــا والناس قد دخلوا فى الدين أفواجا
وقـــد تزينـــت الدنيـــا لساكنهـــا كأنما لبســـت وشيـــا وديباجـــا
مات النفاق وأعطى الكفر ذمتـــه وذلت الخيـــل إلجاما وإسراجـــا
أدخلت فى قبـــة الإسلام مارقـــة أخرجتهم من ديار الشرك إخراجا
فى نصف شهر تركت الأرض ساكنة من بعد ما كان الجور فيها قد ماجـــا
إن الخلافة لن ترضى ولا رضيت حتى عقدت لها فى رأسك التاج

ومن شعر المديح أبيات للشاعر الغزال من قصيدة وجهها وهو فى السجن إلى الأمير عبـــد الرحمـــن بـــن الحـــكم بـــن

---

[1] انظر الديوان ص ٣٧ ، ٤٢ .
[2] انظر ترجمة ابن عبد ربه فى"وفيات الأعيان" : ١ / ١١٠ .

هشام[1] ،يقول فيها :

من مبلغ عنى إمام الهــدى	الوارث المجــد أبا عــن أب
أنـــى إذا أطــنب مــداحــه	قصدت فى القول فلــم أطنب
لا فك عنى الله إن لم تكن	أذكرتنـــا من عمــر الطيــب
وأصبح المشرق من شوقه	إليك قد حــن إلى المغــرب
منبره يهتف مــن وجــده	إليــك بالسهــل وبالمرحــب
أطربه الوقت الذى قد دنـــا	وكان من قبلك لــم يطــرب
هفا به الوجــد فلــو منبــر	طار لوا فـــى خطفـــة الكوكب
إلى جميل الوجه ذى هيبـــة	ليست لحامى الغابة المغضب
لايمكن الناظر مــن رؤيـــة	إلا التماح الخائــف المذنــب

على أن مدائح الشعراء لم تقتصر على هذه الشـــخصيات التى ذكرناها،بل إنهم اتصلوا-كمـــا يبــدو لنـــا مـــن شـــعرهم- بغيرهم،ومدحوهم وقالوا قصائد فى تهنئتـــهم بالفتوحـــات التـــى حققوها،وغير هذا وذاك مما هو مفصل بالدواوين،ولامجال هنـــا للإتيان عليه وحصره.

(٢) الفــخــر

أمـــا الفــخر فلم تقم له سوق رائجة فى الأندلس،ومن ثـــم لم يبرز فى الشعر الأندلسى شعراء اشتهروا بـــالفخر والحماســـة كما كان حال المتنبى وأبى فراس فى المشرق،ولهذا يعــد شـــعر الفخر من الأغراض التى ضعفت فى الأندلس،وما وجد من نماذج

---

[1] المطرب لابن دحية،تحقيق مصطفى عوض الكريم ص ١٢٦ مطبعة مصر الخرطوم ١٩٥٤ م وتحقيق إبراهيم الإبيارى وآخرين مراجعة د/ طه حسين ص ٣٤ . المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥٤ م .

للفخر فى شعر بعض حكام الأندلس وفى شعر الوزراء وغيرهم إنما كان مبثوثا فى ثنايا قصائد المديح.

والحق إن الفخر فى عصر بنى أمية-وعلى وجه الخصوص فى أول هذا العصر-كان أوضح منه فى العهود التالية له،ذلك لأن هذا العصر كان عصر دعة واستقرار،أما العصر الأندلسى فكان عصر ضعف وانهيار واضطراب سياسى،وهزائم متلاحقة،فاختفى من ثم شعر الفخر لفقدان دواعيه،وظهر بصورة أقوى شعر الشكوى،ورثاء المدن،لوجود الأسباب والمقدمات،ولكثرة ماأصاب العصر من محن ونكبات.

ومن نماذج شع الفخر ماقاله الأمير عبد الرحمن الأوسط ابن الحكم[1]:

وكم قد تعسفت من سبسب ولاقيت بعد دروب دروبا
وأدرع النقع حتى لبست من بعد نضرة وجهى شحوبا
ألاقى بوجهى سموم الهجير وقد كاد منه الحصى أن يذوبا
بى أدرك الله دين الهدى فأحييته وأمت الصليبا
وسرت إلى الشرك فى جحفل ملأت الحزون به والسهوبا

ومنه كذلك قول المنصور بن أبى عامر[2]:

رميت بنفسى هول كل كريهة وخاطرت والحر الكريم يخاطر
وما صاحبى إلا جنان مشيع وأسمر خطى وأبيض باتر
وإنى لزجاء الجيوش إلى الوغى أسود تلاقيها أسود خوادر
رفعت المعالى بالعوالى حديثة وأورثناها فى القديم معافر

---

(١) انظر نفح الطيب:٢/٣٢٦.

(٢) انظر ترجمته فى الذخيرة : ق٤ جـ ١ ص ٥٦ .

(٣) الرثاء

ليس للأندلس فى رثاء الأشخاص ما للمشارقة من روائع،ولم يبرز فى الشعر الأندلسى شعراء اشتهروا بنظم قصائد فى رثاء الأشخاص.

أما رثاء المدن والممالك الزائلة فهو ميدان أجاد فيه الأندلسيون وأبدعوا،بل إنهم تفوقوا فيه على المشارقة،ولذلك سنفرد لهذا اللون من الرثاء حديثا مستقلا خاصا به .

وقد نجد رثاء تقليديا للأشخاص،كما فى رثاء الأمراء والقادة والعلماء،والقصيدة من هذه القصائد تكون بمثابة تأريخ للميت،ولأعماله العظيمة،وتسرد فيها أبيات الحكمة والموعظة الناتجة عن الإحساس بالموت وفقدان شخص عزيز .

أما قصائد الرثاء التى تكون فى الأبناء،أو الآباء،أو الزوجات،فقد ظهرت فيها عاطفة الشاعر الأندلسى الرقيقة وامتلأت بإحساساته المرهفة .

والملفت للنظر أن شعر الرثاء فى الأندلس لم يختلف عن مثيله عند المشارقة،فالشعراء يستهلون قصائدهم بالحكم كالمشارقة،ويأتون بمعان وأساليب تتشابه مع معانيهم وأساليبهم،هذا فضلا عن نغمة التفجع على الميت،ووصف المصيبة وتعداد المناقب .

وهناك لون ذاتى يكشف الشاعر فيه عن فاجعته ولوعته الشديدة،وهذا هو رثاء الأولاد،ومن صور هذا الرثاء ما قاله

الشاعر أحمد بن عبد ربه يرثـــى ابنـــه الصغـــير الـــذى رزئ بفقده[١] :

على مثلها من فجعة خاننى الصبر	فراق حبيب دون أوبته الحشـــر
ولـــى كبـــد مشطـــورة بيد الأســـى	فتحت الثرى شطر وفوق الثرى شطر
يقولون لـــى صبـــر فؤادك بعده	فقلت لهم مالـــى فؤاد ولاصبـــر
فريخ من الحمر الحواصل ما اكتسى	من الريش حتى ضمه الموت والقبر
إذا قلت أسلو عنى هاجت بلابل	يجددهـــا فكـــر يجدده فكـــر
وأنظر حولى لا أرى غيـــر قبره	كأن جميع الأرض عندى له قبر

وله فى ذلك أيضا أبيات نابعة من القلب،منبثقة من أعمـــاق النفس،وهى غاية ما يكون التعبير فى مقـــام الرثـــاء،وتصويـــر الموقف الحزين[٢] ، يقول :

واكبدا قد تقطعـــت كبـــدى	وحرقتها لواعـــج الكمـــد
ما مات حـــى لميت أسفـــا	أعذر من والد علـــى ولـــد
يارحمة الله جاورى جدثـــا	دفنت فيـــه حشاشتى بيـــد
ونورى ظلمة القبور علـــى	من لم يصل ظلمه إلى أحـــد
من كان خلوا من كل بائقـــة	وطيب الروح طاهر الجسد
يا موت يحيى لقد ذهبت به	ليـــس بزميلـــة ولا نكـــد
يا موتـــه! لو أقلت عثرتـــه	يا موته! لـــو تركتـــه لغـــد
يا موته لو لم تكـــن تعاجله	لكان- لاشك - بيضة البلـــد
أو كنت راخيت فى العنان له	حاز العلا واحتوى على الأمد

---

[١] العقد الفريد : ٣ / ٢٥٨ .

[٢] المصدر نفسه : ٣ / ٢٥١ . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٥ هـ ١٩٤٦ م .

أى حسام سلبت رونقه   وأى روح سللت من جسد
وأى ساق قطعت من قدم .   وأى كف أزلت من عضد
يا قمرا أجحف الخسوف به   قبل بلوغ السواء فى العدد

وهناك لون آخر من الرثاء ذاتى خالص يكشف عن أهمية دور المرأة فى المجتمع،وهو رثاء الزوجات وهذا الاتجاه يتصل بشكل أو بآخر بطبيعة النفس الأندلسية القلقة التى تبحث عن الطمأنينة والاستقرار ونسيان الحيرة بعضا من الوقت .

وفى هذا الرثاء يحس الشاعر بالضياع،ويعانى الشعور بالحرمان،ولاشك أن فقد الزوجة فى أى بيئة إنما يمثل للزوج فاجعة شديدة تصيب الإنسان فى عزيزه،وتحرمه من أليفه وإذا ما وضعنا فى الاعتبار حياة الأندلس وما سادها من قلق واضطراب عرفنا أن فقد الزوجة إنما يمثل لوعة شديدة ومصابا لايمكن بأى حال من الأحوال أن يحتمل أو يطاق .

ولابن حمديس الصقلى[1] قصيدة على لسان ولده (عمر) يجعلها فى رثاء زوجته التى كانت أم ولديه (أبو بكر وعمر) ومنها[2] :

أى خطب عن قوسه الموت يرمى   وسهام تصيب منه فتصمى
يسرع الحى فى الحياة ببرء   ثم يفضى إلى الممات بسقم
فهو كالبدر ينقص النور منه   بمحاق وكان من قبل ينمى
كل نفس رمية لزمان   قدر سهم له فقل:كيف يرمى
بيض أيامها وسود لياليـ   ـها كشهب تكر فى إثر دهم
وهى فى كرها عساكر حرب   غر من ظنها عساكر سلم

---

[1] انظر ترجمته فى وفيات الأعيان : ١ / ٣٠٢ .

[2] انظر ديوان ابن حمديس ص ٤٧٧ – ٤٨٠ . تصحيح وتقديم الدكتور إحسان عباس، دار صادر بيروت للطباعة والنشر ١٣٧٩ هـ ١٩٦٠ م .

بدد المــوت كــل طائــر جـــو   فـــى مفـــاز وكـــل سابـــح يـــم
رب طـــود يريـــك غيـــر بعيـــد   منه شم السمـــاء أنـــف أشـــم
جمـــع المـــوت بالمصـــارع منه   بيـــن فتـــخ محلقـــات وعصـــم
كم رأينـــا وكـــم سمعنـــا المنايـــا   غير أن الهـــوى يصـــم ويعمـــى
أين مـــن عمـــر اليبـــاب وجيـــل   لبس الدهـــر مـــن جديس وطسم
وملـــوك مـــن حميـــر ملأوا الأر   ض وكانت من حكمهم تحت ختم
وجيـــوش يظـــل غـــاب قناهـــا   أسدا من حمـــاة عـــرب وعجـــم
كشر الدهـــر عـــن حداد نيـــوب   أكلتهم بكـــل قضـــم وخضـــم
ومحوا من صحيفة الدهـــر طرا   محـــو هوج الريـــاح آيات رسم
أفـــلا يتقـــى تغيـــر حـــال   فيـــد الدهـــر فى بنـــاء وهـــدم
والرزايا فـــى وعظهـــن البرايـــا   فى الأحاييـــن ناطقـــات كبكـــم
والـــذى أعجـــز الأطبـــاء داء   فقد روح بـــه ووجـــدان جســـم
لـــو بكى ناظرى بصوب دمـــاء   ماوفى فى الأســـى بحســـرة أم
من توســـدت فى حشايا حشاهـــا   وارتدى اللحم فيه والجلد عظمى
وضعتنى كرهـــا كمـــا حملتنـــى   وجرى ثديها بشربـــى وطعمـــى
بحنان كأنهـــا فـــى رضاعـــى   أم سقـــب درت عليـــه بشـــم
ولو أنـــى كففت دمعـــى عليهـــا   عقتى برهـــا فأصبـــح خصمـــى
كـــم خيـــال يبيت يمسح عطفى   لـــك يـــا أمنـــا ويهتف باسمـــى
بأبى منـــك رأفـــة أسندوهـــا   فـــى ضريـــح إلـــى جنادل صـــم
وصيـــام بكـــل مطلـــع شمـــس   وقيـــام بكـــل مطلـــع نجـــم
ولســـان دعـــاؤه مســـتجـــاب   لـــى أودعتـــه الرغـــام برغمى
وحفير مـــن الصبابـــة فيـــه   فى حجاب التقـــى سريـــرة كتـــم
كـــم تكفلت مـــن كبيـــرة ســـن   وتبنيت مـــن صغيـــرة يتـــم

(٤)رثاء المدن والممالك

ليـــس فـــى التـــاريـــخ الإسلامى كلـــه صفحة أدعى إلى

الشجن والأسى من تاريخ الأندلس،فقد شهدت طوال أطوارها المختلفة ألوانا من المعارك والصراعات،وضروبا من المحن والانهيار والتفكك،وقد حلت بالمسلمين طوال هذه الفترة نكبات مدمرة ألحقت الدمار الشامل بمدنهم ودولهم وحضارتهم،وأبيدت بسببه روائع الفكر الإسلامى،وأتلفت آثار العبقريات.

وفى الأندلس وحدها بادت أمة إسلامية عظيمة،ومحيت حضارة إسلامية زاهرة،ولم يبق ثمة من تلك الصفحة الباهرة سوى أطلال دارسة وذكريات حزينة تبعث فى النفس الأسى،وتبث الحسرة والأسف.

كل هذه الأحداث وكل تلك الظروف أدت إلى أن يتفاعل شعراء الأندلس مع أحداث العصر،وأن يبدعوا شعرا عرف باسم "رثاء المدن والممالك الزائلة" فقد أحزنهم أن يروا ديارهم تصاب بالمحن والنكبات،فبدت فى هذه القصائد لوعة صادقة جعلتهم يتفوقون فى هذا الشعر على المشارقة،بل جعلتهم يأتون فيه بالشعر الرائع والحكمة المؤثرة والوصف البديع،وكيف لا وقد انطلقوا فى هذا الشعر من عاطفة حزينة وشعور بالمرارة والأسى والحزن على أحوال البلاد وما أصابها من ضياع،وما لحق بها من دمار وتشتت.

ومن يقرأ شعر الأندلسيين فى رثاء المدن والممالك يدرك أن شعراء الأندلس قد برعوا فى هذا اللون براعة مشهودة،فهم يأتون فى ثنايا هذا الشعر بالحكمة الصادقة النابعة من التجارب المريرة،كما يأتون فيه بوصف دقيق لما آلت إليه المدن

والحضارة الأندلسية وبخاصة عندما سقطت المدن[١] والإمـــارات في أيدى النصارى،هذا فضلا عن نغمة الاستنجاد بالمسلمين فـــى شتى الأقطار الإسلامية وخصوصا فى المغرب العربى،مما يـــدل على عمق الشـــعور بـــالوحدة الإســـلامية واســـتنهاض الـــهمم الإسلامية،وهذا يعنى أن " الشعور الدينى المؤجج بالحسرة والنـــدم قد جعل لقصائد الأندلس حرارة متقدة لا تزال تلفح قارئها علـــى مر العصور " [٢] .

وقد تمثلت بدايات هذا النوع من الشـــعر فـــى التصويـــر الواقعى لحال المسلمين،وما صاروا عليه من تناحر واقتتـــال،ثـــم رثاء المدن،ثم رثاء الإمارات،ثم رثاء الأندلـــس كلـــها بعـــد أن سقطت أو أوشكت على السقوط فى أيدى النصارى.

وطليطلة أول بلد إسلامي يتم سقوطه فى يد الفرنجة،ويعـــد هذا السقوط نكبة استشرى على إثرها لهيب الفرنجة علـــى نحـــو ينذر بالفناء.

وفى كتاب نفح الطيب قصيدة تمثل صرخـــة عاليـــة فـــى الاستنجاد والاستغاثة،وهى تمتلئ لوعة لا تخمد،وتصـــور ذلـــك الواقع المرير،وتسجل المحنة تسجيلا تجيش لـــه الدمـــوع،ومـــن أبياتها[٣] :

لثكلك كيف تبتسم الثغور؟ ... سرورا بعد ما يئست ثغور!
طليطلة أباح الكفر منهـــا ... حماهـــا إن ذا نبـــأ كبيـــر
أنأمن أن يحل بنا انتقـــام ... وفينا الفسق أجمع والفجور

---

[١] انظر الشعر العربي فى صقلية فى القرن الخامس الهجرى،دكتور فوزى سعد عيسى ص ٢٤٩ وما بعدها،الهيئة المصرية العامة للكتاب،الطبعة الأولى ١٩٧٩م.

[٢] الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير،دكتور رجب بيومى ص ٢٢١.

[٣] المصدر السابق ص ٢٢٢.

كفى حزنا بأن الناس قالوا	إلى أين التحول والمسير
أنترك دورنا ونفر عنها	وليس لنا وراء البحر دور؟
لقد ذهب اليقين فلا يقين	وغر القوم بالله الغرور
رضوا بالرق يا لله ماذا	رآه وما أشار به مشير

ومن يتأمل الأبيات يحس أن القصيدة قد أبعدها ناظمها عن التلفيق والتنميق،وخلصها من تهاويل البيان،وزخارف القول،حتى خرجت حية نابضة .

وما أن امتدت يد التدمير والخراب إلى قرطبة على أيدى جموع من جهلة البربر وضعفائهم،حتى أثر هذا الخطب الفادح فى نفوس كثير من الشعراء،وهالهم تخريب مبانيها وتدمير قصورها،وقتل المشاهير من علمائها،وأدبائها وعظمائها.

وكان ممن ساءهم هذا الحدث الجلل الشاعر أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد،فقد أحزنه ما آلت إليه المدينة من خراب ودمار،فأنشأ قصيدة طويلة أخذ يبكى فيها تلك المدينة التى كانت زينة البلاد ومنار العلم والمعرفة ، يقول[١] :

ما فى الطلول من الأحبة مخبر	فمن الذى عن حالها نستخبر؟!
جار الزمان عليهم فتفرقوا	في كل ناحية وباد الأكثر
جرت الخطوب على محل ديارهم	وعليهم فتغيرت وتغيروا
فلمثل قرطبة يقل بكاء من	يبكى بعين دمعها متفجر
دار أقال الله عثرة أهلها	فتبرروا وتغربوا وتمصروا
فى كل ناحية فريق منهم	متفطر لفراقها متحير
عهدى بها و الشمل فيها جامع	من أهلها والعيش فيها أخضر
ورياح زهرتها تلوح عليهم	بروائح يفتر منها العنبر
والدار قد ضرب الكمال رواقة	فيها وباع النقص فيها يقصر
والقصر قصر بنى أمية وافر	من كل أمر والخلافة أوفر

---

(١) ديوان ابن شهيد،تحقيق يعقوب زكى ص ١٠٩،١١٠ . دار الكتاب العربى للطباعة والنشر،القاهرة .

والجامع الأعلى يغص بكل مـــن ... يتلو ويسمع ما يشاء وينظر
ومسالك الأشواق تشهـــد أنهـــا ... لا يستقل بسالكيها المحشـــر
يا جنة عصفـــت بهـــا وبأهلهـــا ... ريح النوى فتدمرت وتدمروا
آسى عليك من الممات وحق لى ... إذ لم نزل بك فى حياتك نفخر
أسفى على دار عهدت ربوعها ... وظباؤهـــا بفنائهـــا تتبختـــر
أيام كانـــت عيـــن كـــل كرامـــة ... من كل ناحيـــة إليهـــا تنظر
أيام كان الأمـــر فيهـــا واحـــدا ... لأميرها و أمير من يتأمـــــر
أيام كانت كـــف كـــل سلامـــة ... نسمو إليها بالسلام وتبـــــدر
حزنى على سرواتها ورواتهـــا ... وثقاتهـــا وحماتها يتكـــــرر
نفسى على آلاتها وصفائهـــــا ... وبهائها وسنائهـــا تتحســـر
كبدى على علمائها وحلمائهـــا ... أدبائهـــا ظرفائهـــا تتفطـــر

أما عن رثاء الدول فقد بكـــى ابـــن اللبانـــة دولـــة بنـــى عباد،وبكى ابن عبدون دولة بنى الأفطس،وبكى أبو البقاء الرنـدى الأندلس بأسرها.

يرثى ابن عبدون بنى الأفطس بقصيدة ذكر فيها كثيرا مـن قدماء الملوك الغابرين،وفيها يقول[١]:

الدهـــر يفجع بعـــد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصور
أنهاك أنهـــاك لا أنـــهاك واحدة ... عن نومة بين ناب الليث والظفر
فالدهـــر حرب وإن أبدى مسالمـــة ... فالبيض والسمر مثل البيض والسمر
ولا هوادة بيـــن الرأس تأخـــذه ... يد الدراب وبين الصارم الذكـــر
فلايغرنك من دنيـــاك نومتهـــا ... فما صناعة عينيها سوى السهر
تسر بالشىء لكن كى تغر بـــه ... كالأيم ثار إلى الجانى مـــن الزهر
بنى المظفر و الأيام مـــا برحت ... مراحلا والورى منها علـــى سفر
سحقا ليومكم يوما ولا حملـــت ... بمثله ليلـــة فـــى مقبـــل العمـــر
من للجلال الذى عمت مهابتـــه ... قلوبنا وعيـــون الأنجـــم الزهـــر

---

[١] انظر شرح قصيدة ابن عبدون،نشر محيى الدين صبرى الكردى ص ٢٩٩ – ٣٠٢ .مطبعـــة السعـــادة الطبعة الأولى ١٣٤٠ هـ .

أين الوفاء الذى أصفوا شرائعه   فلم يرد أحد منهم علـى كـدر؟
على الفضائل إلا الصبر بعدهم   سلام مرتقـب للأجـر منتظـر

هذه هى عواطف ابن عبدون،تلك التى جعلـت قصيدتـه أقرب إلى النظم من الشعر،ومع أن مجال القول فى بنى الأفطـس كان متسعا فإن الشاعر قد فر من مجـال الفـن إلـى حـوادث التاريخ،وأخذ يحتفل بالمصائ التى كانت فى التـاريخ جاهليـه وإسلامه،وانطلق ليخوض فى وقائع عباسية،وهـذا لايعكـس إلا شيئا واحدا وهو ثقافة الشاعر واطلاعه .

والحق إن أكثر من قالوا فى رثاء الأندلس من الشـعراء غير معروفين،والحال أنه حين قويت شوكة النصارى أخـذوا يسقطون المدن الإسلامية مدينة تلو الأخرى .

وهناك بكائية لأبى البقاء صالح بن شريف الرندى تزيـد على مائة وخمسين بيتا،يرثى فيها الأندلس،يقول[1] :

لكل شىء إذا ما تـم نقصـان   فلا يغر بطيب العيـش إنسـان
هى الأمور كما شاهدتهـا دول   من سره زمن ساءته أزمـان
وهذه الدار لاتبقى علـى أحـد   ولايدوم على حـال لهـا شان
يمزق الدهر حتما كل سابغـة   إذا نبت مشرفيـات وخرصـان
وينتضى كـل سيف للفناء ولو   كان ابن ذى يزن والغمد غمدان
أين الملوك ذوو التيجان من يمن   وأين منهـم أكاليـل وتيجان؟
وأيـن مـا شـاده شداد فـى إرم؟   وأين ما ساسه فى الفرس ساسان؟
وأين ما حازه قارون من ذهب؟   وأين عـاد وشداد وقحطـان؟
أتى علـى الكل أمر لامرد لـه   حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا

...

أعندكـم نبـأ أهـل أندلـس   فقد مضى بحديث القوم ركبان
تبكى الحنيفية البيضاء من أسف   كما بكى لفراق الإلف هيمـان

---

[1] انظر نفح الطيب : ١ / ٤٧ .

حيث المساجد قد صارت كنائس مـــا　　　فيهـــن إلا نواقيــس وصلبــان
حتى المحاريب تبكى وهى جامدة　　　حتى المنار ترثى وهى عيدان
كم يستغيث بها المستضعفون وهم　　　قتلى وأســرى فما يهتز إنسان
ألا نفـــوس أبيــات لهــا همــم　　　أما علــى الخير أنصار وأعوان
يا مـــن لذلة قـــوم بعــد عزهــم　　　أحـــال حالهــم كفــر وطغيـــان
فلـــو تراهم حيارى لادليــل لهــم　　　عليهــم مـــن ثياب الذل ألوان
ولـــو رأيت بكاهم عنـــد بيعهــم　　　لهالـــك الأمر واستهوتك أحزان
يا رب أم وطفـــل حيـــل بينهمـــا　　　كمــــا تفـــرق أرواح وأبـــدان
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت　　　والعين باكيـــة والقلـــب حيـــران
لمثل هذا يذوب القلب مـــن كمد　　　إن كان فى القلب إسلام وإيمان

وقد علق الدكتور محمد رجب البيومى على هذه المرثيـــة فقال[1]:

" أما المرثية التى شرقت وغربت،وسار بها السائرون فــى كل واد فهى قصيدة أبى البقاء صالح ببن شريف الرندى،وهــــى واضحة اللفظ قريبة المعانى،ولكن [illegible]ـتها العواطـــف،وإثارتـــها المشاعر جاءت من ضربها المرن على الوتر الدينى،فالمحـــاريب تبكى وهى جامدة،والمنابر ترثى وهى عيدان،والمساجد كنـــائس ذات صلبان،والمستضعفون من المسلمين قتلى وأسرى يســـتغيثون فما يهتز إنسان ".

ثم يقول[2]:

" وهذا النمط من القول يذكى المشـــاعر،ويلـــهج الألســـنة بالصراخ والعيون بالدمع،ولذلك بقيت القصيدة حية يتمثل بها فـــى المواقف المؤسية ! وهى على بساطة معانيها أفعل بالنفس من كل توليد خارق ! ".

---

(١) الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير ص ٢٢٥.

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

ومن يقرأ بقية أبيات القصيدة يحس باللوعة الصادقة التى أظهرها الشاعر فى رثاء الأندلس بأسرها بعد أن استردها النصارى،ولم لا ودولة الإسلام فى الأندلس قد عاشت زهاء ثمانية قرون،ثم محيت صفحته،وأبيد أبناؤه،وخرج آخر جماعة إسلامية عنها بعد ما رأوا مصارع إخوانهم،ونفيهم وتشريدهم،ومع هذا فالمأساة ما تزال جديدة فى صدر كل مسلم،وكل شاعر يستعرض هذه الصفحة فتحفر فى قلبه جراحات،تثير فى نفسه بالغ الحسرات.

ومن المراثى التى شرقت وغربت على الرغم من أن قائلها غير معروف تلك الملحمة التى سجلت النكبة الأندلسية تسجيلا يثير المشاعر،ويهيج العواطف،وقد صورت هذه الملحمة غروب شمس الإسلام فى الأندلس،ومن يقرأ أبيات الملحمة جميعها يراها قد صورت المأساة من كل جوانبها فى أبيات تعكس عاطفة ناقمة ثائرة[1] :

أحقا خبا من جورنده نورها وقد كسفت بعد الشموس بدورها
وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت منازلها ذات العلا وقصورها
تسلمها حزب الصليب وقادها وكانت شرورا لا يقاد نفورها

(٥) الهجاء

أما الهجاء فالحق يقتضينا أن نقول إن شعراء الأندلس لم يكثروا منه،ولم يبلغوا فيه شأن المشارقة،ولم يشتهر منهم شاعر به،ولم يظهر عندهم أى لون من ألوان الهجاء ولا سيما الهجاء

[1] انظر دراسة عقدت حول هذه القصيدة للأستاذ محمد عبد الله عنان،مجلة الرسالة عدد ١٣٣ ف ٢٠/ ١ سنة ١٩٣٦ م.

السياسى لقلة الأحزاب السياسية[1]،هذا فضلا عن ميل الأندلسيين إلى العفو والتسامح،والبعد عن الإفحاش فى الهجاء.

ولعل ذلك راجع إلى أن " طبيعة تلك البلاد الجميلة،ومغانيها المبهجة،ومظاهرها التى تبعث على المرح والسرور،قد عملت على رقة طباع الأندلسيين،وتهذيب نفوسهم،فأصبحوا أقرب إلى التواد فيما بينهم منه إلى التباعد،فلم يعد هناك من سبب للمهاجاة والتنابذ،وإنما انصرف الأندلسيون إلى انتهاب متع تلك الحياة،والاستئناس بمباهجها،والعيش فى ظلال نعيمها ، واغتنام فرص البهجة والأنس فى أنحاء ربوعها ورياضها،وبين ظلالها وأفيائها،وعلى ضفاف جداولها وأنهارها،فكان لهم بذلك منأى عن المهاجاة وبذاءة القول،وكأنما أضفت تلك الحياة وذلك النعيم عليهم بهجة النفوس وطمأنينتها وصفاءها،وانعكس جمال هذه الطبيعة على نفوسهم فأضفى أيضا عليها الحب والجمال "[2].

وقد هجا شعراء أندلسيون الفرنجة أثناء الحروب معهم،وهجا آخرون حكام الأندلس الذين تعاونوا مع النصارى،وهناك هجاء ساخر يعتمد فيه الشاعر على المبالغة والسخرية،وقد يكون مشحونا بالإقذاع والفحش.

ومن أشهر شعراء الهجاء أبو بكر المخزومى الأعمى،وابن هانئ،وابن خفاجة،وأبو القاسم خلف بن فرج السميسر.

---

(1) انظر فى الأدب الأندلسى،دكتور جودت الركابى ص ١١٥.

(2) الشعر الأندلسى فى ظلال الخلافة الأموية،دكتور عبد العزيز عبد الله العواد ص ١٣٩.

يقول ابن هانئ الأندلسى فى هجاء أحد الكتاب[1]:

إن أيــام دهــرنــا ســخــفــات   فهى أعوان كل وغد ســـخيــف
زمن أنــت يأبا الجــعر فـــيـــه   ليس مــن تــالد ولامن طــريف
إن دهــرا ســمــوت فيه علــوا   لوضيع الــخطوب وغد الصروف
إن شأوا طلبته فــى زمــان الملك   عندى لــشـــأو بيــن قـــذوف
إن رأيــا تــديــره لــمــعنــى   بضلال الإمــضـــاء والتوقــيــف
إن لفظــا تــلــوكــه لشــبــيــه   بك فى منــظر الجفاء الجـــليف
كاذب الزعم مستحيل المعــانـــى   فاسد الــنظــم فاسد التــألــيــف
أنت لا تغتدى لتــدبــير مـــــلك   إنمــا تغــتدى لرغـــم الأنـــوف
نلت ما نلت لا بعقل رصــيـــــن   فى المساعى ولا برأى حصــيف

ويقول خلف بن فرج السميسر[2] أبياتا يهجو فيـــها حكـــام الأندلس الذين أظهروا تعاونا مع النصارى،ومنها[3] :

ناد الملوك وقل لهــم   ماذا الــذى أحدثتــم؟
أسلمتم الإسلام فـــى   أيدى العــدا وقعدتـــم
وجب القيام عليكــم   إذ بالنصـــارى قمتــم
لاتنكروا شق العصا   فعصا النبـــى شققتــم

ويهجو ابن خفاجة رجال الدين الذين انحرفوا عن طريقــهم واتخذوا من الدين وسيلة لابتزاز الأمـــوال ، أو جعلـــوه ســـبيلا لاعتلاء المناصب الدنيوية،يقول[4] :

درسوا العلوم ليملكوا بجدالهم   فيها صدور مراتب ومجالس
وتزهدوا حتى أصابوا فرصة   فى أخذ مال مساجد وكنائس

---

[1] تبيين المعانى فى شرح ديوان ابن هانئ ص ٤٢٢.تصحيح وتهذيب وشرح د/زاهد على.مطبعة المعـــارف ومكتبتها بمصر ١٣٥٢ هـــ .

[2] انظر ترجمته فى نفح الطيب : ٣ / ٤١٢ والذخيرة ق ١ جـــ ٢ ص ٨٨٢ .

[3] الذخيرة ق ١ جـــ ٢ ص٨٨٢ .

[4] الديوان ص ٣٦٦ .

وربما جاء هجاؤهم مقذعا لاذعا لكن في حالات معينة محدودة،دونما إسهاب أو غلو،أومبالغة في الكذب والتجريح.

ومن الهجاء المقذع النادر ما قاله القاسم بن الأمير محمد ابن عبد الرحمن بن الحكم حين دخل دار أخيه عثمان بن محمد فاستسقى ماء فأبطأ الغلام به لعلة لم يستسغها،وفيه يقول [1] :

يا أخت كندة جافي شرب عثمان وأزمعي لبني أود بهجران
يا أخت كندة سيرى سير ساخطة كي تنتوى منتوى غضبى وغضبان
الماء في دار عثمان له ثمن والخبز فيه له شأن من الشان
عثمان يعلم أن الحمد ذو ثمن لكنه يشتهي حمدا بمجان
والناس أكيس من أن يحمدوا رجلا حتى يروا عنده آثار إحسان
اغسل يديك بأشنان وأنقهما غسل الجنابة من معروف عثمان
واسلح على كل عثمان مررت به إلا الخليفة عثمان بن عفان

(٦)الحكمة والزهد

شعر الحكمة في الأندلس لايمثل رد فعل لفلسفة ما،أو لحياة التأمل في الكون والحياة،وإنما يمثل رد فعل لما أصاب البلاد من محن،وما حل بها من دمار، و ما آلت إليه مدنها وإماراتها من سقوط وانهيار في يد الإفرنج،هذا فضلا عن أن كثيرا من شعراء الأندلس الذين انغمسوا في أيام شبابهم في حياة اللهو والمجون قد أفاقوا في أخريات أيامهم،وأحسوا بالندم على ما كان منهم من عبث ولهو،فنظموا من ثم شعرا في الحكمة والحسرة والندم على أيام شبابهم التي ضيعت في اللهو والمجون،وجاءت هذه الأبيات الناطقة بالحكمة مبثوثة في قصائد الرثاء والتوبة والندم .

[1] الحلة السيراء لابن الأبار تحقيق الدكتور حسين مؤنس : ١ / ١٢٧ . الطبعة الأولى ١٩٦٣ م .

يقول الدكتور جودت الركابى[1] :

" إن الشعراء الأندلسيين لم ينصرفوا إلى حياة التأمل،لذا بدت حكمتهم ساذجة بعيدة عن العمق،وكذلك الفلسفة لم تنتشر فى تلك الربوع منذ دخول العرب إليها،بل تأخر ظهور الفلاسفة إلى أواخر القرن الخامس فى عصر المرابطين والموحدين،فقد كان هذا العصر عصر نهضة فى الفلسفة والتأليف،فيه ظهر ابن باجة،وابن رشد،وابن طفيل صاحب رسالة"حى بن يقظان" وابن ميمون من الفلاسفة،وابن خاقان،وابن بشكوال،والإدريسى،وابن جبير،وابن بسام من المؤلفين،ولولا ظهور ابن حزم قبل رجال هذه الطبقة لقلنا إن هذا العصر احتكر العلم والفلسفة .

وسبب تأخر نهضة الفلسفة فى الأندلس واقتصارها على فئة محدودة من المختصين ما كان للفقهاء من سلطان على ملوك الأندلس،فإنهم ضيقوا حرية التفكير،وكفروا كل متفلسف،وأفتوا بنفيه وإحراق كتبه،وكانت العامة تجارى أهواء الفقهاء فيضطر السلطان تجاه ثوراتهم إلى استرضائهم بإتلاف كتب الفلاسفة كما فعل الحاجب المنصور،وبمعاقبة المتهمين كما فعل صاحب إشبيلية بابن هانئ،إذ نصح له بالابتعاد عن المدينة" .

ومن أشهر شعراء الحكمة : ابن عبد ربه،ويحيى بن الحكم الغزال فى أواخر أيامه،وأبو عامر بن شهيد،وأبو الصلت أمية بن عبد العزيز،وابن مرج الكحل .

يقول ابن عبد ربه[2] :

ألا إنما الدنيا نضارة فى أيكة ... إذا اخضر منها جانب جف جانب

---

[1] فى الأدب الأندلسى ص ١١٦ – ١١٧ (مكتبة الدراسات الأدبية) ٢٢ . دار المعارف بمصر،الطبعة الثالثة ١٩٧٠ م .

[2] العقد الفريد : ٣ /١٧٥ .

هى الدار ما الآمال إلا فجائــع عليهـا ولا اللذات إلا مصائــب
وكم سخنت بالأمس عين قريرة وقرت عيون دمعها اليوم ساكب
فلا تكتحل عيناك فيهـا بعبـرة علـى ذاهب منها فإنك ذاهـب

ولابن عبد ربه أبيـــات أخـرى يقـدم فيـها المواعـظ للإنسان،وتنبهه من غفلته ولهوه،ويعيب عليــه غـروره بطـول الأمل،وعدم اعتباره بما يشاهد كل يوم من مصائب وكوارث تحل بالناس.

يقول[١] :

أتلهو بين باطيــة وزيــر وأنت من الهلاك على شفير
فيا من غره أمـل طويـل يؤديه إلـى أجـل قصيـر
أتفرح والمنية كـل يـوم تريك مكان قبرك فى القبور
هى الدنيا فإن سرتك يوما فإن الحزن عاقبة الســرور
ستسلب كل ما جمعت فيها كعارية ترد إلـى المعيـر
وتعتاض اليقين من التظنى ودار الحق من دار الغرور

ويقول الشاعر يحيى بن الحكم الغزال [٢] :

ولا من كان يلبس ثوب صوف من البدن المباشـر للحريـر
إذا أكل الثـرى هـذا وهـذا فما فضل الكبير على الحقير؟

وللغــزال قصيــدة أخــرى نــدد فيــها بالســـعى وراء اللذات،واتباع هوى النفس،والدخول فيمـــا يـؤدى إلــى الغــى والضلال،وقد أبان فى هذه القصيدة عن منهجه فى الحياة،وذكـــر أن القناعة هى أساس عيشه وقوام حياته .

يقول [٣] :

لعمرى ما ملكت مقودى الصبا فأمطو للذات فى السهل والوعر

---

(١) المرجع السابق : ٣ / ١٨٩ .
(٢) نفح الطيب : ٣ / ٢٣ .
(٣) العقد الفريد : ٥ / ٣٥٣ ، ٣٥٤ .

ولأنا ممن يؤثـر اللهـو قلبـه فأمسى فى سكر وأصبـح فى سكر
ولا قارع بـاب اليهودى موهنـا وقد هجع النوام من شهـوة الخمر
وأوقعه الشيطـان حتـى أصاره من الغى فى بحر أضل مـن البحر
كأنى لـم أسمع كتـاب محمـد وما جاء فى التنزيل فيه من الزجر
كفانى من كل الذى أعجبوا بـه قليلة مـاء تستقـى لى من النهر
ففيها شرابى إن عطشت وكل ما يريـد عيالـى للعجيـن وللقـدر
بخبز وبقل ليس لحمـا وإننـى عليه كثير الحمـد للـه والشكـر
فيا صاحب اللحمان والخمر هل ترى بوجهى إذ عاينت وجهى مـن ضـر
وبالله لو عمرت تسعين حجـة إلى مثلها ما اشتقت فيها إلى خمر
ولا طربت نفسى إلى مزهر ولا تحنن قلبى نحو عـود ولا زمـر
وقد حدثونـى أن فيهـا مرارة وما حاجة الإنسان فى الشرب للمر
أخى:عد مـا قاسيتـه وتقلبـت عليك به الدنيا من الخيـر والشـر
فهل لك فى الدنيا سوى الساعة التى تكون بها السراء أو حاضـر الضـر
فما كان منها لايحس ولا يـرى وما لم يكن منها عمـى عن الفكر
فطوبى لعبد أخرج الله روحـه إليه من الدنيا علـى عمـل البـر

ومن أكثر شعراء الأندلس اهتماما بالحكمة ابـن هـانئ ، وقد حاول فى حكمه أن يقلد شاعر العربية المتنبى،بيد أنه قصـر عنه وظلت حكمه تدور حول شكوى الدهر والتحذير من أمـور الدنيا [١] .

(٧) الحنين

وإذا كانت الحكمة ضئيلة فى الشعر الأندلسى فلـم يكـن شعر الحنين كذلك،فهو شـعر دعـت إليـه ظـروف الشـعراء وواقعهم،ولذلك كانت تجربة الغربة عميقة فى نفوسهم .

وإذا كان لشعراء المشرق فضل السبق إلى شعر الحنيـن فإن الإنصاف يقتضينا أن نقول إن الأندلسيين قـد لحقـوا بـهم

---

[١] انظر فى الأدب الأندلسى،الدكتور جودت الركابى ص ١١٧ .

وتفوقوا عليهم،وفاقوهم كما وكيفا فى هذا الفن،وهذا يعنـــى أنـــهم انتقلوا فى هذا الفن من مكان التلمذة إلى المنافسة الحقيقية .

وفى رأيى أن هذا التفوق يعود إلى أمرين :

الأمر الأول : تلك النظرة التى كان ينظرها الأندلســـيون إلى المشرق،فهم ينظرون إليه نظرة أستاذ عن فخر واعتداد،وكان كل همهم أن يحرزوا نفائس مؤلفاته وروائع آثاره،وأن يرحلـــوا إلى المشرق للتزود بالثقافة والعلم والأدب .

الأمر الثاني : أن معظم من رحلوا مـــن الأندلـــس إلـــى المشرق كانوا مـــن الأدبـــاء والشـــعراء،وقـــد اختلـــط الجنيـــن بدمائهم،وجرى فى عروقهم،ذلك لأن الاغتراب يزيد مـــن حنيـــن الإنسان إلى وطنه،ويقوى من تعلقه به .

وأهم المعانى التى يدور حولها شـــعر الحنيـــن وقصـــائد الاغتراب عند الأندلسيين : الشوق إلى الأوطان،وتصوير ملاعب الصبا،وذكر الأيام والعهود السعيدة فى هذه البلاد،/والمزج بيـــن الطبيعة والحنين فى صورهم الشعرية،والحديث عـــن التجـــارب الذاتية فى ديار الغربة .

والحنين فى الشعر الأندلسى يتوزعه أمران :

أحدهما : الحنين إلى المشرق،وهذا كان فى بدايـــة حيـــاة المسلمين بالأندلس،ذلك لأننا لانتوقع أن نجد فى تلك الفترة مـــن بين المسلمين من يهيم بالأندلس ويحن إليه،بل كان كـــل حنانـــهم وكل تشوقهم إلى المشرق .

ومن جيد الشعر فى ذلك ما قاله عبد الرحمن الداخل يحـــن فيه إلى موطنه فى الشام ، ويتلهف على ماضيه ، ويناجى ربوعه بلحن حزين وفى صورة تصلح نموذجا لكل شعر فى الحنين .

يقول [١] :

أيها الركب الميمم أرضى	**أقر من بعضى السلام لبعض**
إن جسمى كما تراه بأرض	**وفؤادى ومـالكيـه بأرض**
قد قضى الله بالبعاد علينا	**فعسى باقترابنا سوف يقضى**

فالأبيات كما ترى تصور نوازع الأمير إلى مطارخ عزته بالمشرق ، فهو كما يتضح من الأبيات مقسم إلى قسمين ، جسـم بالأندلس ، وفؤاد بالمشرق ، كما أن الأبيات تصور ظمأه الحـار إلى مجد الشرق ، ومدى تطلعه لليوم الذى يجد فيه نفسه حاكمـا للشرق لا غريبا يعانى مـن الاغـتراب ، ويصـارع الأهـواء المتناحرة والأهوال العاصفة .

والحق أن الأندلسيين قد نشأوا بأصلهم العربى فى موطـن أعجمى يحارب العروبة ، واصطحبوا معهم العربية فـى قفـار المغرب ، وقد أدى بهم ذلك إلى ازدياد تعلقهم بالعرب وبيئتـهم ، وما يتصل بهم من ألوان التفكير والأساليب ، هذا فضلا عن أنـهم دأبوا على الرحلة المستمرة إلى المشرق لطلب العلم ، ولذا أكـثر اغترابهم من مدحهم للوطن والفخر به وصف حياتـه ، وأشـعل ذلك الإحساس فيهم الحنين إلى الوطن وقوى من تعلقهم به .

والأمر الآخر هو الحنين إلى الأندلس .

فحنين الأندلسيين إلى الأندلس بعامـة ، وإلـى طبيعتـها ومجالى الفتنة فيها بخاصة لون من ألوان تعلق الأندلسيين بطبيعة بلادهم ، وارتباطهم بها ، ووفائهم لها .

وقد ظهر هذا اللون بخاصة عند أبنـاء الأندلـس الذيـن **فارقوها لفترة ، مثال ذلك ما قاله أبو بكر محمد بن قاسم وهو فى الشرق يتشوق بلاده الأندلس .**

---

[١] نهاية الأرب للنويرى ، عن الأدب الأندلسى بين التأثر والتـأثير ص ٢٧ .

يقول[١]:

أين أقصى الغربَ من أرض الوطن   أمل فى الغرب موصول التعب
حن من شـوق إلـى أوطـانـه   من جفاه صبره لما اغتـرب
جال فـى الأرض لجاجـا حائـرا   بين شوق وعنـاد ونصـب
يا أحبائى اسمعوا بعـض الـذى   يتلقـاه الطريـد المغتـرب
وليكن ذخرا لكـم عـن غربـة   يرجع الرأس لديهـا كالذنـب

وهذا شاعر آخر وثيق الصلة ببلاده الأندلس ، يتعلق بـها ويحبها ، ويذود عنها ، ويضحى من أجلها ، وهو أبـو عبـد الله محمد بن مسلم ، ما أن يبعد عن قرطبة حتى نراه يتشوق إليـها ، ويحن إلى طبيعتها .

يقول [٢] :

سقى جديد مـن الأيـام قرطبـة   ماء الشباب وريق البارد الخصـر
وقفا يمد الهوى فى روضة شرقا   من الغمام مع الآصـال والبكـر
كأنـه فيـه والإمـاء يبسطـه   رداء القين قد صـاروا إلى وطر
لليل فيـه سـواد يستهـام بـه   كأنه فى سواد العيـن والشعـر
وللنهـار سنـا يحكـى تبلجـه   نور البصيرة مقرون مـع البصر
كأنمـا شمسها تحت الغمام سنا   وجه تنفس فـى مرآتـه نضـر
وصفحـة النهـر الفضـى باسمـة   فى روضها ثم خيط الفجرَ فى السحر

وهذا ابن شرف القيروانى الأصل ، عاش فى الأندلس مدة طويلة حتى صارت وطنا له ، فهام بها ، وأخذ يتغنى بجمالـها ، من ذلك قوله [٣] :

رياض غلائلها سندس   توشت معاطفها بالزهر
مدامعها فوق خط الربا   لها نظرة فتنت من نظر

---

(١) المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد : ٢ / ٣١ . دار المعارف بمصر ١٩٦٤ م .

(٢) مسالك الأبصار ، ابن فضل الله العمرى جـ ٨ ق ٢ لوحة ٣٤٩ مطبعة دار الكتب المصرية .

(٣) معجم الأدباء : ١٩ / ٣٩ .

وكل مكان بها جنـــة   وكل طريق إليها سفر

وهناك شعراء تعرضوا لألوان من النفى والتشـــريد ، أو السجن والتعذيب ، وحرموا بسبب ذلك مـــن التمتـــع بوطنـــهم ، والتلذذ بمعاهد أنسه ومدارج صباه ، فأخذوا يتغنون بماضيـــهم، ويحنون إلى معاهدهم يعرضون محاسنها ، ويجتلون مباهجها.

وعلى رأس هؤلاء الشعراء الشاعر ابن زيدون والشـــاعر ابن عمار.

أما ابن زيدون فقد تعرض إلى حقد الحـــاقدين ، وحســـد المنافسين ، وحين تولى أرقى المناصب تآمر عليـــه خصومـــه ، وتربصوا به الدوائر ، ونجحوا فى التسبب فى سجنه ، وفـــراره من السجن إلى إشبيلية ، فقال قصائد فى الحنين إلـــى الوطـــن ، ومعاهد الصبا ، يعمقه فيها الحب ، ويثيره الغربة والسجن ، فلـــم ينس قرطبة الساحرة ، ولم ينس حبيبته الفاتنة ، وكأنما ابتســـمت له الطبيعة فتذكر محبوبته ، فأخذ يمزج حبه بشعوره نحـــو هـــذه المعاهد[١].

ومأساة ابن زيدون تتمثل فى الوزير العصامى أبو بكر بن عمار ، فحين أبعدته الأحداث عن المعتمد على الله وعن مســـقط رأسه ، نجده يلجأ إلى الطبيعة كى تقاسمه همومه ، فـــهى التـــى أحاطت به ، وهو الذى عاش بين ربوعها[٢].

وتتمثل مأساة النفى والطرد والتشريد فى الشاعر المعتمـــد ابن عباد ، وهنا نجده يحن إلى ماضيه ، ويتشوق إلى الطبيعـــة ، ويأخذ يشركها معه فى الحنين إلى قصوره المشيدة.

---

(١) انظر أبياته التى توجه بها إلى ولادة بنت المستكفى والتى مطلعها :

إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقا   والأفق طلق ومرأى الأرض قد راقا

(٢) انظر الذخيرة المخطوطة ج ٢ ص ٢٣٧.دار الكتب.

يقول[١]:

بكى المبارك فى إثـر ابـن عبـاد بـكى على إثـر غزلان وآسـاد
بكى ثريـاه لا غمـت كـواكبهـا بمثـل نور الثـريا الرائح الغادى
بـكى الوحيد بـكى الزاهى وقيمته والنـهر والتـاج كـل ذله بادى
مـاء السـماء على أبـنائـه دور يالجـة البـحر دوى ذات إزبـاد

وله أبيات أخرى يحن فيها لا إلى قصوره فحسب ، بـل إلى ما يحيط بها وما تشتمل عليه من مظاهر الطبيعة الجميلـة ، مما يدل على مكانة الطبيعة فى نفسه ، لدرجة أنها صارت معبرة عن مشاعره ، مشاطرة له فى كل همومه وأحزانه.

يقول[٢]:

أذل بنـى مـاءالسـماء زمانهم وذل بنى ماء السـماء كثير
فمـا مـاؤها إلا بـكاء عليـهم يفيض على الأكباد منه بحور
فيـا ليت شـعرى هل أبيتن ليلة أمامى وخلفى روضة وغدير
" بمـنبتة الزيتون " مورثة العلا تغنـى قيـان أو ترن طيور
بزاهرها السامى الذرا جاده الحيا تشـير الثريا نحونا ونشـير

وهكذا حن الأندلسيون إلى الأندلس ، وإلى كثير مما فـى طبيعتها ، وكان شعراؤهم اللسان المعبر والشعور الناطق ، وأمام كل شاعر منهم طبيعة باسمة تجذبه ، وتعمق شعوره ، وتجعلـه يحن إلى وطنه ويلتاع لفراقه التياعا مؤرقا.

(٨) الغزل

أما شعر الغزل فهو كثير ورائع فى الأندلس ، وقد ظهـر فى أكثر الأغراض الشعرية ، كما أظهر فيه الشـعراء عبقريـة نادرة.

---

[١] ديوان المعتمد بن عباد ص ٩٥ تحقيق الدكتور أحمد بدوى المطبعة الأميرية.

[٢] المصدر نفسه ص ٩٩.

ولم لا يكون لشعر الأندلس هذا الشأن ؟ وهو لون شعرى يدعو إليه كل ما فى الأندلس من طبيعة جميلة ، وحياة حضرية ناعمة ، ومجالس أنس ، ورخاء وخمر وغناء "[١]هذا فضلا عما اشتهر به أكثر أهل الأندلس من رقة وميل إلى الدعة وحياة العبث اللاهية التى كان يحياها الأندلسيون.

وشعر الغزل عند الأندلسيين لا يختلف كثيرا عن الشعر المشرقى ، فبعضه عفيف جميل ، وأكثره ماجن فيه تصوير حسى للمرأة ووصف لمفاتنها ، على أن للشعر الأندلسى ميزة هى أنه بدت عليه آثار البيئة ، هذا فضلا عن التوسع الذى حدث فيه ، والابتكار الذى كان فى بعض معانيه.

يقول الدكتور/جودت الركابى [٢] :

"ولقد بدت آثار البيئة على أشعار الأندلسيين الغزلية ، فشاع عندهم الغزل النصرانى وذكر الكنائس والفساوسة والصلبان ، كغزل ابن الحداد فى نويرة النصرانية ، كما شاع عندهم التشبيب بالشع الأشقر والعيون الزرق ، لكثرة ما كانوا يصيبون من سبى فرنجة الشمال وهم شقر فى الغالب".

ولم يكن الغزل الحسى الذى شاع فى مجالس اللهو ومساجلات الشعراء ومقدمات قصائد المديح صادقا كله ، بل كانت السمة الغالبة على كثير منه أنه لون من ألوان البراعة الفنية ، والتباهى بالمقدمة الشعرية ، والرغبة فى التفوق على الأقران من الشعراء ، فصار وكأنه رياضة ، أو ذكاء اجتماعى ، أو ترف نفسانى.

---

[١] فى الأدب الأندلسى ، الدكتور/جودت الركابى ١٢١.

[٢] المصدر السابق ص ١٢٢.

والحق أن الطبيعة الأندلسية كانت مثار قرائــح الشــعراء الأندلسيين ، وقد ملكت مفاتنها نفـــوس الشــعراء ، واســتحثت قرائحهم وغذتها أفضل غذاء ، ومن هنا لم يكن الغزل مقصـــورا على الرجال ، بل شاركت فيه شواعر الأندلس.

ويشيع فى شعر الغزل رسم الأجواء والتعبير عن خوالـــج النفس ، وما تتعرض له فى حبها من وصل وهجر ،وقرب وبعد، كل ذلك فى سرد قصصى وحوار.

ومن التصوير الطريف قول ابن عمار[1]:

قالوا:أضر بك الهوى فأجبتهم	**يــاحبــذاه وحبــذا أضراره**
قلبى هو اختار السقام لجسمه	**زيا فخلــوه ومــا يختــاره**
عيرتمونى بالنحـــول وإنمــا	**شرف المهند أن ترق شفاره**
وشمتم لفراق مـــن ألفتـــه	**ولربما حجب الهلال سراره**

ولا شك أن لظروف التقليد التى لازمت شعراء الأندلـــس فترة فى حياتهم أثرا كبيرا فىتركيز الشعراء علـــى التشـــبيهات المادية التقليدية ، فتحدثوا عن نرجس العيون ، وسهام الألحـــاظ ، وخمر الرضاب ، ولم يحلق الشاعر فى غزله فى أجواء جديـــدة إلا بعد أن تخلص من الأسلوب القديم ، وبعد عن التقليد والتكلـف ، وأطلق لقلبه حرية القول ، غير عابئ بقيود البيان والبديع .

ومن أشهر شعراء الغزل فى الأندلس من الرجـــال ابـــن زيدون ، ومن النساء ولادة بنت المستكفى .

وابن زيدون شاعر عاطفى ، صـــادق اللوعـــة ، جيـــاش العاطفة ، وغالبا ما تكون أوصافه فى الطبيعة من خلال نوازعـــه وأشجانه .

---

(١) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، عبد الواحد المراكشى ص ١١٢ . مطبعة الاستقامــة القـــاهـــرة ١٩٤٩م.

ومما قاله متوجها به إلى ولادة بنت المستكفى متذكرا متشوقا [1] :

إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقا	والأفق طلق ومرأى الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلال فى أصائله	كأنه رق لى فاعتل إشفاقا
والروض عن مائه الفضى مبتسم	كما شققت عن اللبات أطواقا
يوم كأيام لذات لنا انصرمت	بتنا لها حين نام الدهر سراقا
نلهو بما يستميل العين من زهر	جال الندى فيه حتى مال أعناقا
كأن أعينه إذ عاينت أرقى	بكت لما بى فجال الدمع رقراقا
ورد تألق فى ضاحى منابته	فازداد منه الضحى فى العين إشراقا
سرى ينافحه نيلوفر عبق	وسنان نبه منه الصبح أحداقا
كل يهيج لنا ذكرى تشوقنا	إليك لم يعد عنها الصدر أن ضاقا
لاسكن الله قلبا عن ذكركم	فلم يطر بجناح الشوق خفاقا
لو شاء حملى نسيم الصبح حين سرى	وافاكم بفتى أضناه ما لاقى
لو كان وفى المنى فى جمعنا بكم	لكان من أكرم الأيام أخلاقا
يا علقى الأخطر الأسنى الحبيب إلى	نفسى إذا ما اقتنى الأحباب أعلاقا
كان التجارى بمحض الود من زمن-	ميدان أنس جرينا فيه أطلاقا
فالآن أحمد ما كنا لعهدكم	سلوتم وبقينا نحن عشاقا !

فالشاعر يذكر نوازعه وعواطفه من خلال الطبيعة ، ويراها إطارا جميلا لذكر كل تلك الأحاسيس ، وهذا توفيق للشاعر ما بعده توفيق .

يقول الدكتور رجب البيومى عن القصيدة [2] :

" وقد وجدنا لدى ابن زيدون وهو العاطفى الصادق اللوعة الجياش الحنين ، قصيدة فى وصف الطبيعة من خلال نوازعه وأشجانه ، تقرب كثيرا من الأدب العالمى فى عصرنا الراهن

---

(1) ديوان ابن زيدون ، شرح وتحقيق كرم البستاني ص ٤٦ ، ٤٧ . دار صادر بيروت ١٩٧٥ م .

(2) الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير ص ٧٢ .

وما سبقه من عهود الابتداع والتجديد ! وهى خطوة بديعـــة فـــى أدب الطبيعة العربى ولعشاق الأدب الأندلسى أن يعتبروها مظهرا من مظاهر التجديد العاطفى المصوز ، وقد اعتبرها بعض النقـاد دليل حيوية ابن زيدون ومظهر ارتقائه الفكرى بين معاصريه " .

ويقول أيضا [١] :

"فهذه الصرخة اللهيفة قد ارتفعت على جناح الطبيعة إلـى أفق وضئ ! إذ يتضاءل جوارها أكثر ما نعـــهد مـــن الوصـــف البصرى الذى يقف عند الجزئيات دون أن يفرغها فى روح كلـى عام ! وهى شبيهة بما نجده لدى شيلى وتينسون وودلر من كبـار شعراء الإنجليز ، بل إنها لتذكرنا بمثل قول شـيلى : "إن رجـع الألحان بعد خفوت الصوت يبقى مرددا فـــى الأفئـدة ، ولنشـر البنفسج بعد موته طيب فى الأنوف ، وأوراق الورد بعد ذبولـــها تنثر على فراش الحبيب ، وهكذا ذكرياتك تظل بعد ذهابك ماثلـة !!"تماما والله كما خلدت ذكريات ولادة فى الزهراء ينفـــح بـــها النسيم فى الروض المبتسم عن مائه الفضى ، ويعبر عنها النـدى الجائل فى أحداق الزهر حتى مـــالت منـــه الأعنـــاق ! والـــورد الأبيض المتفتح فى الضحى تفتحا زاد ضوء النـــهار إشـــراقا أى إشراق ! " .

نونية ابن زيدون

نونية ابن زيدون تكاد تكون النغمة التى تظهر فيها أصالته فى الغزل ، فهى دون شك أعظم قصـــائده حظـــا مـــن الذيـــوع والشهرة وبعد الصوت ، والحق أنه لو لم يكن له سواها لأغنتـــه بهذا الذى أحدثته فى الأوساط الأدبية .

---

[١] المصدر نفسه ص ٧٣ .

والنونية من الغزل العفيف الذى يعبر عن اللوعة والشوق والحنين الدائم إلى ولادة بنت المستكفى تلك التى أفاد الأدب العربى كثيرا منها[١]،وقد كتبها بأشبيلية وأرسلها إلى ولادة يستديم عهدها ، ويؤكد ودها ، ويعتذر من فراقها بالخطب الذى غشيه ، ويعلمها أنه ما يزال واقعا تحت سلطان حبها.

وقد ابتدأ ابن زيدون النونية بذكر البين والفراق ، وأخذ يصف ما أصابه من هذا التجافى ، ومن تنكر الزمان له.

يقول فيها[٢]:

أضحى التنائى بديلا من تدانينا ... وناب عن طيب لقيان تجافينا
ألا!وقد حان صبح البين صبحنا ... حين فقام بنا للحين داعينا
من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم ... حزنا مع الدهر لا يبلى ويبلينا:
أن الزمان الذى ما زال يضحكنا ... أنسا بقربهم قد عاد يبكينا؟
غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا ... بأن نغص فقال الدهر آمينا
فانحل ما كان معقودا بأنفسنا ... وانبت ما كان موصولا بأيدينا
وقد نكون وما يخشى تفرقنا ... فاليوم نحن وما يرجى تلاقينا
يا ليت شعرى ولم نعتب أعاديكم ... هل نال حظا من العتبى أعادينا
لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم ... رأيا ولم نتقلد غيره دينا
ما حقنا أن تقروا عين ذى حسد ... بنا ولا أن تسروا كاشحا فينا

***

كنا نرى اليأس تسلينا عوارضه ... وقد يئسنا فما لليأس يغرينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا ... شوقا إليكم ولا جفت مآقينا
نكاد-حين تناجيكم ضمائرنا- ... يقضى علينا الأسى لولا تأسينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت ... سودا وكانت بكم بيضا ليالينا
إذ جانب العيش طلق من تألفنا ... ومربع اللهو صاف من تصافينا

---

(١) انظر دراسات فى الشعر الأندلسى د/سعد إسماعيل شلبى ص١٢١.

(٢) انظرها فى ديوانه ، شرح وتحقيق كرم البستانى ص ٩-١٣.دار صادر بيروت ١٩٧٥م.

وإذ هصرنا فنون الوصل دانية … قطافها فجنينا منه ما شينا
ليسق عهدكم عهد السرور فما … كنتم لأرواحنا إلا رياحينا
لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا … إن طالما غير النأى المحبينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلا … منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا

***

يا سارى البرق غاد القصر فاسق به … من كان صرف الهوى والود يسقينا
واسأل هنا لك:هل عنى تذكرنا … إلفا تذكره أمسى يعنينا؟
ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا … من لو على البعد حيا كان يحيينا
فهل أرى الدهر يقضينا مساعفة … فيه وإن لم يكن غبا تقاضينا
ربيب ملك كأن الله أنشأه … مسكا وقدر إنشاء الورى طينا
أوصاغه ورقا محضا وتوجه … من ناصع التبر إبداعا وتحسينا
إذا تأود آدته رفاهية … توم العقود وأدمته البرى لينا
كانت له الشمس ظئرا فى أكلته … بل ما تجلى لها إلا أحايينا
كأنما أثبتت فى صحن وجنته … زهر الكواكب تعويذا وتزيينا
ما ضر أن لم نكن أكفاءه شرفا … وفى المودة كاف من تكافينا

***

يا روضة طالما أجنت لواحظنا … وردا جلاه الصبا غضا ونسرينا
ويا حياة تملينا بزهرتها … منى ضروبا ولذات أفانينا
ويا نعيما خطرنا من غضارته … فى وشى نعمى سحبنا ذيله حينا
لسنا نسميك إجلالا وتكرمة … وقدرك المعتلى عن ذاك يغنينا
إذا انفردت وما شوركت فى صفة … فحسبنا الوصف إيضاحا وتبيينا

***

يا جنة الخلد أبدلنا بسدرتها … والكوثر العذب زقوما وغسلينا
كأننا لم نبت والوصل ثالثنا … والسعد قد غض من أجفان واشينا
إن كان قد عز فى الدنيا اللقاء بكم … فى موقف الحشر نلقاكم وتلقون
سران فى خاطر الظلماء يكتمنا … حتى يكاد لسان الصبح يغشينا
لا غرو فى أن ذكرنا الحزن حين نهت … عنه النهى وتركنا الصبر ناسينا
إنا قرأنا الأسى يوم النوى سورا … مكتوبة وأخذنا الصبر تلقينا

أمـا هـواك فلـم نعـدل بمنهلـه   شربا وإن كـان يروينـا فيظمينـا
لم نـجف أفـق جـمال أنت كوكبه   سـالين عنه ولم نـهجوه قـالينا
ولا اختيارا تجنبنـاه عـن كـثب   لكن عدتنـا -علـى كـره- عوادينا
نأسى علـيك إذا حثـت مشعشعة   فينـا الشمـول وغنـانـا مغنـينا
لا أكؤس الراح تبدى مـن شمائلنا   سيما إرتياح،ولا الأوتـار تلـهينا
دومى على العهد مادمنا مـحافظة   فالحر مـن دان إنصـافا كما دينا
فما استعضنا خليـلا منـك يحبسنا   ولا استفدنا حبيبـا عنـك يثنينـا
ولو صبا نحونا من عـلو مطـلعه   بدر الدجى لم يكن حـاشاك يصبينا
أبكى وفاء وإن لم تبذلـى صلـة   فالطـيف يقنعنـا والذكـر يكـفينا
وفى الجواب متاع إن شـفعت به   بيض الأيـادى التى ما زلت تولينا
عليك منا سلام الله مـا بقـيت   صبابة بـك نـخفيـها فـتخـفينا

***

وابن زيدون[١] هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومـي ، وقـد ولد فـي قرطبـة سـنة ٣٩٤هـ (١٠٠٣م) وتثقف بها ، وكان والده قاضيا فى قرطبـة ، وقد عنى بتربية ابنه وتعليمه ، فحفظ القـرآن الكريـم ، وتعلـم الحديث الشريف ، وطلب الفقه ، وتعمق فى الأدب ، وغير هـذا وذاك مما كان له أكبر الأثر فى شعره ونثره ، حتى أسـلس لـه الشعر قياده وهو فى العشرين من سنه[٢].

عاش ابن زيدون فى عصر ملوك الطوائف وهو عصـر تقسمت فيه الأندلس إلى أقاليم عديدة ، وقد عاش شـطر حياتـه الأولى فى إمارة قرطبة ، أما الشطر الثانى والأخير فقد طواه فى إمارة إشبيلية.

---

[١] انظر ترجمته فى الأعلام للزركلى: ١/١٥١.موسسة فواد ، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩م.
[٢] ديوان ابن زيدون ص ٥.

والحق أن الشاعر قد اجتمعت فيه كل مقومات الشخصية وعناصرها ، فقد استطاع أن يكون زعيم الأندلس بما حفظ من فنون اللغة ، وماوعى من أخبار الأدباء والشعراء ، وأمثال العرب وحوادثها ، ومسائل اللغة والعلم.

شايع أبا الحزم بن جهور ، وأيده فى سياسته ، ولذلك قربه أبو الحزم لما استولى على زمام الأمور ، ومنحه لقب ذى الوزارتين ، وصار ابن زيدون من أبرز أنصار الأمير ومؤيديه ، بل إن ابن جهور كان يعتمد عليه فى شئون ملكه ، ويأخذ يستعين برأيه وأدبه فى صلاته بالملوك ومراسلاتهم.

وقد تعلق ابن زيدون بالشاعرة ولادة بنت المستكفى (ولدت حوالى سنة ٤٠٤هـ) وقد ألهمه هذا أروع ما صاغه من الشعر.هذا إذا عرفنا أن ولادة نفسها كانت أديبة شاعرة ، وأن أدبها أدب نسوى رقيق ، يتسم بالسهولة واليسر ، ويشيع فيه الظرف واللطف ، وكثيرا ما كان العظماء يحضرون مجالسها فينعمون بسمرها ويطربون لأحاديثها.

وكان الشعراء كذلك يتهافتون على ندوتها فيعجبون لرقتها وجمالها ، وعذوبة شعرها ، ولذلك تنافس فى التودد إليها الأدباء والشعراء ، وكان من أبرزهم أبو عبد الله بن القلاس ، وأبو عامر بن عبدوس ، وشاعرنا ابن زيدون.

وقد حدثت بين الأخيرين مزاحمة شديدة على حب ولادة ، الأمر الذى أكثر من خصومه ، وجعل هؤلاء الخصوم يكيدون له عند أبى الحزم بن جهور ، ويلفقون له التهم وعلى رأسها أنه يسعى للإطاحة بالدولة الجهورية ، ويتطلع إلى إعادة الدولة الأموية ، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى سخط الأمير عليه

وإقدامه على وضه فى السجن زمنا لم يعطف عليه فيه ولم يلتفت إليه.

ولم يقف خصومه عند هذا الحد ، ذلك أنهم لم يكفوا عن إذكاء حفيظة ولادة عليه ، فسرعان ما ضاقت به ، وصدته عنها ، ولاسيما حين رأت غروره وصلفه ، وتذكرت فيما تذكرت نقده لشعرها.

وهكذا ظل الشاعر فى منازعة بين عواطفه المتقدة وعزته المزة ، وهو فى كل هذا حريص على ولادة كل الحرص ، فهى الكأس الأول فى حياته ، وكأس الحب التى صهرت نفسه وصقلت حسه ، ولاشك أن لحبه لولادة وحرمانه منها أثرا كبيرا فى شعره ، بما حباه هذا الأمر من رقة ، وبما ألهمه من تعبير عميق عن إحساساته ووجداناته ، حتى تيسر له أن يتبوأ مقام الريادة فى شعر الغزل فى أيامه.

يضاف إلى ذلك أن المجتمع فى عهد ابن زيدون كان يموج بشتى ألوان الدسائس من أثر الانقلاب السياسى واضطراب نظام الحكم.

هذا فضلا عن أن العظماء يثيرون حولهم دائما أجواء من المدح أو القدح ، ورجل كابن زيدون ملأ قلوب معاصريه حتى فاز بأسمى المناصب السياسية ، وأرفع المراتب الأدبية ، وقد أدخل خصومه فى روع الأمير -كما سبق أن قلنا- أن الشاعر متآمر على حكمه ، وأنه أطلق لسانه فى هجائه ، ونجحوا فى حمل الأمير على سجنه ، وقد ترتب على ذلك أن استطاع الشاعر الفرار من السجن بعد أن مكث فيه أياما طويلة.

وقد فعل المرض فعله بالشاعر ، فما كاد يتم مهمته حتى فاضت روحه فى رجب سنة ٤٦٣هـ لتبدأ حياته الخالدة ، حياة أدبه الرائع ، وفنه المدوى على مر العصور.

والأمر الجدير بالذكر أن ابن زيدون كان كاتبا وشاعرا ، وكان أقوى شعراء الأندلس شاعرية ، وهو أعظمهم شأنا ، وأجلهم مقاما ، وقد كان لثقافته العربية العميقة أثر كبير وواضح فى معانيه الشعرية ، إذ استفاد من اطلاعه الواسع ، وحفظه لروائع الشعر العربى ، واستمد من كل ذلك معانيه الجميلة التى نثرها فى ثنايا شعره.

ولابن زيدون أشعار فى أغراض كثيرة كالمدح والغزل والرثاء ووصف الطبيعة والاستعطاف ، وكلها تجمع بين المعنى العميق والتعبير الرشيق . وحسبه أن كان يضع نفسه فى مصاف ممدوحيه ، كما كان يفعل شاعر العربية المتنبى ، وذلك لما كان يمتاز به من عزة وإباء ورفعة.

وابن زيدون فى مدحه لحكام الأندلس يركز على معانى القوة والشجاعة . وفى قصائده التى نظمها فى الاستعطاف والتى كتبها أثناء سجنه أو إبان فراره من قرطبة ، نراه يعبر عن نفس قوية أبية ، نفس لم تتقهقر أمام قيود السجن والتشرد ، نفس لم تتمكن كل تلك العقبات والعراقيل التى واجهتها أن تحطم كبرياءها ، أو تلين قناتها.

أما عن شعره فى الطبيعة والوصف فهو يمتاز بالرقة واختيار الألفاظ المعبرة ، يضاف إلى ذلك حسن اختياره للقوافى المعبرة ، والأوزان الشعرية المناسبة ، ولذلك لقبه كثير من

وسلاسة ، وسمو خيال ، وحسن فن " غير أنه يتميز من بحتري الشرق بجمال وصفه للطبيعة ، وإشراكه إياها في شعوره ولواعج شوقه ، وألمه من فراق ولادة ، كما أنه يتميز بنعومة غزله ، وبراعته في تصوير اختلاجات نفسه ولوعته ، ومزجه الغزل بوصف الطبيعة " [1].والحق أن ابن زيدون قد استفاد من كل ذلك ، فرسم لطبيعة الأندلس الجميلة أجلى الصور ، وأكثرها تعبيرا وروعة.

أما عن شعره في الغزل فحدث ولا حرج ، فهو من الناحية الفنية المجردة رقيق رائع ، يكشف لنا عن نفس شاعرة شفافة ، تمتلك عاطفة مشبوبة وأشواقا ملتهبة ، وأروع غزله ما قاله في ولادة بنت المستكفي.

..أما عن قصيدته النونية فهو يبدأها بذكر الفراق والبين بعد طيب الوصال والقرب ، ويصف ما جره عليه هذا الفراق من حزن لا ينقضي حتى كاد يقضي عليه ، ويذكر تنكر الزمان له ، وتسببه في بكائه بعد ما كان يسعد ويضحكه ، فكأن الدهر قد استجاب لدعوة أعدائه ، فانبت ما كان موصولا ، وتشتت ما كان مجموعا ، وأصبح الشاعر في حالة لا يأمل فيها حتى في اللقاء والوصال .

وهو يتوجه إلى محبوبته ويطلب منها أن تفعل فعله ، فلا تقر أعين أعدائه وحساده ، فهو لايعرف إلا الوفاء ، وقد كان ينتظر راحة في اليأس لكن يأسه زاده شوقا على شوق ، وحنينا على حنين .. وهما وإن تباعدا فالشاعر لم ينطفئ له شوق ، ولم

---

[1] ديوان ابن زيدون ص ٦.

يجف له دمع ، وهو حين يناجى محبوبته تكاد الأحـزان تقضـى عليه لولا تعزيه وتأسيه .

ثم يستعرض الشاعر فى لهفة وحسرة أيامه الرافهة العيش الصافية المربع ، وكيف تبدلت من السعادة والهناء إلـى اليـأس والشقاء ، ويعود فيدعو لعهدهم عهد السرور والحـب بالسـقيا ، ويؤكد لها العهد ، ويقسم لها على الوفاء ، فلا تظن أن البعاد قـد غيره كما يغير كل المحبين .

وسرعان ما تهزه الذكرى وتأخذه الصبوة ، فيلجـأ إلـى البرق والنسيم يطلعها على حاله ، ويحملها جواه ولوعته ، فقـد كان بعيدا عن محبوبته ، يتمنى أن تحييه على البعد ، ويرجـو أن يظفر منها بخطاب ، عله يكون سببا فى حياته التى أوشك الفراق أن يقضى عليها .

وكم حاول الشاعر أن يعزى نفسه كى يخفف من لوعتـه ومن ثم راح يرسم صورة لمحبوبته مستعرضا أوصافـها ، فقـد خلقها الله من المسك وخلق كل الناس من الطين ، وصفاتها تشـير إلى أنها لم تعرف بؤس المعيشة ، وقد تعودت خفض العيـش ، وهى ذهبية الشعر تفيض نعومة ورقة ، حتى لكأنها لاتطيق حمل الحلى الكثيرة من شدة ما بها من رقة ولين .

وقد يسلك الشاعر فى مناجاتها سبيلا آخر ، إذ يمزج فـى هذه المناجاة أوصافها بالذكريات المضيئة والحسرات الممضـة ، فهو فى روضة غناء ، وكثيرا ماجنى من نعيم حياتها شتى المتـع ،بيد أنه يصون اسمها عن التصريح إجلالا وإكبارا .

ولا يخفى أن هذه الصورة التى تمثلها الشاعر كانت سـببا فى حسرته ، فعاد مرة أخرى يناجيها مستذكرا أوصافها ، مؤكـدا

أنه لم يحل عن عهدها ، وأنه لم يعدل عن هواها ، ويعتذر لـــها عن هذا الجفاء فيذكر أنه اضطر إلى فراقها مرغما .

وأفكار الأبيات تدور كلها حول الحنين والشوق واللوعـــة وقد عكست هذا كله دون غموض أو التواء ، وقد ابتدأ الســاعر الأبيات بما يتناسب والشكوى ، فـــوازن بيـــن حـــالى الوصـــال والفراق ، وصور لوعة الذكرى وأسىاها المـــر ، ثـــم عـــبر – وكأنه يعاتب محبوبته – عن وفائه لـــها ، وأكــد العـــهد ، ثـــم استعرض صفات المحبوبة ، وجعل جمالها مثالا للجمال الإنسانى الأمر الذى يزيده شوقا ولوعة وحنينا .

والحق أننا لسنا مع الذين أنكروا قدرة ابن زيـــدون علـــى التحليق والخلق والابتكار ، فرموه بالتقليد والمحاكاة [1] لالشئ إلا لوجود بعض التشابه بيـــن أحاسيســـه وأحاســـيس مـــن ســـبقوه "إن تشابه الفكرة بين شاعر وشاعر لاينافى أصالة كل منهما دائما ، فقد يرجع السبب فى ذلك إلـــى تشـــابه الموضـــوع أو تـــوارد الخواطر ، فضلا عن أن اللغة بأفكارها ومجازاتها لاإقطاع فيها ، فهى ملك للناطقين بها على السواء وليس لأحد أن يضع أفكـــاره فى إطار يرد الأدباء عنه ، أو يخترع صورة ثم يقيم النقاد مـــن أنفسهم حراسا عليها ، ويعيبون من دنا منها ، فلكل لغة تعبـــيرات أدبية جذابة ، وأفكار مركزة شـــائعة ، منـــها الأمثـــال والحكـــم والمجازات البارعة وما شاكلها ، ثروة لغوية تســـتهوى الأدبـــاء فيقبلون عليها ويتمثلونها حتى تصبح جزءا من نفوسهم ، ولبنـــة من كيانهم الأدبى ، حتى إذا جاء دورهم فى النتاج تـــأثروا بمـــا ورثوا عن غيرهم بقصد أو بغير قصد ، وعندئذ لايتنافى الإتفـــاق

---

[1] انظر الفن ومذاهبه فى الشعر العربى د / شوقى ضيف ص ٤٣٥ . طبعة دار المعارف الطبعة الثانية .

من هذا الرصيد – الذى أصبح جزءا من نفوسهم – مع ما نعنيه بالأصالة الأدبية ..

..وكثير من شعراء الأندلس بحكم انتمائهم إلى العربية وانتسابهم إلى آبائهم وأجدادهم من المشارقة واتكائهم معهم على لغة وتراث واحد يتشابهون مع أقرانهم من شعراء المشرق ، وهنا يحكم عليهم كثير من النقاد بأنهم عالة على المشارقة ، ولكنهم فى حقيقة الأمر يصورون طبعهم الأصيل فى صدق وأمانة ولو فعل غير ذلك لجاء أدبهم ممسوخا دون صدق أو أصالة " (١) .

إن ابن زيدون أرق شعراء الأندلس وأصدقهم ، وكانت حياته الزاخرة بالحب والولع والسجن ميدانا للتحليق والإبداع فى مجال قصائده ، ومن يتابعه فى نونيته يحس أنه شاعر مبدع مصور ، يصدر عن إحساس مشبوب ، ويصور معانيه فى عبارات تملك النفوس ، وتستولى على القلوب .

وهو وإن تتبع السابقين فى كثير من أفكاره ، كوصفه لوعة الفراق ، وطلب السقيا لديار الأحبة ، وتحميله البرق والنسيم للوعته وجواه ، فيكفيه أنه قد أضاف إلى هذه المعانى جديدا ، فشتان بين إحساس من سبقه وأحاسيسه ، وشتان أيضا بين صياغتهم وصياغته ،وبين تصويرهم وتصويره .

وكل ما يقال عن ابن زيدون وهو الشاعر ذو الملكة العالية ، أن نظرته للأدب المشرقى كانت كنظرة إخوانه من شعراء الأندلس"فقد شعر ذوو الملكات العالية بالأندلس بحاجتهم

---

(١) دراسات أدبية فى الشعر الأندلسى د / سعد إسماعيل شلبى ص ٦٢ ،٦٣ دار نهضة مصر للطبع والنشر القاهرة ١٩٧٣ م .

الماسة إلى أدب المشرق ، وقوى هذا الشعور ما لمسوه فعلا لدى الأدب المشرقى من نفاذ وقوة وتأثير ، فعكفوا عليه عكوف من يراه غاية الأمل ، ومرتقى الإعجاز! ولم يجل فى أذهانهم أن يتيامنوا كثيرا عنه إلى غيره أو إلى نفوسهم الخالقة ، إذ يسبرون أغوارها ، ويكتشفون مجاهلها فتسعدهم بالجديد! وكان النتاج المشرقى من الغزارة والتدفق والموالاة بحيث لم يترك بريقه مغازلة الأبصار وخطف القلوب" [١] .

وأهم ما يميز أبيات ابن زيدون أنها شديدة الصلة بحياته ، فهو محب لولادة ،شغوف بها ، يرى فيها صدى لانفعالاته ، وسببا لبقائه على قيد الحياة ، ومن يتابع ألفاظه وأساليبه يجدها صدى لمشاعره ، وانعكاسا لأحاسيسه ، وكثيرا ما كان يستخدم الألفاظ الموحية المعبرة عن حالته النفسية .

ومقدمة القصيدة تعبر عن الحسرة واللهفة ، وإن كانت معانيها بسيطة أكثرها مطروق.

والشاعر يستخدم الكلمات الدالة على الشوق والحنين كقوله: (شوقا ، تصافينا ، الوفاء ، صرف الهوى ، السعد) كما يعبر عن لوعته وأساه بألفاظ ملائمة مثل قوله: (التنائى ، انتزاح، حزنا ، يسلينا ، يبكينا ، الأسى ، اليأس) ..وغير ذلك.

كما أن فى الأبيات ما يعكس افتتان الشاعر بمظاهر الطبيعة ، وفيها ألفاظ تعبر عن سحر الأندلس مثل قوله:(جانب العيش ، مربع اللهو ، دانية قطافها ، ليسق عهدكم ، رياحينا ، يا نسيم الصبا ، يا روضة ، وردا) وإن كان الغالب الأعم أنه فى معظم ذكره للطبيعة لم يتجاوز الجمال الحسى ، ولم يمنح الطبيعة

---

[١] الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير د / رجب البيومى ص ٤٠ .

الشعور والإحساس ، وإن كان الحال أن من بين شعراء الأندلس من منح الطبيعة حياة وشعورا.

وقد أوجد حب ولادة لابن زيدون أعداء وحسادا ، وكانت مكانته عند ولادة من أهم دواعى حقدهم وحسدهم ، ومنارا لغيظهم وحنقهم وقد استخدم الشاعر الألفاظ الدالة على هذا الشعور كقوله :(غيظ العدا ، أعاديكم ، أعادينا ، ذى حسد ، كاشحا..).

أما أساس الجمال فى لفظ الشاعر وأسلوبه فهو فى الموسيقى الرائعة التى تسيطر على كلماته ، ولست أعنى الموسيقى الخارجية ، وإنما أعنى هذه الموسيقى الداخلية التى تعنى حسن اختيار اللفظ ، ومناسبته لمعناه ، وتعنى كذلك انسجام الكلمات بعضها مع بعض وائتلافها وتوافقها.

والحق أن حظ ابن زيدون فى هذا عظيم جدا ، فقد هيأ للفظ مكانه ، ولاءم بين الألفاظ والمعانى ، وزاوج بين عبارته طولا وقصرا.

وانظر إلى هذه الموسيقى التى تربط بين لفظه ومعناه فى قوله :

يا روضة طالما أجنت لواحظنا ... وردا جلاه الصبا غضا ونسرينا
ويا حياة تسلينا بزهرتها ... منى ضروبا ولذات أفانينا
إذ جانب العيش طلق من تألفنا ... ومربع اللهو صاف من تصافينا

فأنت ترى أنه لاتنافر بين الكلمات ، وإنما بينها نسب قوى فالروضة تناسب الورد والنسرين ، وكل كلمة من هذه وغيرها تنادى الأخرى وتنسجم معها ، وقد أدت الألفاظ معانيها فى يسر وسهولة وبلا تكلف أو مشقة ، وبهذا تجد اللفظ فى مكانه يعبر عن معناه وينسجم معه .

وفى القصيدة استلزمت الموسيقى بعض الألوان البديعية التى تعمل على التوافق الصوتى بين الألفاظ كالجناس الذى شاع فى كثير من شعره شيوع الطباق فيه ، والشاعر يتناول ذلك كثيرا فى شعره ولكن فى يسر وسهولة ولين ،وبقدر ما تتطلبه الحاجة أو الموسيقى ، واللونان فى الغالب تنفيس عما بداخل الشاعر من صراعات انتابته وهو فى غربته كالطباق بين قوله: "التنائى والتدانى" وقوله : "لقيانا وتجافينا" وقوله : "يضحكنا ويبكينا" وقوله : "ابتلت وجفت" وقوله : "الأسى والصبر" وقوله :"يروينا فيظمينا" .

فأنت تجد الطباق السهل الذى يشبه تداعى المعانى ، فلا تعقيد ولاغموض ولا تفلسف ، كما عقد أبو تمام مثلا وتفلسف لأن الشاعر لم يعتمد فى شعره على ثقافة فلسفية أو منطقية كما كان الحال عند أبى تمام ، وإنما كل كلمة عنده تقبل على أختها كأن الكلمات من أسرة واحدة هى أسرة الطباق الصوتى .

ومن المقابلات الجميلة قوله : "يخشى تفرقنا ، ويرجى تلاقينا" وقوله : "أيامنا غدت سودا ، وكانت بكم بيضا ليالينا" وقوله : "ذكرنا الحزن ، وتركنا الصبر" وهذه المقابلات تكشف عن حالة الشاعر مع محبوبته فى عهدين مختلفين ، عهد يمثل أيام السعادة والمرح ، وعهد يمثل انقلاب الأحوال وأهوال القيد والسجن .

وهكذا نجد تعبير ابن زيدون يمتاز بالرقة والعذوبة ، ويجمع بين الموسيقى الظاهرة المتمثلة فى بحر البسيط بأوزانه الخفيفة ، وفى القافية المنقادة التى تضيف إلى النص نغمة حلوة ، حيث اختار قافية النون التى تليها ألف لتتناسب مع أنة الحزن

والشعور بالأسى ، فكل بيت ينتهى ب (ينا) ذات النغمة الحزينة والأنة المفجوعة ، ولا عجب فقد كان الشـاعر يتخير قوافيه وينتقيها ويهيئ لها مكانا من كلمات البيت ، ولهذا أطلق عليه (بحترى المغرب) لاتفاقه مع البحترى فى الصنعة الشعرية من سهولة اللفظ ، ووضوح المعنى ، وتجنب التعقيد والفلسفة ، ويسر الصنعة ، والإكثار من الطباق بنوع خاص فى سهولة ويسر.

والحق أن ابن زيدون قد تهيأ له من العوامل النفسية ما أشاع فى شعره العاطفة القوية والحرارة المتقدة ، وصدق الإحساس والشعور بما لا تحس به فى شعر زملائه من شعراء الأندلس ، فهو شاعر صادق ، تثير فينا نونيته شعور المحبين ، وقد استعان بالخيال لتوضيح معانيه ونقل مشاعره وأحاسيسه ، وقد امتحن فى مكانته وابتلى بالوشاة والحساد ، وذاق ألم السجن والتشريد ، وفنى فى حبه لولادة ، كل ذلك كان من مثارات أدبه، وبواعث شعره ، فتوجع وابتأس ، ورجا ويئس ، وشكا واستعطف ، فكان صادق العاطفة ملتهب الشعور.

وقد رأينا كيف صور حزنه وأبرزه فى قوله: " حزنا مع الدهر لا يبلى ويبلينا " على سبيل الاستعارة المكنية ، وجعل الزمان شيئا محسوسا يضحك ويبكى على سبيل الاستعارة المكنية أيضا ، كما رأينا تصويره للحزن والفراق والبين كما فى قوله: "بأن نغص" ، " فانحل ماكان معقودا بأنفسنا " ، " وانبت ما كان موصولا بأيدينا " ، " يقضى علينا الأسى " ، " غدت أيامنا سودا".

ويظل الشاعر فى منازعة ومجاذبة بين عواطفه المتقدة ورغباته حتى يصل إلى مناه ويرجع ولادة إلى حماه ، وكان ماهرا فى كناياته التى تعكس شدة حبه وشوقه كما فى قوله: " ولا

جفت مآقينا " وقوله كناية عن السعادة والسرور: " بيضا ليالينـــا " وقوله : " جانب العيش طلق " وغير ذلك مما يصف به أيام أنسـه وسعادته.

وقد ضمت القصيدة التشبيه كقوله: " جانب العيش طلــق " وقوله: " مربع اللهو صاف " وكلاهما تشبيه بليغ ، وفيهما إيحــاء بسعادته هو ومحبوبته ، وفى قوله: " كانت لـــه الشـــمس ظـــئرا فىأكلته " تشبيه بليغ وهو كناية عن تنعمها.

وقوله:

كأنما أثبتت فى صحن وجنته زهر الكواكب تعويذا وتزيينا

يجعل وجهها ككوكب علقت عليه التعاويذ ، وهـــذا كنايـــة عن الجمال.

وليس يخفى ما تناثر فى القصيدة من مبالغات كقوله: " من لوعلى البعد حيا كان يحيينا " وهى تصور وقع محبوبته فى نفسـه وكيف تبعث فيه الحياة.

وكقوله مبالغا فى نعتها ووصفها:

إذا تـــأود آدتـــه رفـــاهيـــة توم العقود وأدمته البرى لينا

ويا حياة تملينا بزهرتـــهـــا منى ضروبا ولـــذات أفانينـــا

وهذه المبالغات إنما تصدر من شدة عشـــــقه ، واحتراقـــه بلهيب الوجد ، ومحاولته تعزية نفسه أو التخفيف من لوعته.

وقد استخدم الشاعر عناصر الطبيعة فى تشبيهاته وصوره وإن كان لم يتخصص فيها ، لكنها كانت مسخرة لهواه وحبـــــه ، ولذلك استعار منها ثوب أحلامه.وعلى كل حال فالقصيدة ضـــرب من الغزل العفيف ، صدر فيها الشاعر عن شعور صادق ، وألـــم دفين ، وصور فيها وحشة الغربة والحنين لمن أحب.

(٩) شعر الملاحم والأراجيز

الملحمة " قصة بطولة تحكى شعرا تحتوى على أفعال عجيبة ، أى على حوادث خارقة للعادة ، وفيها يتجاوز الوصف مع الحوار وصور الشخصيات والخطب ، ولكن الحكاية هى العنصر الذى يسيطر على ما عداه . على أن هذه الحكاية لا تخلو من الاستطرادات وعوارض الأحداث"[١].

والحق أن الأندلسيين قد عرفوا شعر الملاحم[٢] فى تلك الأراجيز التاريخية التى كتبها الشاعر الأندلسى تمام بن علقمة (ت٢٨٢هـ) ، والتى وصف فيها فتح المسلمين للأندلس ، وقدوم عبد الرحمن الداخل ، وتأسيس الإمارة الأموية فى قرطبة.

ونحن وإن كنا لم نعثر على شئ من هذه الملاحم ، ولم تسعفنا المصادر الأندلسية بشىء ذى بال عن الأراجيز الملحمية ، ولا عن شعر الوقائع الأندلسية ، إلا أن تواتر الإشارة إليها فى المراجع ، يجعلنا نؤيد أن فريقا من أدباء الأندلس قد عرفوا هذا النوع من الشعر ، وإليهم يرجع فضل السبق فيه[٣].

يقول الدكتور أحمد هيكل عن الشاعر الأندلسى ابن عبد ربه[٤] :

"وكما عرف ابن عبد ربه بالممحصات عرف كذلك بأرجوزته فى الخليفة عبد الرحمن الناصر ، تلك الأرجوزة التى مجد فيها الخليفة ، ووصف حروبه وغزواته .." .

---

(١) الأدب المقارن الدكتور محمد غنيمى هلال ص ١٤٤ .دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، الطبعة الثالثة.

(٢) راجع بحوث الدكتور حسين مؤنس فى ثمانية أعداد بمجلة الثقافة ، السنة الثانية سنة ١٩٤٦م.

(٣) انظر الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير ، دكتور محمد رجب البيومى ص٧٩-٩٣.

(٤) الأدب الأندلسى ص٢٥٧.

وقبل أن نستعرض ما ورد عن شعراء الأندلس فى هـــذا الفن يحسن بنا أن نشير إلى أن كلاما كثيرا قد دار بين البــاحثين حول هذه القضية ، ومن ثم فليس لنا إلا أن نختار ما نراه مناسبا منها تبعا لما تفرضه طبيعة هذا اللون من الأدب المــأثور عــن أولئك الأندلسيين ، وتبعا لما نعرفه عن طبيعة الشعب الأندلســـى الذى كان مولعا بأبطاله وشديد التعلق بهم.

وتحدثنا المراجع والمصادر أن نفرا من الأندلسيين وصف أحداث فتح الأندلــس ومــا تــلاه مــن حــروب فــى قصــائد طوال...وأورد المؤرخون المسلمون فى ثنايا أخبارهم حشدا مــن الأساطير ، ومن المستحيل والأمــر هكــذا أن نتجــاهل الأثــر الإسلامية ، أو أن ينكر أحد فاعلية التاريخ الإسلامى فى الشـــعر القصصى الأوربى.

ومن المسلم به تاريخيا وأدبيا أن الأزجال الشـــعبية التـــى كانت تتردد باللغة الدارجة بين المسلمين فى الأندلس قد عرضــت جوانب من البطولة والفروسية ، وأبرزت خوارق فى المعـــارك الحربية ، كما أبرزت عناصر المفاجأة ، وغير هذا وذاك مما يعد لبنة فى البناء الملحمى.

فإذا جاز لنا أن نطلق الملحمة على كل شعر تناول حادثــة عظيمة تدور حول بطل عظيم أو عدة أبطـــال يجمعـــهم خيـــال الشاعر فى نطاق محدود ، ويتصرف بهم بالكيفية التى يراهـــا ، لأمكننا أن نقول إن بذرة الملاحم الشعرية قد ظهرت فى الـــتراث الشعرى فى الأندلس ، وهى كذلك فعلا بـــاعتراف المستشـــرق الأسبانى " خليان ريبير " [1] ، وأن هذه البذرة قد انتقلت من أدبنا

---

[1] انظر مجلة الثقافة السنة الثانية ١٩٤٦م والآراء التى نقلها الدكتور حسين مؤنس عن هذا المستشرق.

العربى فى الأندلس إلى غيره فأثرت فيه وأقامت بناء عالميا فـــى دنيا الأدب .

لقد أخذ المستشرق "بلنثيا" بما يقرب من هذا الرأى حينمـــا قال[١] :

"ومهما تذهب فى بحث هذا الموضوع فإننا نجـــد أنفســنا آخر الأمر أمام أصلين اثنين يحتمل أن يكون الشعر القصصــــى الأسبانى قد صيغ على مثال أحدهما : هما الجرمانى والأندلسى ، فأما عن الجرمانى فهو بعيد سحيق ... وأما الأندلسى الإســـلامى فأقرب صلة وإن كنا لانجد حلقة الوصـــل بينـــه وبيـــن الشـــعر القصصى الأسبانى ، نعم إنه إسلامى الطابع ، ولكنــــه أســـبانى الروح".

وقد قرر هذه الحقيقة الأستاذ / عمر الدسوقى فـــى كتابـــه "الفتوة عند العرب" عندما قال [٢] :

"وما عليك إلا أن تلقى نظـــرة عاجلـــة علـــى الروايـــات والقصص التى تروى أخبار الفرسان فى الغرب لتعلم مدى تـــأثير التقاليد العربية لا فى فرنسا وحدها ولكن فى العــــالم المســيحى كله".

وهذا يعنى أن الفروسية الغربية قد اكتسبت ثروتـــها مـــن الفتوة العربية ، وأن تقاليد الفروسية الغربية مأخوذة من عــــرب الأندلس ، ولكن أعداء الأمة الإسلامية المتعصبين يفترون علــــى التراث الإسلامى ، وينكرون فضله ، بل وينكرون كل محمدة له.

---

[١] تاريخ الفكر الأندلسى ص ١١٣ سنة ١٩٥٥ م .

[٢] انظر ص ٢٩٠ ط ٤ .

على أنه جدير بدارســـي الأدب وناقديـــه أن يتواضعـــوا ويتحرروا من بعض القيود التى قيدوا بـــها الشـــعر الملحمـــى ، وخاصة ما يتصل منها بوجود الحوادث الخارجة عن المـــألوف ، وتعدد الآلهة ، وحتمية الطول فى مضامينها . وطبيعـــى أننـــا لا نطلب من الأدب الأندلسى فى عهد طفولته أن تطـــير أراجـــيزه وملاحمه إلى قمة التصوير والإيحاء ؛ لأن طبيعة الأشياء تفرض أن هذا لا يتيسر لذلك الأدب فى مثل هذا الوقت ، لكننا لا نعفيـــه من الوصف الدقيق ، ومن أن يكون شعره شبيها بإبداع الشـــعراء لا بقول العلماء والمؤرخين .

يصف ابن عبد ربه فى ملحمته عن الناصر[١] كثرة الفتـــن والقلاقل فى الفترة التى سبقت توليته فيقول [٢] :

هذا على حين طغـــى النفاق	**واستفحل النكاث والمراق**
وضاقت الأرض على سكانها	**وأذكت الحرب لظى نيرانها**
ونحن فى عشواء مدلهمـــة	**وظلمة ما مثلها من ظلمة**
تأخذنا الصيحة كـــل يـــوم	**فمـــا تلـــذ مقلـــة بنـــوم**
وقد نصلى العيـــد بالنواظـــر	**مخافة من العـــدد الثائـــر**
حتى أتانا الغوث من ضيـــاء	**طبق بين الأرض والسماء**
خليفة الله الـــذى اصطفـــاه	**على جميع الخلق واجتباه**

ثم يمضى فيذكر فى أبيـــات حماســـية تضـــافر الكفـــر والإلحاد واجتماعهم لملاقاة المسلمين ، ثم ما كان مـــن هزيمـــة منكرة لهؤلاء الأعداء ووقوعهم جميعا ما بين قتيل وأسير :

تضافـــر الكفر مـــع الإلحـــاد	**واجتمعوا مـــن سائر البلاد**
فاضطربوا فى سفح طود عال	**وصعقوا البغيـــة القتـــال**
فبـــادرت إليهـــم المقدمـــة	**سامية فى خيلها المسومة**

---

[١] انظرها فى العقد الفريد .

[٢] الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير ، د / رجب البيومى . ص ٨٨ - ٩٠ .

وردهـا متـصـل يــرد   برده بـحر عظيـم الـمد
فانهـزم العلـجان فى علاج   ولبسـوا ثـوبا من العاج
كـلاهما ينـظر خفيا خلفـه   فهو يرى فى كل وجه حتفه
والبيض فى آثارهم والسـمر   والقـتل ماض فيهم والأسر
فلم يكن للناس مـن بـراح   وجاءت الرؤوس فى الرماح
فصادفوا الجمهور لما هزموا   وعاينـوا قوادهـم تخرموا
فـدخلـوا حديقـة للمـوت   إذ طمعوا فى حصنها بالفوت
فيالــها حـديقـة ويـالـها   وافـت بهم نفوسهم آجالها
تحصنوا إذ عاينوا الأهـوالا   بمـعقل كـان لهـم عـقالا
وصخرة كانت عليهم صيلما   وانقلبوا منها إلـى جـهنما
تساقطوا يستطعمون المـاء   فأخرجـت أرواحـهم ظماء
فكم لسيف الله مـن جـزور   فى مـأدب الغربان والنسور

...

هو الذى قام مقام الضيغـم   وجال فى غراثـة بالصـيلم
برأس جالوت النفاق والحسد   من جمع الخنزير فيه والأسد
فهاكه من صحبـة فى عدة   مصلـبين عـندنـا بالسـدة
قد امتطى مطيـة لا تبـرح   صائمـة قائمـة لا تـمـرح
مطيـة إن يعرهـا انـكسار   يطلبهـا النـجار لا الـبيطار
كأنه مـن فـوقها السـوار   عيناه فـى كلتيهـما مسمـار
مباشر للشمـس والريـاح   على جـواد غيـر ذى جماح
يقول للخـاطر بـالطـريق   قول محـب ناصـح شـفيق
هذا مقام خـادم الشـيطان   ومـن عصـى خليفة الرحمن
فما رأينا واعظـا لا ينـطق   أصدق منه فى الذى لا يصدق!

ومع اختلاف الدارسين والنقاد حول هذه الملحمة[١]،فإننـــا تراها رائعة فى بابها ، والوصف الذى جاء بها يدل على توفـــر

---

[١] انظر ظهر الإسلام ، احمد امـين: ١١٩/٣والأدب الأندلـسى ، د/أحمـد هيكـل ص٢٥٧.والأدب الأندبسى بين التأثر والتأثير د/رحب بيومى ص٨٧-٩٠.

عنصرى العاطفة والخيال ، اللذين بدونهما لا يستطيع الشـاعر أن يتحدث عن انهزام جيش الكفر وقائده بهذا الوصف الذى ذكر.

وهذا شاعر أندلسى آخر عـاش فـى عصـرى ملـوك الطوائف والمرابطين ، وهو أبو طالب عبد الجبار ، ينظم ملحمـة تاريخية تقترب من ملحمة ابن عبد ربه ، لكنـها لا تقـف عنـد موضوع بعينه ، إذ تتحدث عن الخالق سبحانه وتعالى ، ثم تطيـل النظر فى الملكوت ، ثم تعرج إلى بدء الخليقة وتتحدث عـن آدم وحواء وقابيل وهابيل ، ثم الأنبياء والمرسـلين ، ثـم الخلفـاء الراشدين ، ثم خلفاء بنى أمية ، وما وليها مـن رجـال الدولـة العباسية ، وبعد ذلك كله يتعرض للدولة الأموية بالأندلس ودولـها ، وما تعرضت له من فتن وقلاقل[1].

وقد ذكر المقرى[2] أرجوزة أخرى تنسب إلـى الشـاعر الأندلسى يحيى بن الحكم الملقب بالغزال.

وأيا ما كان الأمر ومع الخلاف الكبير الذى دار حول هذه الأراجيز ، فإننا يمكننا أن نقول إن هذه الأراجيز لتؤكـد وجـود أخرى مثلها فى الأندلس لكنها ضاعت مع ما ضاع مـن آثـار أندلسية ، وهو مما يؤيد المستشرق الأسبانى فـى وجـود بـذرة الملاحم الشعرية بالأندلس ، وأن هذه الملاحم قد أثرت فـى الأدب الأوروبى ممثلا فى الأدب الفرنسى والأدب الأسبانى.

على أن الأندلس وقد تبوأت هذه المكانـة فـى الملاحـم الشعرية ، ونالت الريادة فيها دون شك ، كان مـن المنتظـر أن تكون سببا فى انتشار هذا الفن وازدهاره ، ولكن "غفوة التجديـد

---

(١) انظر الذخيرة لابن بسام ق ٢ م ١.

(٢) انظر نفح الطيب.

فيما بعد زوال الأندلس ، وطغيان المحاكاة فى عصور المماليك وما وليها من عهود الانحطاط فى الأدب العربى قد قضى على هذا الاحتمال ، حتى جاءت النهضة الحديثة ، وأحس الشعراء فى أوائل القرن العشرين بسيطرة الاستعمار الغربى ، ومحاولته الجاهدة فى إخماد الروح العربية والإسلامية معا ، وكان حاضر الدول العربية إذ ذاك من الاحتلال والسيطرة الأجنبية مما يدعو الشعراء إلى التغنى بالأمجاد العربية الإسلامية القديمة كى يوقظوا الهمم ، ويبثوا الحمية فى النفوس ، فانطلق شعراء هذه الحقبة يتغنون بأعلام الإسلام وأبطال العرب " [١].

وعلى هذا انطلق الشعراء يتغنون بمزايا الإسلام ، ويسجلون تاريخ أعلامه ، ويستلهمون أمجادهم وما واجههم من صعاب خلال تاريخهم فى نشر الإسلام والدفاع عنه ضد من يحاولون تشويق مسيرته أو تشويه مبادئه.

والحق أنه كان لأحداث الفترة أثر قوى فى تناول الشعراء لسيرة الخلفاء الراشدين ، فقد جعلوها أسوة يجب السير على نهجها ، وقد أوحت لهم الأحداث بنظم هذا التاريخ ، فنظم عبد الحليم المصرى (البكرية) ونظم الشاعر محمد عبد المطلب (العلوتين) ونظم الشاعر حافظ إبراهيم (العمرية) وألف الشاعر أحمد شوقى أرجوزته (دول العرب وعظماء الإسلام) وقد نشرت جميعها حوالى عام ١٩١٩م[٢] .

وفى هذا الشأن يذكر الدكتور محمد رجب البيومى عن الشاعر أحمد محرم[٣]:

---

[١] الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير ، د/ رجب بيومى ص ٩٣،٩٢.

[٢] أصداء الدين فى الشعر المصرى الحديث د/الجيزاوى:١/٢٤٤.مطبعة الرسالة ط ١ .

[٣] الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير ص ٩٣.

" أما الشاعر الكبير الذى يمكن أن يذكر فى هذا الموقف بالثناء والحمد فهو الأستاذ أحمد محرم ، إذ نظم المواقع الإسلامية على عهد الرسول فى إلياذة ضافية تشمل أربعة أجزاء،وقد كافأه الله على نيته فنهضت محافظة البحيرة بطبع إلياذته والاحتفال بذكراه ، وهى إلياذة قوية تمخضت بذرة الملاحم الأندلسية عن دوحتها المورقة!

ولبعض الناقدين ملاحظات على طريقتها!ولكنها مع ذلك إبداع ملحمى فريد فى الأدب العربى!وهو تطور طبيعى لخطوة ابن عبد ربه وأضرابه ، فهى مما يذكر فى هذا الباب مشيرا إلى بعض ألوان التأثر بين السابقين واللاحقين! ".

(١٠) الشعر التعليمى

لاشك أن اللغة العربية كانت اللغة الرسمية فى الأندلس ، بها تجرى المكاتبات والمراسلات ، وكان حكام الأندلس مولعين بالفهم والأدب والفصاحة والبلاغة ، ويعملون على استجلاب الكتاب والشعراء إليهم ، ويهتمون بالشعراء المثقفين والكتاب النابهين ، ويقربون منهم من يحسن العربية ، ويجود الكتابة والإنشاء ، وقد يصير من هؤلاء من هو نديم الملك ومدبر مملكته .

ولم تخل هذه الحياة من المنافسة التى تجعل من جهة الحاكم من الحكام يعمل جاهدا على أن يكون فى كنفه من الأدباء والكتاب ما يفوق ما لدى غيره كما وكيفا ، وتجعل من جهة أخرى الكتاب والشعراء يتزودون بالثقافة ويمتلكون زمام العربية

ويتمكنون منها كوسيلة لمن يريد منهم أن يصل إلى ديوان الإنشاء [1] .

ويمكننا أن نقول إن حال شاعر الأندلس في البلاط لايختلف كثيرا عن حال شاعر البلاط في المشرق ، فمن الشعراء من استطاع أن ينال لدى الأمراء مكانة عظيمة ، وأن تغدق عليه الأموال الوفيرة ، لكنه في صميم مهنته كشاعر تتضاءل شخصيته وتهبط فنيته ، ومنهم من استطاع أن يرضى ممدوحه وفنه معا ، وأن يقدم لنا شعرا يلفت الأنظار ويحلق في أجواء الخيال .

وقد أدت هذه الحياة الجديدة إلى دفع الأندلسى إلى تلقى العلوم والمعارف ، وأن يعود إلى الآثار القديمة يتفهمها ويحفظها ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن اختلاطه بالبيئات الأجنبية المحيطة به ساعد على نقل كثير من النزعات الإنسانية إليه ، وجعلت له تفكيرا خاصا تميز بنزعة إنسانية جديدة ، وكل هذا وذاك جعل الأدب الأندلسى يتلون بلون جديد دون أن تذوب أصوله المشرقية .

وقد ترتب على هذا كله أن ساهم شعراء الأندلس في نظم العلوم ، ونظموا في ذلك شعرا يشكل ظاهرة بارزة لدى الأندلسيين .فهذا ابن عبد ربه صاحب كتاب (العقد الفريد) ينظم تاريخ عبد الرحمن الناصر الذى كان أعظم حكام الأندلس بعد جده عبد الرحمن الداخل ، ينظم ذلك كله في أرجوزة مطلعها [2]

أقول في أيام خير الناس	**ومن تحلى بالندى والباس**
ومن أباد الكفر والنفاقا	**وشرد الفتنة والشقاقا**

---

[1] راجع مقدمة ابن خلدون الفصل ٣١ .

[2] العقد الفريد : ٤ / ٥٠١ .

ونحن فى حنادس كالليل   وفتنة مثل غثاء السيــل
حتى تولى عابد الرحمن   ذاك الأعز من بنى مروان

وها هو ذا لسان الدين بن الخطيـــب الشـــاعر والكـــاتب والمؤلف والوزير يؤلف أرجوزة فـــى تـــاريخ دول الإســــلام مطلعها [١] :

الحمـــد لله الذى لا ينكـــره   من سرحت فى الكائنات فكره

والحق أن الأندلسيين لم يقتصروا فى هذا النمط من الشعر على التاريخ ، بل توسعوا فى نظم العلوم ، وعلى ضـــوء هـــذا كانت ألفية ابن مالك فى النحو ، وألفية ابن الخطيب فى الفقـــه ، وأرجوزته فى الطب ، ولامية الإمـــام الشـــاطبى ورائيتـــه فـــى القراءات ورسم المصحف ، وغير هذا وذاك فى سائر العلوم .

وأهم ما كان يتميز به هذا اللون من الشعر التعليمى أنـــه نظم خال من العاطفة والخيال والعلاقة الوحيـــدة التـــى تربطـــه بالشعر إنما هو الوزن والقافية .

(١١) شعر الطبيعة والوصف

والمراد بشعر الطبيعة ذلك النوع من الشعر الذى يتنـــاول فيه الشاعر الطبيعة ومظاهرها بالوصف والتصوير ، ووصـــف الطبيعة هو تصوير ظواهرها بصورة واضحة ، وتلوين الآثـــار الإنسانية بألوان كاشفة عن الجمال وتحليـــل المشـــاع الإنســـانية تحليلا يصل بنا إلى أعماق الشاعر ، إلى غير ذلك من عنـــاصر يحتاج وصفها إلى ذوق فنى ، وتتطلب الإحاطة بنواحيها والســـمو إلى آفاقها وجدانا شاعرا وإحساسا مرهفا وذوقا سليما [٢] " .

---

[١] نفح الطيب : ٩ / ٣٠٧ .

[٢] الوصف فى الشعر العربى (العصر الجاهلى) عبد العظيم قناوى جـ ١ ص٤٢ ط ١ .

وليس فن الوصف بجديد على الشعر العربى ، فقد عرفه الشعراء القدامى منذ الجاهلية ، فلقد ترجم الشاعر العربى عن عمق العلاقة بين العربى وبيئته فوصف الصحراء والناقة والخيل وبعض الظواهر الطبيعية ، وكان فى كثير من الأحيان قوى الملاحظة عندما وصف كل ما وقع تحت حسه من حيوان أو نبات أو جماد، ثم إن هذا الفن لم يكن يتعدى المحيط الصحراوى الذى عاش فيه الشعراء .

فالجاهلى يقف وقفات طويلة أمام الرياض التى جادها المطر حتى التف نبتها وتضاحك زهرها وطاب ريحها ، فوصفها ووصف ريحها ، ثم تغزل بمحبوبته فجعل رائحة نشرها أطيب وأذكى من تلك الرياض التى ما وجد أطيب نشرا ولا أذكى عرفا منها كما يقول الأعشى :

ما روضة من رياض الحزن مشعبة خضراء جاد عليها مسبل هطل

يضاحك الشمس منها كوكب شرق مؤزر بعميم النبت مكتهل

يوما بأطيب منها نشر رائحة ولا بأحسن منها إذا دنا الأصل

ثم اتسع الأفق العام لهذا الفن عند بعض الشعراء فى العصر الأموى ، وأخذ ينمو شيئا فشيئا عند الشعراء فى مستهل العصر العباسى لاختلاف المناظر والبيئات . فإذا كان الجاهلى يرى فى الغيث نعمة ورحمة يستقى ويشرب ويسقى راحلته ويقتات ، فإن العباسى يرى فوق تلك النعمة ترفا ونعيما ، يرى المياه والبحيرات والبرك والزهر والنور ، فينعم كذلك بمناظرها ومرآها [١] .

ومع احتفاظ العباسى بكثير من موضوعات الوصف التقليدى جدت فيه موضوعات لم تكن مألوفة من قبل ، ودخلت

---

[١] الوصف (فنون الأدب العربى) ص ٧٣ دار المعارف.

فيه صور وتشبيهات مستمدة من البيئة الحضرية الجديدة ، ولـــم يقتصر الشعراء على الوصف الحسى ، بل لجأ كثير منهم إلـــى التشخيص وخلق مشاركة عاطفية بينه وبين الطبيعة .

يصف أبو نواس فصل الربيع فيقول [١] :

طاب الزمان وأورق الأشجـــار ومضى الشتاء وقد أتى آذار

وكسا الربيع الأرض من نواره وشيا تحار لحسنه الأبصـــار

فلما كان العصر العباسى الثانى رأينـــا أبـــا تمـــام يقفـــز بالوصف عامة والطبيعة خاصة فيجعل بهجة الدنيا وحسنها لازما من لوازم حسن الروض فيقول [٢] :

ما كانت الأيام تسلب بهجة لو أن حسن الروض كان يعمر

ثم يجىء البحترى فيسير بأوصافه قدما إلى الأمام ويـــبرع فى تصويره ، ويرق فى أسلوبه وينغم فى شعره [٣] .

ويفتن ابن الرومى وهو من المبرزين فى الوصف وينحدر نحوا جديدا فى أوصاف الطبيعة عندما يقصف الرعد ويخطـــف سنا برقه الأبصار وينحدر ماء الغمام من عيون الســـماء فيغمـــر البقاع والربا وهنا يضحك الروض المزهر لبكاء السماء ، ويتفتق نواره عن أجمل الأزهار ، ويتضوع الجو بأنفاس طيبـــات هـــى أرج الزهر ، ويغرد المكاء – وهو نوع من القنابر – كأنه طرب مشوق بالغناء [٤] .

ومع هذا فإن العباسيين قبل أبى تمـــام والبحـــترى وابـــن الرومى وابن المعتز كانوا قلما يلجأون إلى تصوير الطبيعة التـــى

---

[١] الديوان ص ٦٨٨ تحقيق أحمد عبد المجيد ، مطبعة مصر ١٩٥٣ م .

[٢] الديوان ، شرح التبريزى ، تحقيق عزام : ٢ / ١٩٤ دار المعارف ط ٢ ، ١٩٦٩ م .

(٣) انظر ديوانه ، البرقوقى : ١ / ١٩ . المطبعة الهندية ، مصر ط أ ١٣٢٩ هـــ ١٩١١ م .

(٤) انظر ديوانه ، تحقيق الكيلانى : ٢ / ٣٠٦ ، ١٣٤٢ هـــ ١٩٢٤ م .

عاشوا فيها [١] ، ومع القفزة التى قفزها أبو تمام والبحترى فــى وصف الطبيعة لم يتصل حبها بأعماق قلبيهما كما اتصل بأعمــاق ابن الرومى الذى أحب الطبيعة حبا جما ، فلا فرق عنــده بيــن الطبيعة والنور [٢] .

حتى إذا كان القرن الرابع الهجرى وجدنا أن أظهر مــيزة فى ذلك العصر هى إجادة الوصف بحيث تعمد الشعراء استقصاء الموضوعات الوصفية [٣] .

والحــق أن الأندلسييــن قد تفوقوا فــى ميــدان وصــف الطبيعة [٤] ، وأتوا فى ذلك بما لم يأت به شعراء المشــرق ، ولا عجب فى ذلك فقد سخت الطبيعة على بلاد الأندلس فوهبت لــها من المناظر الخلابة ما لم تجد به على بلد آخر من بلاد الشـوق ، فمن سهول خضراء ، وجبال مكسوة بالأشجار ، وأنهار متدفقـة ، وشواطئ جميلة ، وورود يانعة ، وفواكه لذيذة .

يضاف إلى ذلك أن الطبيعة قد جادت على هـــذه البــلاد بألوان من الفتنة الحالمة والبهجة الباسمة ممــا ألــهب عاطفــة الشعراء وحرك أخيلتهم فضاعفوا فى وصفــها شـعرا رقيقـا ، وأبدعوا فى أوصافهم ، وجانسوا بين تلك المناظر ، أضف إلــى ذلك ما اكتسبه الإنسان فى تلك الطبيعة الرائعة من جمال وأناقــة وحسن مظهر ونظافة مسكن .

---

(١) ابن المعتز وتراثه فى الأدب والنقد ، دكتور / خفاجى ص ١٩٥ دار العهد الجديد ، الطبعــة الثانيــة ١٣٧٨ هــ ١٩٥٨ م .

(٢) انظر ابن الرومى حياته من شعره ، العقاد ص ٢٣٤ – ٢٥٤ . المكتبة التجارية بمصر ط ٦، ١٣٩٠هـ ١٩٧٠ م . وانظر كذلك من حديث الشعر والنثر ص ١٣٩ دار المعارف ط أ ١٩٣٦م .

(٣) النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى د /زكى مبارك : ١ /٢١٠ دار الكاتب العربى القاهرة ١٣٥٢ هـ ١٩٣٤ م .

(٤) انظر فى الأدب الأندلسى د / جودت الركابى ص ١٣٠ وما بعدها .

وشعر الطبيعة لم يظفر فى أية بيئة مشرقية بمثل حظه فى الأندلس [١] ، فلقد عنى الشعراء بالأوصاف المختلفة للطبيعة والألوان الطبيعية لها ، وقد بلغ ذلك عندهم مبلغا عظيما ، لأنهم كانوا يهيمون بالطبيعة المزهرة المشرقة ، وقد وصف الشاعر الأندلسى كل ذلك وأجاد فيه أيما إجادة ، بل يمكن القول إنه تفوق على شعراء الشرق بل على شعراء الأقطار الإسلامية فى هذا الميدان ، فوصف السهل والجبل ، والبحر والمراكب ، ومظاهر الحضارة ، ومجالس الأنس ، كما أجادوا فى وصف الثمار والفواكه ، وتميزوا بالإكثار من وصف الأزهار [٢] والأشجار والليل والنهار.

وامتاز الشعر الأندلسى بآفاقه الرحبة فى تشخيص المعنويات وتجسيدها ، وإطلاق العنان للخيال ليرسم تلك المناظر أجمل الصور وأعظمها تعبيرا عن الجمال وعن اندماج الشاعرفى مظاهر الجمال ، حتى إنه لا يكتفى بالوصف الحسى المجرد ، وإنما يحول المحسوسات والطبيعة الصامتة إلى طبيعة معبرة تشارك الشاعر وجدانه.

هذا ولا يخفى أن الحضارة الإسلامية قد أضافت إلى جمال الأندلس الفطرى جمالا آخر أبدعه الأندلسيون ، فهناك المساجد والمدارس ، والجسور والقناطر والمتنزهات ، وهناك القصور الجميلة التى قل أن يوجد لها مثيل فى الدنيا ، وكلها تدل على تقدم الفن الهندسى فى البناء وعلى الذوق الجميل ، وقد بقيت هذه الآثار إلى عصرنا آيات شاهدة على عظمتهم وعلى ذوقهم

---

(١) انظر فى الأدب الأندلسى د / جودت الركابى ص ١٣٠ وما بعدها .

(٢) تاريخ الأدب الأندلسى د/إحسان عباس ص١٩٤.

الرفيع ، وهذا كله يعد حافزا ملهما لقرائح الشعراء فى التوسع فى الوصف ،وفى رسم أبدع الصور ، وأحفلها تشخيصا لمظاهر الطبيعة [١].

وشعر الطبيعة فى الأندلس وإن عبر عن مشاهد طبيعية رآها الشعراء وعاشوا فى رحابها وأحسوا بجمالها فإنه لا يظهر كغرض مستقل إلا نادرا ، فهو يأتى على شكل مقطوعات مستقلة يغلب عليها القصر ، أو يأتى فى مقدمة القصائد ومطالعها ، وقد يمتزج فى أكثر الأغراض التى طرقها الشعراء الأندلسيون ، وكان الغزل أكثر الأغراض الشعرية امتزاجا بالطبيعة ، وهذا لا يمنع أن نجد هذا فى قصائد المدح والرثاء والفخر والعتاب.

ولما كانت طبيعة الأندلس آسرة بمناظرها ، أخاذة بمظاهرها ، متسعة المشاهد ، فقد اتسع الشعر فى الوصف عند الشعراء ، وتلون بلون الطبيعة الجديدة ، وتنوع بتنوعها ، وتأثر برقتها وجمالها ، حتى ليكاد يصبح غرضا جديدا ، وآية من آيات الإبداع ، وسمة من سمات التفوق.

وأشهر شعراء الطبيعة فى الأندلس:ابن خفاجة [٢] ، وابن حمديس ، وابن زيدون ، فابن خفاجة شاعر طال عهده بالطبيعة، ومارس القول فى أفانينها المختلفة مقلدا تارة ومبتكرا تارة أخرى،فهو قمة شعراء الطبيعة فى الأندلس ، ونحن نراه يفتن بالجنات والزهور فيصف شجرة أناخ بها ذات يوم بروح تشف عن أحب الذكريات وأمتع المطربات فيقول [٣]:

---

(١) انظر بلاغة العرب فى الأندلس ، أحمد ضيف ص ٢٢١.

(٢) انظر ترجمته فى الأعلام:٥١/١.

(٣) ديوانه تحقيق د/ السيد غازى ص ٢٨٩ ، ٢٩٠.دار المعارف ١٩٦٠م.

سقيا ليوم قد أنخت بسرحة ... ريا تلاعبها الشمال فتلعب
سكرى يغنيها الحمام فتنثنى ... طربا ويسقيها الغمام فتشرب
يلهو فترفع للشبيبة راية ... فيه ويطلع للبهارة كوكب
والروض وجه أزهر والظل فرع ... أسود والماء ثغر أشنب
فى حيث أطربنا الحمام عشية ... فشدا يغنينا الحمام المطرب
واهتز عطف الغصن من طرب بنا ... وافتر عن ثغر الهلال المغرب
فكأنه والحسن مقترن به ... طوق على برد الغمامة مذهب
فى فتية تسرى فينصدع الدجى ... عنها وتنزل بالجديب فيخصب
كرموا فلا غيث السماحة مخلف ... يوما و لا برق اللطافة خلب
من كل أزهر للنعيم بوجهه ... ماء يرقرقه الشباب فيسكب

والطبيعة عنده تبعث فى النفس معانى الطرب ، وهو يشرب مجاراة لها فى طربها ونشوتها ورقصها ، يقول [1]:

عاط أخلاءك المداما ... واستسق للأيكة الغماما
وراقص الغصن و هو رطب ... يقطر أوطارح الحماما
وقد تهادى بها نسيم ... حيث سليمى بها سلاما
فتلك أفنانها نشاوى ... نشرب أكواسها قياما

وابن خفاجة له ميزة كبيرة فى شعر الطبيعة ، ومن ثم قيل عنه إنه أوحد الناس فى وصف الأنهار والأزهار والرياض والحياض والبساتين[2] وهو معروف بوصف مظاهر الطبيعة ووصف النور والطير[3].

فهو يصف مكانا صابته سماء وطلته أنداء فتبيض بنواره وتفضض ، وتذهب بأزهاره وتلهب ، ويندب إلى راح وارتياح ،

---

(١) ديوان ابن خفاجة ص ٧٠. " أكواسها " هكذا فى الديوان ، ولعلها " أكوابها " ، وهى " أكوابها " فى طبعة دار صادر بيروت ص ٢٢٤.

(٢) نفح الطيب للمقرى :١٩٩/٢.تحقيق محمد محى الدين ، مطبعة السعادة ، الطبعة الأولى ١٣٦٧هـ ١٩٤٩م.

(٣) فن التشبيه ، على الجندى :٢٢١/٢.مطبعة نهضة مصر ، الطبعة الأولى ١٩٥٢م.

وينعت طائرا يولول هناك ويهدر ، وشجرة يتساقط نوارها عليه وينتثر[1]:

أذن الغمام بديمة وعقار ... فامزج لجينا منهما بنضار
و اربع على حكم الربيع بأجزع ... هزج الندامى مفصح الأطيار
متقسم الألحاظ بين محاسن ... من ردف رابية وخصر قرار
نثرت بحجر الروض فيه يد الصبا ... درر الندى ودراهم الأنوار
هزت له أعطافها ولربما ... خلعت عليه ملاءة النوار

ويرى ابن خفاجة شجرة منورة زادها نورها بهجة فيصفها وصفا جميلا يكاد يشابه طريقة الحلبيين فى الوصف فيقول[2]:

يارب مائسة المعاطف تزدهى ... من كل غصن خافق بوشاح
مهتزة يرتج من أعطافها ... ما شئت من كفل يموج رداح
نفضت ذوائبها الرياح عشية ... فتملكتها هزة المرتاح
حط الربيع قناعها عن مفرق ... شمط كما تزيد كأس الراح
لفاء حاك لها الغمام ملاءة ... لبست بها حسنا قميص صباح
نضح الندى نوارها فكأنما ... مسحت معاطفها يمين سماح
ولوى الخليج هناك صفحة معرض ... لثمت سوالفها ثغور أقاح

ويصف شجرة النارنج المثمرة فيجعلها حلة بهية ، والطبيعة التى تحيط بها مرحة مغردة ، ويدعو للمكث فى هذا الدوح الجميل فيقول[3]:

ألا أفصح الطير حتى خطب ... وخف له الغصن حتى اضطرب
فمل طربا بين ظل هفا ... رطيب و ماء هناك انثعب
و جل فى الحديقة أخت المنى ... و دن بالمدامة أم الطرب
و حاملة من بنات القنا ... أماليد تحمل خضر العذب
تنوب مؤرقة عن عذار ... و تضحك زاهرة عن شنب

---

(١) ديوان ابن خفاجة ص ٢٩١. و ص ٧٠،٦٩ دار صادر بيروت.

(٢) ديوان ابن خفاجة ص ٢٨٢،٢٨١.ودار صادر بيروت ص ٧٠،٦٩.

(٣) ديوان ابن خفاجة ص ٦٨. و ص ٢١ دار صادر بيروت.

وتندى بها فى مهب الصبا　　زبرجدة أثـمرت بالذهب
تـفاوح أنفاسـها تـارة　　وطورا تغازلها من كثب
فتبسم فى حالة عن رضا　　وتنظر آونة عن غضب

والطبيعة عند ابن خفاجة ملهم مؤثر ، وهى خـير مذكـر بسوالف العهد ، ولذلك نراه تهيج شجونه حين ينزل بأيكة غنـاء ، فيتذكر شجون الأمس ويستحضر عهده مع حبيبته التـى ودعـت الحياة ويربط عواطفه بالطبيعة ربطا يهز كيانه .

يقول :

ألا أذكرتنى العهـد بالأنـس أيكـة　　فأذكرتها نوح الـحمام الـمطوق
وأكببت أبكى بين وجـد أنـاخ بى　　حديـث وعـهد للـشبيبة مخلق
وأنشـق أنفـاس الريـاح تعـللا　　فأعدم فيها طـيب ذاك التنشـق
ولما عـلت وجـه النـهار كآبة　　ودارت به للشمس نظرة مشـفق
عطفت على الأجداث أجهش تارة　　وألثم طورا تـربها فـى تشـوق
وقلت لمغفف لا يهب من الكـرى　　وقد بت مـن وجـد بليل المؤرق
لقد صدعت أيدى الحوادث شملنا　　فهـل مـن تلاق بعد هذا التفرق
وإن تـك للخلـين ثـم التقـاءة　　فيـاليت شعرى أين أو كيف نلتقى

وله أبيات تسمع فيها صوت الجبل [1] وهى " تعـد ذروة اكتمال شعر الطبيعة فى الأندلس!وقد بلغ التشخيص فيها مبلغـا لا نجده إلا عند كبار الشعراء فى الشرق والغرب!ولو ذهب جميـع ما قال ابن خفاجة وبقيت وحدها لكانت معجزة ابداعـه ودليـل تفوقه!" [2].

يقول الدكتور سعد إسماعيل شلبى[3]:

---

(١) ومطلعها:　وأرعن طماح الذوابة باذخ　*　يطاول أعنان السماء بقارب

(٢) الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير ،د/رجب بيومى ص ٧٨.

(٣) دراسات أدبية فى الشعر الأندلسى ص ١٦٣،١٦٤.

" لقد تهيأ لابن خفاجة إذن أن ينطلق مغردا ، وأن يصدح هذا الصوت الذى احتبسته الأحداث مدة ، ليعيد لشعر الطبيعة قوته ، وإشراق ديباجته ، فى عهد جمع بين عصرى الطوائف والمرابطين ، فعصم بذلك شعر الطبيعة من الضياع الذى كان ينتظره ، وكان بمثابة أستاذ صاحب رسالة تلقى عنه حواريوه ، ثم ذهبوا يبشرون بدعوته فى ربوع شبه الجزيرة..".

وفتنة ابن حمديس بالطبيعة تبدو حين يفرد بعض القصائد لأوصافها وللإلمام بمظاهرها الخلابة ، ويختم قصيدته بهذه الأبيات التى تنطق بحب الطبيعة والهيام بها فيقول[١]:

فتثنى الغصن سكرا بالندى وتغنى ساجع الطير غرد
وكأن الصبح كف حللت من ظلام الليل بالنور عقد
وكأن الشمس تجرى ذهب طائرا فى صيده من كل يد

وشعر الطبيعة عند الأندلسيين قد امتزج فى أكثر الأغراض التى طرقوها ، فابن زيدون الشاعر لم يكن شعره فى الطبيعة ضربا من المحاكاة ،بل كان من رغبته فى التعبير عن كل ما يشعر به[٢].

يصف خلائق أبى الوليد بن جهور بالروض الضاحكى فيقول[٣]:

كالروض أضحكه الغمام الباكى للجهورى أبى الوليد خلائق

وكذلك يمدح المعتمد على نعمه فيراها جنة يضل فيها القريض[٤]:

---

[١] ديوانه ص٩٩طبعة روما ١٨٩٧م.

(٢)قصة الأدب فى الأندلس د/خفاجى ، جـ٥ص٥.مطمبعة العهد الجديد ١٩٥٦م.

[٣] ديوان ابن زيدون ، شرح كامل كيلانى وعبد الرحمن خليفة ص ١٠.مطبعة الحلبى وأولاده ط ١ عام ١٣٥١هـ-١٩٣٢م.

[٤] الديوان تحقيق البستانى ص ١٤٢بيروت ١٣٨٠هـ-١٩٦٠م.

بوأتـــنى نعماك جنة عدن   جال فى وصفها فضل القريض

ثم يعاتب ابن زيدون صاحبه أبا حفص بن بـــرد ويطلـــب منه أن يكون مثله دائم الوفاء فينظر إلى الطبيعة فيرى فـــى الآس وديمومة اخضراره ما يريد أن يعبر عنه فيقول[١]:

لايكن عهدك وردا   إن عهدى لك آس

ويصف أحمد بن عبد ربه الطبيعة فى روضة فيقول [٢] :

وما روضة بالحزن حاك لها الندى   برودا من الموشى حمر الشقائق
يقيـم الدجـى أعنـــاقهـــا ويميلهـــا   شعاع الضحى المستن فى كل شارق
إذا ضاحكتها الشمس تبكى بأعين   مكللة الأجفان صفــر الحمالـــق
حكت أرضها لون السماء وزانها   نجوم كأمثال النجـــوم الخوافق
بـــأطيب نشرا مـــن خلائقـــك التـــى   لها خضعت فى الحسن زهر الخلائق

وهذه محاولة لابن خفاجة يعمد فيها إلى وصف زهرتيـــن مجتمعتين ، فيصف الورد وقد نثر عليه نوار النـــارنج ، وشـــبه النوار فى ابيضاضه بثغر يقبل خدا أحمر ، يقول [٣] :

وصدر ناد نظمنـــا   له القوافى عقدا
فى منزل قد سحبنا   بظله العز بردا

ويمزج ابن هانئ المدح بأوصـــاف الطبيعـــة ، فيصـــور منظرا من مناظر الربيع فى مجلس ممدوحه ، يقول مادحا جعفـــو ابن على وقد حضر عنده فى مجلس منادمة [٤] :

وثلاثة لم تجتمع فـــى مجلـــس   إلا لمثلك و الأديب أريـــب
الورد فى رامشنة مـــن نرجس   والياسمين وكلهن غريـــب
فاصفر ذا واحمر ذا وابيض ذا   فأتت بدائع أمرهن عجيب
فكأن هـــذا عاشـــق وكـــأن ذا   ك معشق وكأن ذاك رقيب

---

[١] الديوان تحقيق البستانى ص ٨٣ .

(٢) يتيمة الدهر ، تحقيق محيى الدين : ٢ / ٨٢ مطبعة حجازى القاهرة ط أ ١٣٦٦ هـــ ١٩٤٧ م .

[٣] الديوان ص ٤٠ .

[٤] ديوان ابن هانئ ص ٢٤ . المطبعة اللبنانية بيروت ١٨٨٦ م .

ويتصور ابن خفاجة الكواكب وقد غرقت في النهر ، ويتخيل أن الأرض تجذبها السماء فيقول [1] :

ألا يا حبذا ضحك الحميا ... بحانتها وقد عبس المساء !
وأدهم من جياد الماء نهد ... تنازع جله ريح رخاء !
إذا بدت الكواكب فيه غرقى ... رأيت الأرض تحسدها السماء

ويصف ابن العطار ركوب النهر فيكثر من تشبيه تكسر الماء بالدروع ، يقول[٢]:

مررنا بشاطئ النهر بين حدائق ... بها حدق الأزهار تستوقف الحدق
وقد نسجت كف النسيم مفاضة ... عليه دما غير الحباب لها حلق

ومن كل ما تقدم يتضح أن شعراء الأندلس أعطوا هذا الفن من الشعر طعما خاصا به ، وفرضوه غرضا مستقلا أصيلا ، غنيا بمادته ، طريفا في موضوعه وكان منهم شعراء كثيرون أساتذة فيه ، دار الكثير في فلك معانيهم وصورهم ، وبدا مذهبهم بوضوح على قرائح الشعراء فيما بعد .

ولنا أن نقول : " إن شعر الطبيعة بالأندلس قد خطا نحو التجديد خطوة أولى مع ابن زيدون ، وخطوة ثانية مع ابن خفاجة" [٣] .

وقد نحا بعض الشعراء بوصف الطبيعة ناحية وجدانية فاقوا بها غيرهم من الشعراء ، لدرجة أن بعض الشعراء لما أراد أن يحاكيهم في أوصافهم عجز عن مجاراتهم ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن شعراء الأندلس يلفتون الأنظار بما اجتمع لديهم من مقومات في شعر الطبيعة ، وحسبهم أن هذا الغرض

---

(١) مسالك الأبصار ، ١ /٧٦ تحقيق أحمد زكي باشا . دار الكتب المصرية ١٣٤٢ هـ ١٩٢٤ م .
(٢) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين د / الشكعة ص ٤٨٢ . القاهرة ١٣٧٨ هـ ١٩٥٨ م .
(٣) الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير د / رجب بيومي ص ٧٨ .

وإن كان قديما لكنه عندهم يتسـع باتسـاع المشـاهد ، ويتنـوع بتنوعها، ويتلون بلون الطبيعة الجديدة ، ويتأثر بدقتها ورقتـها ، حتى ليكاد يصبح غرضا جديدا .

وفى رأيى أن شعراء الأندلس يستحقون أن يكونوا كذلك ، ولم لا ؟ وقد " كانت بالأندلس أغنى بقـاع المسـلمين منظـرا ، وأوفرها جمالا ، أبدعها الخالق أيما إبداع وصاغها خير صياغـة ، ولونها أجمل الألوان ، فلا يستطيع من يراها إلا أن يغنى ، ولا من شاهدها إلا أن تفتنه " [١] .

ويؤكد ذلك ويقويه الدكتورمصطفى الشكعة فيقول [٢] :

" الأندلس بلاد الطبيعة الجميلة السخية الثريـة السـاحرة المعطاءة ، والأندلسيون قوم يغلب عليهم الأدب ويأسرهم الشـعر ، فتفننوا فى قوله وإنشائه ، وأحسنوا فى الاستماع إليه وإنشـاده ، فكان للطبيعة والأمر كذلك نصيب كبـير مـن العنايـة بـها ، والافتتان فى وصفها حدائق وبساتين ، ورياضا وأزاهـير وورودا ونوارا ، وحمائم وأطيارا ، وجداول وأنهارا ، وخلجانا وغدرانا ، وبركا وسواقى ، وخضرا وأثمارا ، وزوارق ومراكب ، و ثلوجا وأمطارا ، وكل ما يخطر على النفس من جميل يتصل بالطبيعـة أو طريف يرتبط بها بآصرة نسب أو وشـيجة علاقـة وصفـوه وصفا بديعا ، وصوروه تصويرا فاتنا مختلـف الألـوان منمنـم الأصباغ ، فيه الفاقع الزاهى ومنه الداكن الوقور " .

---

(١) مجلة الثقافة ١٩٣٩ م (بحث لأحمد أمين) عن الجزء الثانى من فيض الخاطر ص ٢٥٨ .

(٢) الأدب الأندلسى موضوعاته وفنونه ص ٣٤١ .

خصائص شعر الطبيعة ومميزاته

لقد كان للبيئة الطبيعية والصناعية الأثر الأكبر في تلوين شعر الأندلس في موضوعات الطبيعة ، وإبداع الشعراء في الوصف ، وتفننهم في الشعر.

ذلك لأنه قدر لهؤلاء الشعراء أن ينفعلوا مع هذه البيئة انفعالا أكسب شعرهم مميزات جديدة وخصائص مبتكرة ، وأبوابا مستحدثة في موضوعاته ، انفردوا بها عن غيرهم من الشعراء السابقين عليهم أو المعاصرين لهم ، كما اكتسب شعرهم مميزات أخرى في أسلوبه بعضها مستحدث ، وبعضها الآخر امتداد للقديم .

وأغلب الظن أن الشعر الأندلسي كان متأثرا إلى أبعد الحدود بمثيله في المشرق ، وذلك لأن ولع الأندلسيين بكل ما هو شرقي كان عجيبا ، فلقد اشترى الحكم كتاب أبي الفرج الأصبهاني (الأغاني) بألف دينار وهدايا كثيرة ، ووجد من ينسب إلى الأندلس متنبيها وبحتريها وصنوبريها ومعريها بشكل يدعو للتوقف والنظر[1] ، واقتفى الشعراء الأندلسيون أثر الشعراء المشارقة ، ولذلك " ما كانت فنون الشعر لتتضح في الأندلس إلا بعد أن تكون قد بلغت أوجها في المشرق "[2].

وهذا يعني أن الشعر في الأندلس امتداد للشعر العربي في المشرق ، فقد كان الأندلسيون ينظرون إلى الشرق وما يأتي منه نظرة إعجاب وتقدير ، فكانوا في غالب أمرهم مقلدين للمشارقة ،

---

(١) تاريخ النقد الأدبي في الأندلس ، الدكتور محمد رضوان الداية ص ٤٣ . دار الأنوار ، بيروت الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م.

(٢) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ، دكتور مصطفى الشكعة ص ٤٦٧.

ويبدو ذلك واضحا فى ألقاب الشعراء وفى معارضتهم لشـــعراء المشرق .

ومع هذا التأثر بالشعر المشرقى فى الطبيعة فإن لشـعراء الأندلس ميزة كبيرة فى شعرهم " ذلك لأنهم كانوا فـــى الطبيعــة وشعرها يحسون ويهيمون ، ثم يعبرون عن حسهم وهيامــهم "[١]. ومن ثم فلم تلبث الأندلس أن صارت منبعا مـــن أهـم المنـابع العربية لشعر الطبيعة.

ومعنى هذا كله أن التقليد لم يمنع شعراء الأندلـــس مـن الإبداع والابتكار ، والتميز بميزات خاصة ، نتيجة لعوامل كثـيرة أهمها البيئة الأندلسية الجديدة الجميلة التى طبعت الأدب الأندلسى بطابع خاص.

يقول الدكتور محمد رضوان الداية[٢]:

" إن التأثر بالشعر المشرقى لم يكن بالضرورة ليظهر مـع ظهوره فى المشرق ويخفت بخفوته ، بل إن الأندلسيين تفـــاعلوا بهذه العوارض حسب ظروفهم الخاصة ".

ويقول الدكتور سعد إسماعيل شلبى[٣]:

" وعندما ينقل الأندلسيون عن المشرق يكون ذلـــك دليـــلا على حيويتهم ، ولو أنهم لم ينقلوا شيئا لدل ذلك علـــى جمودهـم وانعزاليتهم التى تتنافى مع الحيوية التى توصف بـــها الشـعوب الناهضة ، والحضارة المتطورة التى تتفاعل مـــع غيرهـا مــن الحضارات ".

---

[١] شعر الطبيعة فى الأدب العربى ، دكتور سيد نوفل ص ٢٦١ مطبعة مصر ١٩٤٥م.

[٢] تاريخ النقد الأدبى فى الأندلس ص ٢٧٠.

[٣] دراسات أدبية فى الشعر الأندلسى ص ١٣.

فترسم الشعراء الأندلسيين للشعر العربي الأصيل ، ومحافظتهم على منهجه ، وطرقهم لموضوعاته وفنونه المختلفة ، لم يكن ينبئ عن نقص فى ملكاتهم ، وضعف فى مواهبهم الشعرية ، فترسمهم للشعر المشرقى إن هو إلا صورة من صور ارتباطهم بأصلهم ، ومظهر من مظاهر حبهم الشديد لأرومتهم ، على أساس أن وطنهم الجديد – الأندلس – إن هو إلا امتداد للوطن الأصلى ، وأن تراثهم إن هو إلا جزء من تراث أسلافهم الذى يعتزون به ويحافظون عليه.

حقيقة استفاد شعراء الأندلس من الطريقة التى سار عليها المشارقة ، من افتتاح القصائد بالوقوف على الطلل ، أو النسيب ، أو الحديث عن الخمر والشراب ، أو انتهاجهم طريقة أبى تمام فى البديع ، والمتنبى فى تضمين الحكم ، وغير هذا وذاك مما يعكس عمق صلتهم بالأدب القديم فى العصر الجاهلى والعصر الأموى والعصر العباسى.

وفى رأيى أن شعراء الأندلس – وإن تشابهوا مع أقرانهم من شعراء المشرق – يصورون طبعهم الأصيل ، لأن شعر المشارقة الذى تمثلوه صار جزءا من نفوسهم ، ولبنة من كيانهم ، فإذا ما جاء دور الأديب منهم فى الإبداع نجده يتأثر بما تمثل بقصد أو بغير قصد ، ولو فعلوا غير ذلك لجاء إبداعهم تعوزه الأصالة.

يقول الدكتور حامد عبد القادر(١):

" إن ينابيع الصور التى يستعملها الشاعر فى أسلوبه ترجع إلى مشاهداته وتجاربه الخاصة أو إلى النقل عن غيره ... وقد

---

(١) دراسات فى علم النفس الأدبي ص ١٦٧. المطبعة النموذجية ١٩٥٤م.

يكون الشعر ممتازا بالقدرة على تركيب الصورة القديمة ، والتأليف بينها تأليفا جديدا لتكون صورة مبتكرة جديدة ".

الخصائص الموضوعية

وقد اكتسب شعر الطبيعة عند الأندلسيين [١] خصائص موضوعية كثيرة جعلته يمثل فى رحاب الشعر مكانة رفيعة ، ويتبوأ مكانا خاصا به ، وقد حمل شعراء من الأندلس اللواء وتقدموا الركب حتى بايعهم فى اتجاههم بعض الشعراء .

ومن الخصائص الموضوعية فى شعر الطبيعة فى الأندلس أن الطبيعة كانت متكأ للموضوعات الأخرى ، ففتنتهم بها جعلتهم يدخلون أوصافها فى أغراض الشعر الأخرى ، فالطبيعة تنساب فى جملة أغراضهم ، فهم يصفون الطبيعة فى الغزل ، ويصورون محاسن الحبيب على مثال محاسن الطبيعة ، ويصفونها فى المدح ، بل إن أكثر أشعارهم فى المدح مضبوغة بصبغة الطبيعة ، وهى كذلك قوية فى الفخر ، حزينة باكية فى الرثاء.

والأمثلة على ذلك كثيرة متعددة مما يدل على أن حبهم للطبيعة غلب عليهم حتى أثر على بقية أغراض الشعر عندهم ، ولا عجب فهم يعشقون الطبيعة ويهيمون بها ، وينعمون بمباهجها ، ويفتتنون بروائعها ، ويندمجون بأفيائها وظلالها ، ويطربون لأغاريد أطيارها ، ومن ثم غلب هذا على طبع كل منهم ، وتسلل إلى المجالات المختلفة من شعره ، فاستمد كثيرا من معانيها وصورها وأخيلتها.

---

[١] انظر فى الأدب الأندلسى د/جودت الركابى ص ١٣١ وما بعدها .

الخصائص الأسلوبية

الأسلوب هو الطريقة التى يصوغ فيها الأديب أفكاره،ويبين بها عما يجول فى نفسه من العواطف والانفعالات[1].

وقد تبلورت فى الشعر الأندلسى الفنون الأسلوبية من رقة فى اللفظ وقوة فى الصياغة ، وهو مع ذلك يأتى بالاستعارات والتشبيهات ، والطباق والمقابلة ، وغير ذلك من الفنون البديعية الأخرى فضلا عن سمات الملاحة فى كثير من المواضع.

وهنا سؤال لا محيد من طرحه والإجابة عليه وهو:كيف استخدم شعراء الأندلس ألفاظهم؟ وكيف كانت طريقتهم فى التصوير ، وفى استخدام الألوان البديعية؟ وكيف عرضوا ذلك كله عرضا صادقا مع إحساسهم النفسى؟

أما من ناحية الألفاظ فإن حاجة الشعراء للألفاظ السهلة السلسة كان أشد من غيرها ، لأن شعر الطبيعة يعتمد أكثر ما يعتمد على انسياب الألفاظ الرقيقة البعيدة عن التعقيد والغموض ، وذلك ناتج فيما أرى عن بساطة الأندلسيين وبعدهم عن التعقيد فى كل شىء ، ويمكن أن يستثنى من ذلك شعر ابن هانىء ، وابن دراج ، فشعرهما مشرقى من حيث الجزالة والقوة.

أما من ناحية التصوير فهو عملية فنية ، وطالما لجأ إليها الشعراء ، ليعرضوا بها مشاهداتهم وتصوراتهم التى طبعوها بانطباعاتهم ، ولونوها بخيالاتهم التى تضحك الأرض بالأزهار ، وتبكى السماء بالمطر والغيوم ، وغير ذلك من الألوان التى تجول فى خيالهم وتنطبع بانطباعاتهم.

---

(1) أسس النقد الأدبي عند العرب ، د/احمد بدوى ص ٤٥٣ مكتبة نهضة مصر ط٣/١٩٦٤م.

ومن هنا فالشاعر يندمج مع الطبيعة ، وذلك أثر من آثار جمال الطبيعة الأندلسية ، وتعلق الأندلسيين بطبيعة بلادهم ، وانعكاس ذلك على شعرهم سواء من ناحية الألفاظ المنتقاة ، أو الخيال ، أو التصوير والتشخيص.

أما من ناحية الأوزان فإنهم يستخدمون الخفيفة منها ، وقد يستخدمون البحور القصيرة ، لأنها بتفعيلاتها ونغماتها من أصلح البحور لمثل هذه الصور التى تأتى من الطبيعة.

وجملة القول عن أسلوب الشعر الأندلسى ومعانيه وأخيلته أن الألفاظ كانت سلسة ، بعيدة عن التعقيد والغموض ، خالية إلى حد ما من الألفاظ الدخيلة والأعجمية ، ولعل ذلك راجع إلى بساطة الأندلسيين وبعدهم عن التعقيد فى كل شىء ، هذا فضلا عن تمسكهم بالعربية الفصحى تلك التى حملت صورها وأساليبها بصور البادية[1].

ولا عجب!فشعرهم امتداد للشعر العربى فى المشرق ، وهم أنفسهم كانوا متعلقين بالمشرق ينظرون إليه وإلى ما يأتى منه نظرة إعجاب وتقدير ، فهم فى غالب أمرهم مقلدون للشعراء المشارقة ، ويبدو ذلك واضحا فى ألقاب الشعراء وفى معارضاتهم لشعراء المشرق كما سبق القول.

إن طبائع الأشياء تجعل الأندلسى يتفق إنتاجه مع إنتاج المشرقى فى بعض الأشياء ، وهذا يعنى أن الابتكار الأدبى لشعراء الأندلس ليس منفصلا تمام الانفصال عن واقع الشعر المشرقى.

---

[1] انظر تيارات أدبية د/ إبراهيم سلامة ص٢٥٤ط ١ .

يقول الدكتور رجب البيومي[1]:

" فالعربى حين قدم إلى الأندلس قدم بذكريات أدبية ولغة شاعرية ، وميول عاطفية اختلطت بدمائه وجرت فى عروقه ، فهى تتخايل لعينيه فى روحاته وغدواته ، وتسرى إليه طيوفها الحالمة فى هجعاته ، ولن يستطيع فكاكا من أسرها الخالب حتى ولو حاوله بشتى المجاهدات ، وهو مايعبر عنه فى علم النفس بالذاكرة العاطفية التى تجر للمرء خيوط ماضيه ، فيتمثلها أنى ذهب وجاء ! فالعربى الوافد مع الفتح الأول بدوى الديباجة ، تقليدى المذهب ، لأنه وإن كان فى عالم جديد لا يزال يحن إلى الشيح والقيصوم ، ويتذكر مرابع أحبابه فى صحراء المشرق وحواضره ! فيهتف بلسانه بما يجيش به اضطرار دون أن ينزع إلى ابتكار مقصود ! هذا هو العربى المسلم الوافد ، ولن يبعد عنه كثيرا أحفاده وأبناؤه ممن نشأوا بالأندلس ، وتفتحت عيونهم على رياضها الساحرة ، لأنهم من ناحية أولى قد ورثوا ذكريات آبائهم ، وانحدروا من أصلاب تذكرهم بعالم آخر يزدهر فيه الإفصاح البدوى ، وتنفحه أنسام نجد والعقيق وسلع ، وهم من ناحية ثانية يقرأون أدب المشرق فيروون به صدى أشواقهم ، وينزعون إليه دون أن تقدر لهم رؤيته ، وأقل شيء أن يحتذوه فى أشعارهم فيكون مثالهم الأرفع وأنموذجهم الراقى ... " .

فالتقليد لم يمنعهم من الابتكار والتفوق والتجديد فى مجالات عديدة ، فقد جددوا فى بعض أغراض الشعر وتفوقوا فيها ، وظهر ذلك فى وصف الطبيعة ، وفى رثاء الممالك الزائلة هذا فضلا عن براعتهم فى التصوير والاندماج فى الطبيعة ،

---

[1] الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير ص١٥.

ووصف مناظرها الخلابة ، وذلك كله أثر من آثار جمال الطبيعة الأندلسية ، وتعلق الأندلسيين بطبيعة بلادهم ، وانعكاس ذلك على شعرهم سواء من ناحية الألفاظ المنتقاة ، أو من ناحية الخيال والتصوير والتشخيص .

وهكذا نمت الشخصية الفنية عند الشاعر الأندلسى نموا يدل على ثقة الشاعر بنفسه ، كما يدل على تحدى الشعراء للشعر المشرقى وقدرتهم على تأليف الطريف من الأشعار .

غاية الأمر أن الأندلسيين استطاعوا أن يعرضوا ما قلدوا فى ثوب جديد ، ونحن حين نتأمل ما قلدوا نحس بشخصيتهم ولا يسعنا إلا أن نعترف لهم بالتجديد والابتكار .

ومن أبرز ما كان للأندلسيين من تجديد التجديد فى الأوزان ،وذلك باختراع الموشحات ، وسوف نتحدث عنها حديثا مستقلا مفصلا .

الفصل الثالث

الموشحات والزجل

مما لاشك فيه أن الأندلسيين قد حاكوا المشارقة وقلدوهـم في فنونهم وموضوعاتهم وصورهم وأخيلتهم ، لكنهم يمتازون عن المشارقة باختراع الموشحات وانفرادهم بها دونهم .

فإذا كان شعراء المشرق قد جددوا فى الأوزان والقوافى ، وأتوا فى الأوزان الشعرية بما لم يأت به الخليل بن أحمد ـــ كما سبق أن قلنا ـــ فإننا لا يمكن بأى حال من الأحوال أن نقول إن الموشحة تدين للمشارقة بالفضل ، وإنما يمكن أن نقول دون أدنى تردد إن الموشحة تدين بالفضل لشعراء الأندلس .

ولا نكون مغالين إذا قلنا لقد طال استماعنا إلى من رموا الأدب الأندلسى بالتقليد والمحاكاة والترديد ، وطال استماعنا كذلك إلى من وصفوه بالجدة والابتكار والأصالة ، وسنظل نرى اختلافا سافرا لدى أرباب البحث فى قضية التقليد والتجديد ، أو القديم والجديد فى الأدب الأندلسى ، لكن الشيء الملفت للنظر أن هؤلاء جميعا ـــ مع اختلافهم السافر فى تلك القضية ـــ يتفقون "على أنماط من التجديد وجدت بارزة فى هذا الأدب ، ولعلها تنحصر فى الموشحات والأزجال والملاحم ، والإبداع فى وصف الطبيعة ، ورثاء المدن الزائلة " [1] .

وإذا كان شعراء الأندلس قد جاروا شعراء المشرق فى الأوزان والقوافى ، وإذا كان شعراء المشرق قد مالوا وكما سبق أن قلنا إلى الأوزان القصيرة ، وأكثروا من المجزوءات

---

[1] الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير د / رجب بيومى ص ٢٦ .

والمشطورات .. إذا كان كذلك فيمكن أن نقول إن الأندلسيين قد فعلوا ذلك وزادوا عليه باختراع الموشحات والأزجال .

والفرق بينهما أن الموشحات صيغت بالعربية الفصيحة إلا قليلا من اللغة المحلية لسكان الأندلس الأصليين ، أما الزجل فإنه يصاغ باللغة العامية الدارجة .

والحق أن الأدب العربى لم يفسح للقصص الشعبى والزجل مجالا ذا شأن بين الألوان الأدبية الأخرى ، بل إن الموشح الأندلسى على الرغم من ترافته لم يلق اهتمام أنصار القريض .

يقول الدكتور عمر الدقاق [١] :

" ... والموشح الأندلسى نفسه برغم طرافته ظل عددا من الأجيال يشق طريقه العاثر بصعوبة دون أن يعترف به أنصار القريض فنا من فنون القول ، حتى إن الوشاحين قابلوا ذلك التجاهل بتجاهل أشد حين أخرجوا الموشح الفصيح من دائرة فنهم واعتبروه بمثابة امتداد للقريض وأنه لا شخصية له ، بل إنهم أمعنوا فى التحدى بعد أن تمكنوا من فنهم الجديد ، وثبتوا فيه أقدامهم ، إذ اشترطوا أن تكون (الخرجة) مسوقة باللغة المحكية أى باللغة العامية ... " .

وعلى كل حال فلم يلبث كل منهما أن لاقى استجابة وإقبالا من كل الطوائف ، ولعل ذلك يرجع إلى أنهما يتلاءمان وحاجة الناس الملحة إلى الغناء وتنويع الصوت ، هذا بالإضافة إلى تخلص كل منهما من القيود كالقافية الموحدة والخروج على اللغة الفصحى وعلى قيود الإعراب .

---

[١] فى صميم الموضوع – دراسة ص ١٥٢ ، ١٥٣ . منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٨٧م .

نشأة الموشحة

إن من يرجع إلى معاجم اللغة العربية يجد أن الموشح مأخوذ من الوشاح [١] وهو عقد ذو خطين من لآلئ وجواهر منظومة تتوشح به المرأة ، ويقال : نوب موشح : أى مزين مطرز . ومن ثم فالمادة تدور حول التزيين والتجميل والتحسين ، وكأن أصحاب الموشحات إنما نظروا إلى وشاح المرأة وما فيه من ترصيع وتجميل فشبهوا به الموشحات ، لاشتمالها على الأقفال والأبيات والأغصان التى تكسو الموشحات جمالا وحسنا ومن ثم ينكشف السر فى هذه التسمية .

والموشح لون من ألوان النظم يمتاز بالجدة والطرافة وجمال الموسيقى ، وروعة النظم ،وهو فى عرف أهل الأدب : كلام منظوم على وزن مخصوص يتألف من فقرات تسمى أغصانا هى عبارة عن أشطار أبيات شعرية بعدد معين وقافية واحدة ، ويعقب كل فقرة قفل مكون من أشطار فى نفس البحر ولكنه بقافية تلتزم فى كل الأقفال ،أماالأغصان فقوافيها قد تختلف ولكنها لاتكون إلا من نفس البحر.

يقول ابن سناء الملك [٢] :

" وهو يتألف فى الأكثرمن ستة أقفال وخمسة أبيات ويقال له التام ، وفى الأقل من خمسة أقفال وخمسة أبيات ويقال له الأقرع ، فالتام ماابتدئ فيه بالأقفال والأقرع ما ابتدئ فيه بالأبيات ..".

---

(١) انظر معاجم اللغة مادة (وشح) وانظر على وجه الخصوص : لسان العرب ، لابن منظور ، وتاج العروس ، للزبيدى .

(٢) دار الطراز فى عمل الموشحات ، تحقيق جودت الركابى ص ٢٥ .

ويرى الدكتور محمد مهدى البصير أن الموشح فن لا ضابط له ، وأن لكل شاعر مطلق الحرية فى اختيار العروض أوالأعاريض التى تعجبه لموشحته ،وفى انتخاب القافية أوالقوافى التى تروقه لها ، ثم عرف الموشح فقال[١]:

" إنه ضرب من الكلام المنظوم تتعدد أوزانه ، وتتنوع قوافيه تبعا لرغبة قائله وقدرته على التصرف فى أفانين الكلام".

ومن الواضح أن التعريف قاصر عن تحديد الغرض الذى من أجله أنشئ الموشح ، وفاته كذلك أن الوشاح وإن أعطى الحرية فى تنويع قوافى الأبيات فإنه ملتزم بتوحيد قوافى وأقفال الموشحة.

ويعرف الدكتور أحمد هيكل الموشحة فيقول[٢]:

" إنها منظومة غنائية لا تسير فى موسيقاها على المنهج التقليدى الملتزم لوحدة الوزن ورتابة القافية ، وإنما تعتمد على منهج تجريدى متحرر نوعا بحيث يتغير الوزن ، وتتعدد القافية ، ولكنه مع التزام التقابل فى الأجزاء المتماثلة ".

وعلى كل حال فالموشحة ليست عملا فنيا سهلا كما يتراءى لبعض الناس ، إذ لا بد كما قيل من وجود تكامل بين أجزائها ، ففكرتها تقوم على القوافى المنوعة ، والأوزان المتعددة ، لكن مع التقابل فى أجزائها المتماثلة.

ومن يتأمل تعريف الباحثين للموشح يلاحظ أن منهم من جعله قصيدة نظمت من أجل الغناء [٣] ، ومنهم من أخرجه من الشعر ، لأن القصيدة ما تألفت من سبعة أبيات.

---

[١] للموشح فى الأندلس وفى المشرق ص٨ طبعة دار المعارف ، بغداد ١٩٤٨م.

[٢] الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة ص ١٤٣ .

[٣] انظر كلاما للأستاذ محمد بن أبى شنب الجزائرى فى دائرة المعارف الإسلامية مادة " موشح ".

يقول ابن رشيق [١]:

" وإذا بلغت الأبيات سبعة فهى قصيدة ".

ويخرج المحبى الشامى (المتوفى سنة ١١١١هـ) الموشح من الشعر فيقول فى معرض حديثه عن الموشحات [٢]:

" وزبدة القول عنها أنها لا ريب فى كونها خارجة من الشعر ... وإنما هى داخلة فى النظم ".

وأيا ما كان الأمر فالموشحة منظومة غنائية جديدة لا تسير فى موسيقاها على المنهج التقليدى الملتزم وحدة الوزن والقافية ، وإنما تعتمد على منهج تجريدى متحرر نوعا ما بحيث يتغير -كما سبق القول- الوزن ، وتتعدد القافية.

يقول الدكتور جودت الركابى[٣]:

" مما لا شك فيه أن لحياة اللهو والمجون ولانتشار السمر والغناء فى الأندلس أثرا فى اختراع الموشح وظهوره فى تلك الأرض ذات الطبيعة الوارفة الظلال ، فالشعر الخفيف كما نعلم مادته الغناء ، فإذا كان انتشار الغناء فى الأندلس قد استدعى ظهور الموشح ، فإنه أيضا قد حدد له وزنه وحرره من قيود الشعر التقليدى ، وقوالب الأوزان المعروفة ، وعبودية القافية الموحدة ، فالنهضة الغنائية إذا كانت من دواعى ظهور هذا الفن الجديد".

فالغناء إذن هو العامل الأساسى فى ظهور الموشحات ، لأن أوزانها أحفل بالتلحين من أوزان الشعر ، والنهضة الغنائية

---

(١) العمدة : ١/ ١٨٨.

(٢) خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر: ١٠٨/١.

(٣) فى الأدب الأندلسى ص ٢٨٥.

التى كانت فى الأندلس تعد فى طليعة العوامل التى ساعدت على ظهور الموشحات.

ويقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعى[1]:

"وعندنا أن الذى نبه إلى اختراع أوزان التوشيح إنما هو الغناء لا غيره ، فإن تلحين البيت من الشعر قد يجئ على بعض الوجوه كالموشح ، إذ يخرج جملا مقطعة تتساوق مع النغم ، فلو تنبه إلى ذلك أديب موسيقى لأمكنه أن يضع أوزانا على هذه التقاطيع : وهم لا يختارون للغناء من الشعر إلا ما احتمل فى حركاته حسن التجزئة ، وصحة التقسيم ، وإجادة المقاطع والمبادئ ".

فالموشحات نشأت لرغبة غنائية فى مجتمع الأندلس الذى يحتفل بالشدو والطرب ، و" هذا الجو الغنائى الذى يتعشق الشدو والطرب مع إبداع زرياب ومن سار سيره ! حين جعل الألحان تختلف بدءا ووسطا وخاتمة فى الطول والقصر والارتفاع والانخفاض ، قد أوحى للشعراء أن يبدعوا الموشحات فيشبعوا حاجة فنية لم تكن قائمة لدى مجالس الطرب ببغداد "[2].

ونحن حين قررنا أن الذى حدا بشعراء الأندلس إلى اختراع الموشح إنما هو الغناء ، فإننا نذكر أن الشعر نفسه كان باعثه الغناء أيضا.

يقول ابن رشيق[3]:

" كان الكلام كله منثورا فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها ، وطيب أعراقها ، وذكر أيامها الصالحة ،

---

(١) تاريخ آداب العرب : ٣/١٦٠.نشر دار الكتاب العربى بيروت.

(٢) الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير ، دكتور رجب بيومى ص ٩٥.

(٣) العمدة : ١/٢٠.

وأوطانها النازحة ، وفرسانها الأنجاد ، وسمحائها الأجواد ، لتهز نفوسها إلى الكرم ، وتدل أبناءها على حسن الشيم ، فتوهموا أعاريض فعملوها موازين للكلام ، فلما تم لهم وزنه سموه شعرا لأنهم قد شعروا به أى فطنوا له ".

ويذكر الأستاذ أحمد ضيف عاملا آخر ساعد على ظهور الموشحات فيقول[١]:

" إن سبب اختراع الموشحات فى الأندلس ما تولد فى النفوس من رقة وميل إلى الخلاعة والدعابة فى الكلام ، وفى نوع التعابير ، وشعور الناس –من أدباء وشعراء– بضرورة الخروج من الأوزان القديمة المعروفة لضيق تلك الأوزان عن احتمال عبث الشعراء بالشعر حسب أهوائهم.

والعقول إذا مالت إلى التغيير مالت إلى الابتكار وحب الجديد ، فاخترعوا تلك الأوزان لتساعدهم على ما يريدون من الكلام فى بحبوحة اللهو والطرب والرقص ".

وهناك عوامل أخرى ساعدت على ظهور فن الموشحات ذكرها الدكتور إحسان عباس[٢] والدكتور أحمد أمين[٣] ، وكلها فيما أرى إنما تندرج تحت الغناء ؛ لأنها تفتقد الصلة القوية والرابط المتين الذى يربطها بالموشحات .

ونحن نعرف قوة الصلة والرابطة بين الغناء والموشحات ، فالغناء هو الذى حدا بشعراء الأندلس إلى اختراع الموشحات ، والموشحات نفسها إنما أنشئت للغناء ، يؤكد ذلك ويقويه ما ذكر من أن ناظمى الموشحات كانوا يتمسكون فى نظمهم بالتلحين وإن

---

[١] بلاغة العرب فى الأندلس ص ٢٣٠.

[٢] تاريخ الأدب الأندلسى ، عصر الطوائف والمرابطين ص ٢٢٤.

[٣] ظهر الإسلام : ١٩٨/٣.

أدى ذلك إلى فساد التعبير ، فالذى يعنيهم فى المقـــام الأول هــو تهيئة النظم للغناء ، غير مبالين بما يترتب على ذلك مــن فســاد التعبير.

يقول هبة الله بن سناء الملك فى ذلك[1]:

" والموشحات تنقسم من جهة أخرى إلى قسمين :

قسم يستقل التلحين به ولا يفتقر إلى ما يعينه عليه وهـــذا أكثرها ، وقسم لا يحتمل التلحين ولا يمشى إلا بأن يتوكـأ علــى لفظة لا معنى لها تكون دعامة للتلحين وعكازا للمغنى كقول ابــن بقى :

من طالب ثأر قتلى ظبيات الحدوج فتانات الحجيج

فإنه التلحين لا يستقيم إلا بأن يقــول : " لا لا " بيــن الجزعيــن الجيميين من هذا القفل ".

والموشحة فن أندلسى يدين فى وجوده للتربـــة الأندلســية التى امتزجت فيها اللغة العربيـــة بالعاميــة اللاتينيــة ، والأدب الرسمى بالأدب الشعبى.

ويقول الدكتور عمر الدقاق[2] :

" وما الموشح فى حقيقة أمره إلا ظـــاهرة لغويــة أدبيــة وموسيقية متكاملة أفرزتها حياة المجتمع الأندلسى الحديث ولغتــه الجديدة... ".

ويتحدث الدكتور أحمد أمين عن الموشحة فيقول[3]:

" على كل حال ابتكر الأندلسيون فن الموشحات والأزجال فى أوروبا ، وهذا يضاف إلى تأثير الأندلسيين فى الغرب ، وقــد

---

(١) دار الطراز ص ٣٧ ، ٣٨.

(٢) فى صميم الموضوع دراسة ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ١٩٨٧م ص ١٥٥.

(٣) ظهر الإسلام : ٣ /١٩٨.

دعاهم إلى ذلك ما أحسوا من ثقل القيود فى الشعر الفصيح من أوزان ووحدة قافية وقيود إعراب ، فجاءت نوبة هاجوا فيها على هذه الأوضاع كما هاج أبو نواس على بكاء الأطلال ، وقد نجحت الموشحات والأزجال لأن الناس استجابوا إليها فى حماسة ، إذ رأوها تعفيهم من القيود وتحررهم من التزام قافية واحدة ، وتسمح لهم باستعمال الكلمات العامية الظريفة وتحررهم من قيود الإعراب ".

ويقرر أغلب الباحثين أن الفضل فى ظهورها إنما يرجع إلى أديب أندلسى يدعى مقدم بن معافى القبرى الفريدى من شعراء الأميرعبد الله بن محمد المروانى ، وأخذ عنه ذلك أبوعمر أحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد .

يقول ابن خلدون فى مقدمته بعد حديثه عن الموشحات[١]:

" وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدم بن معافر القبرى من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى ، وأخذ ذلك عنه أبو عبد الله بن عبد ربه صاحب كتاب العقد ، ولم يظهر لها مع المتأخرين ذكر ، وكسدت موشحاتهما فكان أول من برع فى هذا الشأن عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية ، وقد ذكر الأعلم البطليوسى أنه سمع أبا بكر بن زهر يقول :" كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز ".

وهناك من ينسبها إلى محمد بن محمود (حمود) القبرى[٢].

ويقول ابن دحية [٣]:

---

[١] مقدمة ابن خلدون ، طبعة مصطفى محمد ص ٥٨٤ .

[٢] الذخيرة لابن بسام : ق ١ ج ١ تحقيق د/ إحسان عباس ص ٤٦٩.

[٣] المطرب ، تحقيق الإبيارى وآخرين ص ٢٠٤.

".. الموشحات وهى زبدة الشـــعر ، وخلاصـــة جوهـــره وصفوته ، وهى من الفنون التى أغربت بها أهل المغرب علـــى أهل المشـــرق ، وظهروا فيها كالشــــمس الطالعـــة والضيـــاء المشرق ".

ويقول أبو الحسن على بن بسام فى ترجمة أبى بكر عبـادة ابن ماء السماء[١] :

" وكانت صنعة التوشيح التى نهج أهل الأندلس طريقتـها ، ووضعوا حقيقتها، غير مرموقة البرود ، ولامنظومة العقود ، فأقام عبادة هذا منادها ، وقوم ميلها وســـنادها ، فكأنـــها لـــم تســـمع بالأندلس إلا منه ،ولاأخذت إلا عنه، واشتهر بها اشتهارا غلـــب على ذاته ،وذهب بكثير من حسناته .."

ويقول ابن خلدون أيضا[٢]:

" وأما أهل الأندلس ، فلما كثر الشـــعر فـــى قطرهـــم ، وتهذبت مناحيه وفنونه ، وبلغ التنميـــق فيـــه الغايـــة اســـتحدث المتأخرون منهم فنا سموه بالموشح ".

ولم تتفق كلمة أصحـــاب الاتجـــاه الغربـــى فـــى نشـــأة الموشحات، إذ اختلفوا فيمـــا بينـــهم ،حتـــى زعـــم بعضـــهم أن الموشحات ذات نشأة أسبانية لاأندلسية ، وهذا الرأى نطقت بـــه عبارة غرسيه غومس[٣] :

" قد قدمت أسبانيا للإسلام فنها الشعرى الخاص بها وهو فن الأزجال والموشحات التى درسها " خليان ريبيرا " .

---

(١) الذخيرة ، تحقيق لجنة من كلية الآداب : ١/ ٢ ص ١ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة .

(٢) المقدمة ص ١١٣٧.

(٣) انظر تاريخ الفكر الأندلسى ص١٥٤ . بالنثيا ١٩٥٥م.

فالمستشرق الأسبانى " ريبيرا " يرى أن الموشحات ما هى إلا تقليد من عرب الأندلس لأغان أعجمية كانوا يسمعونها ويتغنون بها محاولين تقليدها أو تعريبها فجاءت الموشحات ..".

إننا لا نستطيع أن نقبل كل تلك الآراء التى ينفس أصحابها على أهل الأندلس أن يكونوا سابقين إلى فن التوشيح ، وأيا ما كان الأمر فإن كثيرا من الأعلام الثقات يؤكدون أن الموشحات أندلسية النشأة ، وينسبون اختراعها إلى شعراء أندلسيين[1] ، وعلى هذا الرأى جاءت أكثر آراء النقاد والباحثين فى العصر الحديث [2].

وهناك من الباحثين من أعلن صراحة أن الموشحة مشرقية النشأة ، ومن هؤلاء الأستاذ بطرس البستانى ، حيث يقول[3]:

" ولابد من القول إن الخروج على نظام الشعر ظهر عند المشارقة فى صدر الدولة العباسية ، فإن بعض الشعراء أخذوا ينظمون الفنون العلمية ، والقصص الطويلة ،مزدوجات... ونظموا أيضا المسمطات والمخمسات كما فعل قطرب فى مثلثاته ، غير أن فحول الشعراء تحاموا هذه الأنواع ، ورأوا فيها عجزا وضيقا ،وآثروا التزام القافية الواحدة إلا بشارا وابن المعتز ،فقد ذكر ابن رشيق أن الأول كان يصنع المخمسات

---

(١) انظر نفح الطيب :٢/١٢٣. ودار الطراز تحقيق الركابى ص٢٣ وخلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر : ١/ ١٠٨ .

(٢) من أمثال : الأستاذ / أحمد ضيف ، والأستاذ أحمد أمين ، والدكتور شوقى ضيف ، والدكتور محمد غنيمى هلال ،والدكتور أحمد هيكل ، والدكتور جودت الركابى ، والدكتور إحسان عباس ،والدكتور طه الراوى .

(٣) أدباء العرب فى الأندلس وعصر الانبعاث ص٧٨ بيروت ١٩٣٧ م .

والمزدوجات عبثا بالشعر ، وأما الثانى فصنع مزدوجة فى ذم الصبوح ... وسرى فن المسمطات من الشرق إلى الغرب كما سرى غيره من الفنون والعلوم ، فنظم فيه شعراء الأندلس " .

ومنهم كذلك الدكتور شوقى ضيف حيث يقول[١]:

" إن العباسيين قد سبقوا الأندلسيين إذ أوشكوا أن يغيروا صورة "الرقم الموسيقية " القديمة تغييرا تاما " .

وتبعهما فى ذلك الدكتور أحمد كمال زكى [٢].

وهناك من نسبها إلى العراق ، ونسب اختراعها إلى الشاعر العباسى عبد الله بن المعتز[٣] ، ولعل مبررهم فى ذلك أنهم وجدوا فى ديوان ابن المعتز المطبوع موشحة مطلعها :

أيها الساقى إليك المشتكى   قد دعوناك وإن لم تسمع

يقول الأستاذ كامل كيلانى [٤]:

" وقد أنشأ ابن المعتز تلك الموشحة الفذة فى القرن الثالث أى فى نفس القرن الذى اخترع فيه مقدم بن معافى موشحاته فى الأندلس " .

" .. ولعل أغرب ما نذكره بهذه المناسبة إغفال مؤرخى الأدب جميعا ذكر هذه الموشحة التى قالها ابن المعتز كأن هذا الحدث الجلل ... أقل خطرا من اهتمام ابن المعتز بالمحسنات البديعية " .

ويقول الدكتور صفاء خلوصى عن الموشح[٥] :

---

[١] الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ٤٥٠ دار المعارف بمصر ١٩٦٠ م.

[٢] انظر الرسالة عدد ١٠٩٢ فى ١٧ ديسمبر ١٩٦٤ ص ٢٦ .

[٣] . على رأس هؤلاء الأستاذ كامل كيلانى ، والدكتور صفاء خلوصى .

[٤] نظرات فى تاريخ الأدب الأندلسى ص٢٢٧ . طبعة القاهرة ١٩٢٤ م .

[٥] فن التقطيع الشعرى والقافية ص ٣٠٢ . نشر مكتبة المثنى بغداد ط ٥ عام ١٩٧٧ م .

"ونحن ممن يعتقدون بأنه فن نشأ فى المشرق ولكنه تطور فى المغرب ...وباعتقادنا أنه ظهر أول ما ظهر فى العراق ، وهو لا يزال مظهرا رائعا من مظاهر الشاعرية الحقة عند العراقيين ، وأول موشحة فى تاريخ الأدب العربى هى موشحة (أيها الساقى ..) وفيها كما يرى الفاحص المدقق نفس أمير وإبداع رجل متفنن ، ولسنا نستنكر نسبة هذه الموشحة الجميلة لابن المعتز وهو الذى وضع أسس علم البديع وقواعده فهو أهل لكل إبداع " .

على أن هناك من الباحثين العراقيين (أمثال الأستاذ طه الراوى) من ينفى نسبة هذه الموشحة إلى ابن المعتز يقول[1] :

"ولاأدرى أى شيطان رسول لبعض المتأخرين أن ينسب الموشحة إلى عبد الله بن المعتز ..مع أن ابن المعتز نفسه لايعرف شيئا عن الموشحات ، ولاعهد لأهل زمانه بشىء منها .. كما أنه لم يشر ولم يومئ إلى هذا الضرب من ضروب الشعر فى كتابه الذى ألفه فى البديع ، ولو كان لهذا النوع من أثر فى زمانه لفسح به الصدر من كتابه ، ولأوسع فيه الشرح والإيضاح والتنويع والتفريع ، ولوكان من المتعذر أن يخفى على أساطين المؤرخين من أضراب ابن خلدون والمقرى وغيرهما ،ويرى أنهما من نظم ابن زهر الإيادى الأندلسى .. ولعمرى إن ابن زهر ليس بخفى الشأن بحيث يسوغ لمتأدب أن يختلس ثمار أفكاره فيلصقها بغيره ، كما أن ابن المعتز أشهر وأظهر من أن تخفى بدائع لبه على ياقوت ، وابن أبى أحيبة ، وابن خلدون ، والمقرى ، وأضرابهم من المحققين المؤرخين " .

---

[1] مجلة الرسالة العدد ٤٥٩ لسنة ١٩٤٢ م .

وعلى هذا فليس صحيحا ما قيل من أن ابن المعتز العباسى هو مخترع الموشحات اعتمادا على وجود موشحة منسوبة إليه فى ديوانه ظنها بعض الباحثين من تأليفه .

وهذا الزعم لايستند حقيقة إلى واقع من أدب أوتاريخ ، وذلك " لأن نظام الموشحات لم يعرف بالأدب العباسى فى زمن ابن المعتز ، ولو عرف لتناولته الكتب وخلدته المؤلفات،وعارضه الشعراء ،ولو كان ابن المعتز وشاحا لذكر مترجموه ذلك عنه ، ولكتب هو بنفسه عن هذا اللون فى مؤلفه عن البديع الذى جمع فيه ماهو أهون من الموشحات بكثير " [1].

وهذه هى الموشحة التى اعتمد عليها الذين نسبوها إلى ابن المعتز ، مع أننا نرجح نسبتها لابن زهر الأندلسى [2]:

أيها الساقى إليك المشتكى   كم دعوناك وإن لم تسمع

ونديم همت فى غرته

وسقانى الراح من راحته

كلما استيقظ من سكرته

جذب الزق إليه واتكا   وسقانى أربعا فى أربع

غصن بان مال من حيث استوى

بات من يهواه من خوف النوى

خافق الأحشاء مضعوف القوى

كلما فكر فى البين بكى   ياله يبكى لما لم يقع

أيها المعرض عما أصف

تعرف الذنب ولا تعترف

كبد حرى ودمع يكف

---

(1) . الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير ،د / رجب البيومى ص ١٠٩ .

(2) انظرها فى المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق د/ شوقى ضيف : ١/٢٧٢-٢٧٣.ودار الطراز ص ٧٣. ومعجم الأدباء : ٢١٩/١٨.

مثل حالى حقه أن يشتكـى كمـد اليـأس وذل الطمـع

مالعينى شقيـت بالنظـر

أنكرت بعدك ضوء القمـر

فإذا ما شئت فاسمع خبرى

عشيت عيناى من طول البكا وبكى بعضى على بعضى معى

قد برانى فى هواك الكمد

يالقومى عذلوا واجتهدوا

أنكروا شكواى مما أجـد

قد نما حبك عنـدى وزكـا لايظـن الحـب أنـى مدعى

والحقيقة أن الموشحة متكاملة وذات قيمـة فنيـة عاليـة تضعها فى مصاف الموشحات الأندلسية إبان ازدهارها وتطورها ولكننا لانجد من القدامى الثقات من ينسبها إلى ابن المعتز .

وعلى هذا فلمن تكون الموشحة ؟

والجواب أن أكثر الباحثين الذين يوثق بهم ويطمأن إلـى قولهم قد نسبوها [١] إلى أبى بكر محمـد بـن زهـر الإشـبيلى المتوفى عام ٥٩٥ هـ " الوشاح " الأندلسى ، لورودها منسـوبة إليه فى كثير من المصادر ، ولأنه لم يشر أحد ممن أرخوا لابـن المعتز أنه كان وشاحا ، كما أن الموشحة لم تنتشر فى المشـرق إلا بعد ظهورها فى الأندلس بنحو ثلاثة قرون [٢] .

ولعل الذين نسبوا الموشحة السابقة إلى ابن المعـتز إنمـا كانوا يحاولون سلب الأندلسيين هذا الاختراع ، وكأنهم يـأبون إلا

---

[١] انظر معجم الأدباء لياقوت الحموى : ١٨ / ٢١٩ . مطبعة دار المأمون ، وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة : ٢ / ٧٢ .والمغرب لعلى بن سعيد المغربى : ١ / ٢٧٢ . والوافى بالوفيات للصفدى : ٤ / ٤٠ .

[٢] الأدب الأندلسى ، دكتور أحمد هيكل ص ١٤٦ .

أن يستحسنوا أصولا مشرقية لكل ما هو طريف أو غير طريـــف فى الأندلس ، على الرغم من أن المؤرخين أكـــدوا نسـبة هــذا الاختراع إليهم ، وأكدوا كذلك سبقهم إليه ، حتى قال ابن ســـناء الملك :

" وبعد فإن الموشحات مما ترك الأول للآخر ، وسبق بـها المتأخر المتقدم ، وأجلب أهل المغرب علــى أهــل المشــرق ، وصار المغرب بها مشرقا ، لشروقها فى أفقــه وإشــراقها فــى جوه".

وها هو ذا المؤرخ الحجة ابن بسام الشنتريني ، نراه مــع غضه من قيمة الموشحات [١] يقول [٢] :

" إن أهل الأندلس هم الذين نــهجوا طريقــها ووضعــوا حقيقتها " .

ويقول الدكتور جودت الركابى [٣] :

" ليس من الواجب على الرغــم مــن عجبنــا أن نعتقــد بضرورة وجود مخترع واحد لفن متعدد المنابع كالموشح ، هــذا الفن الذى أسهم فى تكوينه عــدد مــن المؤثــرات الاجتماعيــة والإقليمية والأدبية والغنائية ، وإننا لنجد طبيعيا ألا يكون ظــهوره قد بدأ فجاءة ، بل لابد فى بادئ الأمر من محاولات مختلفة تظهر على ألسنة عدد من الشعراء شأنه فى ذلك شأن كثير من الفنـــون

---

(١) الذخيرة ق ١ م ٢ ص ٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ١ .

(٣) فى الأدب الأندلسى ص ٢٨٩ .

الجديدة التى تتعثر فى فاتحة عهدها ثم لا تلبث أن تجد معالمها الواضحة وأسسها الجلية على يد من مارسها واهتم بها ووجد فيها هواه ومبتغاه " .

ومما تقدم يتضح أن بعض مؤرخى الأدب يرى أن فن الموشحات التى يغلب فى الظن أنها اختراع أندلسى إنما هى من قبيل الأوزان الخفيفة التى عرفت قبل فى المشرق ،كالمزدوجات ، والمسمطات ، والرباعيات ، والخماسيات .

وهناك فريق آخر يرى أن الموشحات قد نشأت فى الأندلس بإجماع كل من أرخ للأدب الأندلسى من القدامى ابتداء بابن بسام فى الذخيرة وانتهاء بالمقرى فى نفح الطيب .

حقيقة نحن لا ننكر وجود المزدوج والمخمس والمسمط عند العباسيين ، لأن أغلب الظن أنه وجد لدى المشارقة ،لكنه لم يتخذ هذا المصطلح الذى شاع فيما بعد إلا على يد الأندلسيين[١] ، الذين برزوا فيه وبذوا المشارقة .

وقد نشأ هذا الفن فى الأدب العربى الأندلسى فى أواخر القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) وفيه خروج على نظام القافية الموحدة فى القصيدة العربية الرتيبة ،وقد نظم فى البحور العربية القديمة مع التحرر من القافية ، ثم ما لبث أن نظم فى بحور أخرى تألفها الأذواق ولكن لا عهد للعربية بها .

وكانت الموشحات ذات طابع شعبى ، وكثيرا ما كان يشوبها بعض ألفاظ عامية مما يقطع بنشأتها ، والأشعار فيها

---

(١) انظر الأدب الأندلسى موضوعاته وفنونه ، د/ مصطفى الشكعة ص ٣٧٣ . دار العلم للملايين ،بيروت الطبعة السادسة ١٩٨٦ م .

طابعها غنائى ، وأهم ماينظم فيها من أغراض غنائية هوالغـــزل الذى يخضع فيه الرجل لسلطان الحب .

فالموشحات الأندلسية بنيت فى الأصل على أغنيات شـــعبية أندلسية ، واستوحت معانيها وتنوعها ، وهذا يؤكد أن اختراعـــها كان نتيجة لحياة الترف والطرب واللهو ، لأن الموشح يلائم ذلـك ،فهو فى كل الأحوال تجديد فى شكل الشـــعر العربـــى لا فـــى مضمونه ، وقد أدى اهتمام الأندلسيين بالموشح وكثرة الوشـاحين إلى إغراقهم فى ذلك الفن ، وإلى كثرة أنماط الموشح عندهـــم ، حتى تحول إلى صناعة لفظية[١] .

والموشحة بصورتها التى وصلت إلينا [٢] ، قد بنيت فـــى الأصل على أغنيات شعبية أندلسية ، فهى تلبـــى حاجـــة الغنـــاء الرسمى ، أما الزجل فإنه يلبى حاجة الغناء الشعبى ، كما كـــان الحال عند ابن قزمان إمام الزجالين بالأندلس ،والذى كان ينظـــم الشعر المعرب ،لكنه لما رأى نفسه دون شعراء عصـــره كـــابن خفاجة وغيره عمد إلى لون لايمازجه فيه أحد منهم فصار إمـــام هذا الزجل المنظوم بكلام عامة الأندلس[٣] ، والزجل المنســـوب إليه لا يكاد يفهم لاعتماده على عامية الأندلس فى حينه ، وهـــى عامية تستمد مفرداتها من العامية الأسبانية الممتزجـــة بالعاميـــة العربية .

---

[١]. انظر فن التوشيح لمصطفى عوض الكريم .

[٢] انظر موشحة لسان الدين بن الخطيب .

[٣] انظر المغرب فى حلى المغرب : ١ / ١٠٠ ، ١٦٧ .

وعلى كل حال فقد أخذ هذا الفن الجديد يزدهر ، وظـــهر شعراء وشاحون على جانب كبير من العبقرية[١] ، وظهرت فـــى كتب الشعراء والتراجم التى تتحـــدث عـــن الأندلســـيين بعـــض الإشارات التى تشير إلى أصول وقواعد هذا الفن [٢] ، بل إن هذا الفن قد انتقل إلى الشرق على يد الشاعر المصرى ابـــن ســـناء الملك[٣].

ومن الذين برعوا فى الموشحات عبادة بن مـــاء الســـماء (المتوفى عام ٤٢٢هـ) وتبدأ بموشحاته مرحلة الظهور الفعلـــى للموشحات ، بل إنه يسمى المصطلح الذى على يديه اكتمل هـــذا الشكل العربى[٤] ، وقد قيل عنه إنه إمام الوشاحين ، وقد استطاع أن ينشر الموشحات فى الأندلس ، ولاعجب فى ذلك فهو المؤلـف الفعلى لفن الموشحات فى العصر الأموى ، وهو الذى أقام بنيـــان الموشحات ، وأرقص موسيقاها ، وهيأها للغناء.

يقول ابن بسام[٥]:

" وكان أبو بكر فى ذلك العصر شيخ الصناعـــة ، وإمـــام الجماعة سلك إلى الشعر مسلكا سهلا ، فقالت له غرائبه مرحبـــا وأهلا.وكانت صنعة التوشيح التى نهج أهل الأندلس طريقتـــها ، ورصعوا حقيقتها غير مرموقة البرود ولا منظومة العقود فأقـــام عبادة هذا منادها ، وقوم ميلها وسنادها ، فكأنها لم تسمع إلا منـــه

---

[١] انظر فى الأدب الأندلسى ، الدكتور جودت الركابى ص ٢٩٠.

[٢] انظر الذخيرة لابن بسام ، ونفح الطيب للمقرى.

[٣] انظر فى الأدب الأندلسى ، دكتور جودت الركابى ص ٢٩١.

[٤] الشعر العربى فى الأندلس ، للمستشرق الروسى كرتشكو فسكى ص ٦٧.

[٥] الذخيرة ق ١ م ١ تحقيق الدكتور إحسان عباس ص ٤٦٩.بيروت.

، ولا أخذت إلا عنه ، واشتهر بها اشتهارا غلب علـــى ذاتــه ، وذهب بكثير من حسناته ".

ثم جاء بعده مجموعة مـــن الوشـــاحين الأندلســـيين مـــن أشهرهم : يحيى بن بقى ، والأعمى التطيلى ، وأبو بكر بن زهـــو ، وأبو بكر بن باجة ، وابن سهل ، ولسان الدين الخطيب .

والملفت للنظر أن فن الموشحات قد ذاع وانتشر فى عـــهد ملوك الطوائف ، حتى اتجه إليه النساء ، وتفوقن فى نظمه ، مـــن أمثال : أم الكرم بنت صمادح ، وقد حكى أن المعتصم كان قـــد عنى بتأديبها ، لما رآه مـــن ذكائـــها ، حتـــى نظمـــت الشـــعر والموشحات[١].

وقد تناول هؤلاء الوشاحون فى موشحاتهم أغراض الشعر العربى المشهورة من مدح ، ووصف ، وغزل ، وهجاء ، ورثاء ، وزهد.ولكن أكثر الموشحات جاءت فى الغزل واللهو ووصـــف الطبيعة ، لأن الموشحات إنما اخترعت فى الأصل علـــى ســـبيل الغناء ، ولوصف حياة الأندلس والدعة والهناء ، وهذه الأغراض هى التى تناسب هذا الفن.

أما عن أوزان الموشحات فيمكن القول إن الموشحات قـــد تأتى على أوزان الشعر المعروفة ، وقد تخالف أوزان العرب فلا تخضع لعروض الشعر التقليدى .

والقسم الأول لا يلقى قبولا لدى شعراء الموشحات ، بـــل يعدونه مرذولا لا يقدم على نظمـــه إلا الضعفـــاء مـــن شـــعراء الموشحات ، وفى نظرهم أن هذا اللون أشبه بالمخمســـات منـــه من الموشحات ، إلا إذا اختلفت قوافى قفله فحينئذ يخـــرج عـــن

---

(١) المغرب فى حلى المغرب : ٢/٢٠٢.

المخمسات ، كقول ابن زهر فى موشحته التى هـــى مـــن بحـــر الرمل :

أيها الساقى إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع

أما القسم الثانى الذى لا يخضع لأوزان العرب فهو الشائع الذى لا ينحصر.

وجوه شبه:

والحقيقة أننا إذا صرفنا النظر عن الخلاف الذى نشأ حول أسبقية الموشح للزجل فى النشأة الزمنية[١] فإننا يمكننا أن نقـــول إن من المسلمات أن هناك علاقة وثيقة بين الزجـــل والموشـــح ، وأن الموشح كالزجل فى الأدب الأندلسى ، لم يأخذ طابعا خاصـــا به يميزه عن الزجل.

وهناك وجوه شبه[٢] واضحة كل الوضوح بيـــن الزجـــل الأندلسى ، العربى المنبع ، وشعر "التروبادور"[٣] الوليد الأوربـــى أو الهجين العربى ، الوفير الملامح ، التى تصله بأصله العربـــى من حيث الأوزان والقوافى التى لم تكن تلتزم قبل ذلك فى الشـــعر الأندلسى الأسبانى ، والتى ذهب البعض إلى أن ظهور القافية فى الشعر الأوربى إنما هو أثر من آثار الشعر العربى[٤].

---

[١] انظر مقدمة ابن خلدون ص ٥٣٤ . طبعة مصطفى محمد .

[٢] انظر الأدب المقارن ، دكتور محمد غنيمى هلال ص ٢٦٣ . دار نهضة مصر ، الطبعة الثالثة .

[٣] إن. كلمة تروبادور مركبة من كلمتين أولاهما كلمة (تروب) ومعناها الأسبانى فرقة ، يراد بها فرقـــة غنـــائية ، وثانيتها كلمة (دور) وهى عربية واضحة (الأدب الأندلســـى بين التـــأثر والتأثـــير ص ١١٥) والتروبادور هم شعراء العصور الوسطى الأوربية الذين وجدوا فى أواخر القرن الحادى عشر الميـــلادى فى جنوب فرنسا أولا ، ثم أثروا بشعرهم وما يحتوى من نواح فنية ومعان فى الشعر الأوربى كله حتى القـــرن الرابع عشر الميلادى . (الأدب المقارن ، دكتور محمد غنيمى هلال ص ٢٦٣) .

[٤] انظر الأدب العربى فى موكب الحضارة ، دكتور مصطفى الشكعة .

والحق أن أوجه الشبه هذه موجودة فى أكثر من جهـــة ، موجودة فى الشكل الخارجى ، وموجودة فى المضمون الداخلى ، وموجودة فى الثابت من وقائع التاريخ للأشخاص[١]

وقد قرر الأستاذ عمر الدسوقى أثر شعرنا العربـــى فـــى الشعر الأوربى من حيث المضمون أو ما يتصل به عندما قال[٢]:

" لا أدل على تأثر فرسان أوربا ... بالفتوة العربيـــة مـــن شيوع ظاهرة غريبة تميزت بها الفروسية الغربية فـــى طورهـــا الأخير أى بعد أن اشتد اختلاط هؤلاء الفرســـان بـــالعرب إبـــان الحروب الصليبية و فى أسبانيا ، وفى وسط فرنســا وجنوبـــها ، تلك الظاهرة هى اقتران الشعر بالفروسية...وصار لزاما على كل الفرسان صغارا أو كبارا أن يقولوا الشعر ومن لـــم يســتطع أن يقرض الشعر بنفسه ليتغنى بحبه ، ويفصح عن لواعج قلبه أنشـــد شعر سواه .

وهذه الظاهرة ولا ريب لم تشع بينهم إلا لتـــأثرهم البـــالغ بتقاليد الفروسية العربية ، فقلما نجد فارسا عربيا لا يقول الشـــعر ولا يتغنى بحبه ، وكذلك كان شـــعراء (التروبـــادور) وكـــانوا يغشون قصور الملوك والأمراء كما فعل العرب من قبل ".

ويتابع الأستاذ الدسوقى كلامه فيربط بين تباهى الشـــاعر الفارس من شعراء التروبادور بمحبوبته وما يصدر من الشـــاعر العربى الغزل تجاه محبوبته فيقول[٣]:

" إن وصف المرأة فى شعر التروبادور كبير الشـــبه بمـــا جاء فى الشعر العربى فهى فى كليهما نضرة كورد الربيع .. لـــها

---

[١] انظر الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير ، د/ رجب بيومى ص ١١١وما بعدها.

[٢] الفتوة عند العرب ، ط ٤ ص ٢٨٧ .

[٣] المرجع نفسه ص ٢٩٢ .

خصر رقيق ، وقد رشيق ، وصدر ملئ ، ويد رخصة بيضاء ...وهكذا " .

ثم يؤكد ارتكاز الشعر الأوربى على شعرنا العربى شكلا ومضمونا ، ويقول فى ختام كلامه [١] :

" وحسبك أن تعلم أن كلمة تروبادور مأخوذة من كلمة طرب أى غنى وإن كان بعضهم يقول : إنها مأخوذ من كلمة Trouver بمعنى "وجد" ولعلك تعلم أن وجد من معانيها فى العربية عشق من الوجد وهو الهيام وشدة العشق " .

ولعل الذى دعانا إلى ذكر ذلك هو أن نؤكد أن الموشحات قد بنيت فى الأصل على أغنيات شعبية ، إذ كان شعراء التروبادور يطوفون بأنحاء أوربا خلال القرون الأخيرة من العصر الوسيط ، فينشدون الناس منظوماتهم الغنائية التى جلبوا بعضها من بلاد الأندلس ، ونظموا البعض الآخر على غرارها ، وكانوا يعيشون فى بلاط الملوك وقصور الأمراء ، ويتغنون بالحب والمروءة على نحو يعبر فيه المحب عن سلطان محبوبه عليه ، ويعترف فيه العاشق بهيامه وتفانيه ، ويرسل عبارات الشوق والإجلال لمحبوبته الحسناء فى خشوع وتذلل ، لأنها سر حياته ، وهى مالكة قلبه وفؤاده .

ولفن الموشح والزجل موسيقاه الغنائية الشعبية التى تأثر بها شعراء التروبادور ، ونقلوا فنها معهم فى تجوالهم من الأندلس إلى جنوب فرنسا والذى لم يلبث أن عم سائر بقاع فرنسا ثم أوربا بأسرها ، نقلوه معهم إلى حيث حلوا فى ارتحالاتهم

---

[١] المرجع نفسه ص ٢٩٤ .

وتجوالهم فى أوربا ، يمتدحون الملوك والأمراء ، ويتغزلـــون ، مما يؤكد أن الواقع التاريخى يثبت هذا التأثير وينطق به .

دليل ذلك أن أقدم شعراء التروبادور وهو "جيوم التاســع" قد اشترك فى الحروب الصليبية ، ورحل الى المشــــرق وأقـــام بالشام ، وهناك تعلم العربية وألف فيها [١] ، وقد سافر إلى أسبانيا أكثر من مرة ، ومن المعلوم أنه كتب أشعاره ما بين عــام ١١٠٠ وعام ١١٢٧ ميلادية ، وفى أشعاره خصائص فنية تثبت تـــأثره بالشعر العربى ، وتؤكد تأثره بموشحات الأندلس وأزجالها .

بل إن قصائده الأخيرة لتثبت هذا بوضوح ، ذلــك لأنـــها تتفق فى مضمونها مع الشعر العربى الغزلى فهو يقتدى بكل مـــن الموشحات والزجل فى الموضوع ، فضلا عن الشكل والـــتركيب الموسيقى .

أما عن أوجه الشبه الشكلية فإن غناء التروبادور " قد اتخـذ مظهر الموشحات والأزجال ، فمتوسط المقطوعات فى أشــعارهم سبع ، وهو العدد الغالب فى الموشحة والزجل ! ولكل مقطوعـــة ما لكل موشحة من الأقفال والأغصان والقوافى على نحو لم يعهد من قبل فى الشعر اللاتينى ! وقد تخلو مقطوعـــة مـــن المطلـــع أوالمركز كما تخلو بعض الموشحات أيضا !!

ونظام الخرجة فى أشعار التروبادور كنظامه فى الموشـــح والزجل ، وله عندهم من الأهمية والاحتفاء ماله فـــى الموشـــحة سواء بسواء ، ثم إن مجموع الغصن مع القفل يسمى بيتـــا عنـــد التروبادور وهو كذلك فى الموشحات والأزجال " [٢].

---

[١] . انظر الإسلام والغرب فى الأندلس ، للمستشرق بروفنسال ، ترجمة السيد سالم وصلاح حلمى ص٢٩٦ . الطبعة الأولى .

[٢] الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير ، د / رجب البيومى ص ١١٦ .

ويذهب بعض المستشرقين إلى أن ظهور شعراء التروبادور فى أوربا لم يكن محض مصادفة ، وإنما استمد أصوله من الزجل الأندلسى العربى [١] ، كما ينص البعض على أن الجدة التى اتسم بها شعرهم ليست فى الموضوعات الجديدة التىطرقها فحسب ، وإنما فى طريق صياغته أيضا ،فهم يتغنون بالحب على نحو يخضع فيه المحب لحبيبه ، ...والعشق الذى يشكل موضوع الشعر عندهم يمتاز بقوة الخيال والعفة ،والتغنى بالزوجة المثالية ، وهى أمور لم تعرفها أوربا فى العصور الوسطى [٢] .

ويذكر" دانتى" صاحب " الكوميديا الإلهية " أن الشعر الذى ولد فى إيطاليا لم يكن الفضل فيه للإيطاليين ، وإنما كان الفضل لعرب الأندلس الذين سادوا جزيرة صقلية مدة طويلة ، ونشروا فيها اللغة العربية والحضارة الإسلامية ،ولمع فى سمائها الشعر العربى ، وكان على رأس هؤلاء الشعراء البارعين الشاعر ابن حمديس الصقلى [٣] .

ولم يتوقف تأثير الشعر العربى فى الأشعار الأوربية عند هذا الحد ، فكثير من الآثار الشعرية التى عرفت فى أوربا توجد بينها وبين الشعر العربى الذى اشتهر به عرب الأندلس وجوه شبه كثيرة فى النواحى الفنية وناحية المضمون معا .

أما عن التشابه فى المضمون " فإن أخيلة الشعر العربى ومعانيه التى احتضنتها الموشحات والأزجال قد انتقلت هى الأخرى فى غزل التروبادور ، فالرقيب والعازل والواشى ،ونشأة

---

[١] تراجع مقالات الدكتور حسين مؤنس بمجلة الثقافة سنة ١٩٤٦ م .

[٢] انظر الأدب العربى فى موكب الحضارة ، د / مصطفى الشكعة ص ١٦٢ .

[٣] انظر المصدر نفسه ص ١٦٣ .

الحب من أول نظرة ،والتهالك على استرضاء الحبيب ،وحـــلاوة الوصل ،ولذاته ، وقسوة الهجر وفظاعتـــه ! وصلـف الحبيبـة وكبرياؤهـا ، وقســوة فؤادهــا وتثاقلــها المـــترفع وإباؤهـــا الشموخ،وحيل الرقباء ، وملامة العـــاذلين ، وذهــول العاشــق وشروده وإقباله على الحديث عن حبيبه ...كل ذلـــك قــد وجــه شبيهه فى شعر هؤلاء !! وهى عواطف لم تكن ذائعة فى غـــزل اللاتين ،ولن يقول قائل إن الإحساس بالحب عاطفـــة مشـــتركة ! فالحب متعدد الألوان والأفانين ،وظهوره لدى التروبادور فى لون الأزجال والموشحات يوحى بتأثره الصريح !هذا بالإضافة إلـــى قصائد العرب الأخرى غير الموشحات كمقطوعات جماعة الحب العذرى بالمشرق ،وقد كانت مشتهرة متعارفة لدى أدباء الأندلس!

وكالكتب الخاصة بالصبابة العربية مـــن مثـل الزهــرة والحدائق وطوق الحمامة ! هذه الأزجـــال والموشــحات وتلــك القصائد العذرية ! مع الكتب العاطفية المشار إليها قـــد ألـــهمت شعراء التروبادور اتجاههم النفسى ، وجعلت للمرأة فى نفوســـهم من الرفعة والإجلال ما نطقت به أشعارهم الذائعة فجاءت ناطقــة بالاحتذاء والتشرب ! " [١].

وقد أكد سيديو قائلا[٢] :

" إن كثيرا من القصص التى عرفت فى الأدب الأســـبانى حول الأعياد وصراع الثيران ، وحروب المسلمين والنصـــارى ، والتفاخر ورقص الفرسان ، والتشبيب والغزل ، كل ذلـــك أثــر عربى مما اشتهر به عرب الأندلس فى أوربا ".

---

[١] الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير : د / رجب البيومى ص ١١٦ ، ١١٧ .

[٢] حضارة العرب ،جوستاف لوبون ،ترجمة عادل زعيتر ص ٤٤٩ . مطبعة الحلبى ، الطبعة الثانية .

وفى ضوء هذا الكلام فإننا ننظر إلى ما ذكـره الدكتـور محمد غنيمى هلال عن وجـوه الشـبه الكبـيرة بيـن أشـعار "التروبادور" والموشحات والأزجال ، فهذا التشابه أوضـح مـا يكون ، وهو وحده يكفى لأن يكون دليلا أكيـدا لثبـوت التـأثير العربى .

وقد أحصى الدكتور محمد غنيمى هلال فى هذا المجـال وجوه تشابه بين أشعار " التروبادور " والموشـحات والأزجـال الأندلسية فى النواحى الفنية وناحية المضمون [١] ، وعلـى هـذا فإن " تأثير الأزجال والموشحات فى شعراء التروبادور واضـح يـرى بالعيـن ويلمـس باليـد ،علـى الرغـم مـن مكـابرة المكابرين "[٢].

ولا نحب أن نختم هذا الموضوع دون أن نعلن للقـارئ أن تأثير شعراء التروبادور بآثار الأندلس قد تجاوز المجال الأدبـى إلى أسلوب الحياة .

يقول الدكتور محمد رجب البيومى [٣]:

"ومما يدهش حقا فى مجـال المقارنـة اقتفـاء شـعراء التروبادور آثار الأندلس شبرا بشبر ! حتى فيما يسـتغرب فيـه الاقتفاء ويستبعد ، فقد اتجه الزجل الصوفى على يد "الششـترى" من الموضوعات الدنيوية إلى الآفاق العلويـة ، فـانطلق يمجـد الخالق الأعظم ، كما سبقت موشحات ابن عربى الصوفى الذائـع الصيت إلى هذا الضرب من الهيام الروحى ! فظهرت آثار ذلـك كله فى شعر التروبادور ؛ إذ أصدر الأديب المسيحى رامون لول

---

[١] انظر الأدب المقارن ص ٢٦٤ وما بعدها .

[٢] الأدب الأندلسى بين التأثر والتأثير ، د / رجب بيومى ص ١١١ .

[٣] المصدر نفسه ص ١٢٢ ،١٢٣ .

وكان يعرف العربية معرفة جيدة مناجاته الإلهيـــة فـــى رســـائل المحب والمحبوب ! بل إن تقليد التروبادور للأندلس لم يقف عنــد المجال الأدبى وحده ، إذ تعداه إلـــى أســـلوب الحيـــاة ! فيذكـــر المؤرخون مثلا عن ابن قزمان أنه فى خريف حياته تنسك وتزهد ولزم المسجد فارغا للصلاة والتسبيح ، والتوبة والخشوع ، وهـــم يذكرون نظير ذلك عن زعيم التروبادور جيـــوم التاســـع حيـــث تصنع التوبة ، والزهد إلى الدير ضارعا تائبا ! وكم لـــهما مـــن أشباه فى خواتم أمره " .

أجزاء الموشح ومصطلحاته

لاشك أن الموشحات تتناول كل أغراض الشعر العربـــى المشهورة من مدح ووصف وغزل وهجاء ورثاء وزهد.ولكـــن ـــ وكما سبق القول ـــ هناك شيئا ينبغى أن نشـــير إليـــه وهـــو أن موضوعات أشهر الموشحات إنما تكـــون فـــى الغـــزل واللـــهو ووصف الطبيعة ، وقد يمزجون كل هذه الفنـــون فـــى موشـــحة واحدة .

والموشحة منظومة غنائية تعتمد علـــى منـــهج تجريـــدى متحرر ، وهو يتكون من أجزاء معينة اصطلح عليها الوشـــاحون والتزموها فى صنع الموشحات .

يتحدث ابن سناء الملك عن الأجزاءالتـــى يتـــألف منـــها الموشح فيقول [1] :

" .. وهو يتألف فى الأكثر من ستة أقفال ، وخمسة أبيـــات ، ويقال له : التام ، وفى الأقل من خمسة أقفال وخمســـة أبيـــات

---

[1] دار الطراز ، نشر وتحقيق د / جودت الركابى ص ٢٥ . عام ١٩٤٩ .

ويقال له الأقرع . فالتام ما ابتدئ فيه بالأقفال ، والأقرع ما ابتدئ فيه بالأبيات " .

وأجزاء الموشح هي :

١ ــ المطلع أو المذهب:

وهو ما يفتح به الموشح إذا كان تاما ، أي أنه المجموعة الأولى من أشطر الموشحة ، وهو يتألف عادة من شطرين أو أربع ، وإذا بدأ الموشح بالأبيات دون مطلع يقال له الأقرع ، وعلى هذا فليس المطلع ركنا أساسيا في الموشح،لأنه يجوز حذفه.

وهذا توضيح لأجزاء الموشح يتم الاستشهاد به من موشحة لسان الدين بن الخطيب :

(المطلع)

جادك الغيث إذا الغيث همى　　يا زمان الوصل بالأندلس

لم يكن وصلك إلا حلما　　في الكرى أو خلسة المختلس

٢ــ الدور :

وهو مجموعة من الأشطر التي تلي المطلع ، وهو يأتي بعد المطلع في الموشح التام ، فإذا كان الموشح أقرعا جاء الدور في مستهل الموشح ، ثم يتكرر الدور بعد كل قفل .

والبعض يطلق على الدور اسم الغصن ، ويشترطون في الدور أن يكون على وزن مخالف للمطلع أو القفل ، وقافيته كذلك أما الأدوار فينبغي أن تتحد فيما بينها في عدد الأجزاء وفي الوزن ، وأن تختلف في القافية .

(الدور)

إذ يقود الدهر أشتات المنى ينتقل الخطو على ما ترسم
زمـــرا بيـــن فرادى وثنـــا مثلما يدعو الحجيج الموسم
والحيا قد جلل اروض سنا فثغور الزهر فيـــه تبســـم

٣ ــ البيت:

ومفهوم البيت فى الموشحة مخالف تماما لمفهومـــــه فـــى القصيدة الشعرية التقليدية ، والبيت فى الموشح يتكون من الـــدور ومن القفل الذى يليه مجتمعين .

وقد يكون البيت بسيطا ، وقد يكون مركبا ، فـــإن تـــألف البيت من أجزاء مفردة سمى بسيطا ، وإن تألف كل جـــزء مـــن فقرتين أو أكثر سمى مركبا ، والبيت البسيط يتكون مــــن ثلاثـــة أجزاء أو أربعة أو خمسة .

والبيت البسيط المؤلف من ثلاثة أجزاء مثل:

أيهـــا النـــاس فؤادى شعـــف
وهو من بغى الهوى لا ينصف
كـــم أداريـــه ودمعـــى يكـــف
أيها الشادن من علمكما بسهام اللحظ قتل السبع

والمركب من الأبيات هو الذى يكون كل جزء منه مركبـــا من فقرتين أو ثلاث أو أربع أو خمس ، فإذا كان البيـــت نفســـه يكون مكونا من ثلاثة أجزاء أو أكثر فإننا نرى أنه يحـــدث مـــن ذلك صور كثيرة .

ومثال البيت المركب من فقرتين وثلاثة أجزاء موشح ابـــن سناء الملك :

كذا يقتاد سنـــا الكوكـــب الوقـــاد إلى الجلاس مشعشعة الأكواس

أقــم عــذرى فقد آن أن أعكف
علــى خمــر يطوف بها أو طف } بيت من فقرتين أوثلاثة أجزاء
كما تدرى هضيم الحشا مخطف

ولابن سناء الملك موشح آخر البيت فيه مركب من ثـــلاث فقر وثلاثة أجزاء :

من لى به يرنو بمقلتى ساحر إلى العباد
ينأى به الحسن فينثنى نافر صعب القياد } بيت من ثلاث فقر وثلاثة أجزاء
وتارة يدنو كما احتسى الطائر ماء الثمار

٤ ــ <u>السمط:</u>

وهو اسم لكل شطر من أشطرالدور ،وعدد الأسماط فـــى الدور الواحد من الموشح لاتقل عن ثلاثة أسماط .

والسمط قد يكون من فقرة واحدة (مفردا) وقد يكون مـــن فقرتين ،وقد يكون من أكثر من ذلك ، والمهم هو تســاوى الأدوار فىعدد الأسماط .

٥ ــ <u>الخرجة:</u> .

وهى آخر قفل فى الموشح ، بل هى أهم أجزائه ،فبدونـــها يفقد الموشح قيمته ولايستوفى شروطه .

يقول ابن سناء الملك[1] :

" والخرجة هى أبرز الموشح ، وملحه وســـكره ومســـكه وعنبره ،وهى العاقبة وينبغى أن تكون حميـــدة ،والخاتمـــة بـــل

---

[1] دار الطراز ص ٣٢ .

السابقة وإن كانت الأخيرة ، وقولي السابقة لأنها التي ينبغي أن يسبق الخاطر إليها ،ويعملها من ينظم الموشح في الأول ،وقبل أن يتقيد بوزن أوقافية " .

والخرجة تماثل المطلع والأقفال في الوزن والقافية وعدد الأجزاء . وعلى هذا فالقفل الذي يأتي في نهاية الموشحة [١] يسمى " الخرجة " والقفل الذي يأتي في مطلع الموشحة [٢] يسمى "المطلع " .

والخرجة هي الجزء الوحيد في الموشح الذي يتميز بالخروج على اللغة الفصحى ، يقول ابن سناء الملك [٣] :

" والشرط فيها (أي في الخرجة) أن تكون حجاجية من قبل الشخص ، قزمانية من قبل اللحن ، حارة محرقة ، حادة منضجة .. "

وابن سناء الملك بكلامه هذا يراعي ماقاله البلاغيون من مراعاة مقتضى الحال ، فإذا كان الغناء ، والمرح والطرب ، والطبيعة والخمرة ،وما إلى ذلك من الأمور المناسبة لمضمون الموشحات ، فإن من الطبيعي أن تميل الخرجة إلى لغة الحديث ومواقف اللهو والعبث ، لأن ذلك يضفي على الموشح الدعابة والطرافة ، وهذا قريب الشبه ببعض أغنيات المرح السريعة في عصرنا الحاضر ،فهي كوميديا عامية باعثة للنفس على

---

(١) لابد من وجود القفل في نهاية الموشحة .

(٢) قد يأتي وقد لا يأتي .

(٣) دار الطراز ،تحقيق د / جودت الركابي ص ٣٢ . وانظر ص٣٠ - ٣٣ دمشق ١٩٤٩ م .

الضحك،هذا فضلا عن أنها منحوتة من لغة الحديث في حياة الناس .

٦-الغصن:

وهو اسم لكل شطر من أشطر المطلع أو الأقفال أو الخرجة في الموشح ، ولا بد من تساوى المطلع والأقفال والخرجة في عدد الأغصان.

٧-القفل:

والقفل هو مجموع الأشطر التى تلى الدور.والأقفال أجزاء مؤلفة يلزم أن يكون كل قفل منها متفقا مع بقيتها في وزنها وقوافيها وعدد أجزائها [1].

ويتكون الموشح في الأكثر من ستة أقفال ، وفي الأقل من خمسة أقفال ، فهو يتردد في الموشح ست مرات (في التام) وخمس مرات (في الأقرع).

وفي هذا المقام ينبغي أن نذكر الدور الذى قام به ابن الخطيب في زيادة أقفال الموشحات وأبياتها عن العدد المعهود فيها ، وهو في الأكثر ستة أقفال (في الموشح التام) وفي الأقل خمسة أقفال (في الأقرع) وخمسة أبيات في الموشح التام والأقرع ، الأمر الذى أطلق حرية الوشاح في نظم موشحته.

ومثال ذلك موشحته:

جادك الغيث إذا الغيث همى يازمان الوصل بالأندلس

فهي أحد عشرة قفلا وعشرة أبيات

---

[1] انظر دار الطراز ، تحقيق الركابي ص ٤١ وما بعدها.

وموشحته[١]:

رب ليل ظفرت بالبدر ونجوم السماء لم تدر

عشرة أقفال وتسعة أبيات

وقد تابعه فى الخروج على العدد المعهود فى أقفال وأبيات الموشحات ابن زمرك ، والتزم ذلك فى معظم موشحاته .

فموشحته[٢] :

نواســم البستـــان تنشــر سلك الزهر

عشرة أقفال وتسعة أبيات

وموشحته [٣] :

بالله يا قامة القضيب ومخجل الشمس والقمر

ثمانية أقفال و سبعة أبيات

....

---

[١] ديوان الموشحات الأندلسية: ٢/٤٨٩.

[٢] المصدر نفسه : ٢ / ٥١١ .

[٣] المصدر نفسه : ٢ / ٤٩٩ . تحقيق الدكتور سيد غازى ، نشر منشأة المعارف الإسكندرية ١٩٧٩ م .

موضوعات الموشحة

أما عن موضوعات الموشحة فقد سبق أن قلنا إن النهضة الغنائية التى شهدتها الأندلس لتعد على رأس العوامل التى ساعدت على ظهور الموشحات ، لأن موضوعاتها مناسبة لهذا الفن ، ثم إن أوزانها أحفل بالتلحين من أوزان الشعر .

ففى تلخيص أبى الوليد بن رشد أحد فلاسفة الأندلس كتاب أرسطاليس فى الشعر نراه يقول حين تحدث عن المحاكاة[١]:

" والمحاكاة فى الأقاويل الشعرية تكون من قبل ثلاثة أشياء : من قبل النغم المتفقه ، ومن قبل الوزن ، ومن قبل التشبيه نفسه . وهذه قد يوجد كل واحد منها مفردا عن صاحبه ، مثل وجود النغم فى المزامير ، والوزن فى الرقص ، والمحاكاة فى اللفظ ، أعنى الأقاويل المخيلة غير الموزونة ، وقد تجتمع هذه الثلاثة بأسرها مثل ما يوجد عندنا فى النوع الذى يسمى الموشحات والأزجال ، وهى الأشعار التى استنبطها فى هذا اللسان أهل هذه الجزيرة (الأندلس) ".

ويؤكد الدكتور فؤاد رجائى قوة العلاقة بين الموشحات والغناء ، فيقول[٢] :

" إن الموشحات هى عماد الغناء العربى الأصيل ، والغناء سر ظهورها ".

---

(١) مقدمة العذارى المائسات فى الأزجال والموشحات ص (و) ط الأرزجونية سنة ١٩٠٢م.

(٢) المجلة العربية ، السعودية – العدد الثالث ١٣٩٦هـ من مقال بعنوان : " الموشحات الأندلسية ".

ومن الواضح الجلى أن أنسب موضوع للغناء هو الغزل ، يليه موضوعان آخران وثيقا الصلة به وهما : الخمر والطبيعة ، على أنه قد تجتمع الموضوعات الثلاثة فى موشحة واحدة.

و لما كانت مجالس الغناء تعقد فى قصور الملوك والأمراء ، وكان الوشاحون يتغنون بمناقبهم ، ويشيدون بمآثرهم وأعمالهم ، كانت النتيجة المنطقية لذلك أن نظم فى المدح كثير من الوشاحين ، ومن هؤلاء فى عصر ملوك الطوائف : ابن رافع رأسه ، وابن الخباز ، وابن لبون ، وابن القزاز ، وابن المعلم ، وابن اللبانة.

وفى عصر المرابطين نظم فى هذا الفن الأعمى التطيلى ، وابن رحيم وابن باجة ، وابن بقى.

وفى عصر الموحدين كان ابن شرف ، وابن مالك ، وابن زهر ، وابن سهل ، والششترى.

وفى عصر مملكة غرناطة كان لسان الدين بن الخطيب ، وابن زمرك ، وابن عاصم ، وابن على.

ثم نظمت الموشحة فى موضوع الرثاء وظهر ذلك عند ابن اللبانة فى عصر الطوائف ، وعند ابن حزمون فى عصر الموحدين[1].

ثم ظهر الموشح الدينى فى عصر الموحدين ، وأخذ الوشاحون ينظمون فى الزهد والتصوف ، والمدائح النبوية.

---

[1] انظر المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق وتعليق الدكتور شوقى ضيف : ٢ / ٢١٦ ، ٢١٧.

وما أن نصل إلى العصر الغرناطى حتى وجدنا الوشاحين يطرقون بالموشحات موضوعات جديدة ، إذ أخذوا ينظمون في التهانى ، والتشوق ، ووصف المبانى ، وغير ذلك.

وأيا ما كان الأمر فإن الموشحات قد نظمت في كل الموضوعات الشعرية التى عالجها الشعر التقليدى ، ويمكن أن نقول إنها أخذت تنافس الشعر فى مجالاته وفنونه ، يؤكد ذلك ويبرهن عليه ما ذكر من أن الوشاحين المشارقة قد شاركوا إخوانهم المغاربة فأخذوا ينظمون فى الفنون والأغراض السالفة موشحات جديدة ، نظم أكثرها فى معارضة الموشحات الأندلسية.

وسنعرض الآن لأهم الفنون والأغراض الشعرية التى طرقها شعراء الموشحات:

(أ) الغزل:

سبق أن قلنا إن أكثر الموشحات الأندلسية قد نظمت في الغزل ، كما سبق أن قلنا أيضا إن شعر الغزل هو أنسب موضوعات الشعر وأكثرها ملاءمة لفن الموشحات ، وفى رأيى أن هذا دون سواه هو السبب الأساسى فى قصر الوشاحين في الأندلس – وعلى وجه الخصوص فى أول عهدهم بالموشحة – لموشحاتهم عليه ، وكثرة نظمهم فيه.

ولعل أول موشحة جاءت فى الغزل هى موشحة عبادة بن ماء السماء (المتوفى عام ٤٢٢ هـ) والتى منها[١]:

---

[١] فوات الوفيات ، تحقيق الدكتور إحسان عباس : ٢ / ١٥١ . وانظر كذلك ديوان الموشحات الأندلسية : ١ / ٥ .

من ولـــى فى أمتى أمرا ولم يعدك   يعــزل إلا لحــاظ الرشــأ الأكحل

جرت فى حكمك فى قتلى يا مسرف

فانصف فواجب أن ينصف المنصف

وارأف فإن هــذا الشــوق لا يرأف

علل قلبى بذاك البارد السلســل   ينجوى ما بفؤادى من جوى مشعل

إنمـــا تبـــرز كـــى توقـــد نـــار الفتـــن

صنمـــا مصـــورا فـــى كل شيء حسن

إن رمى لم يحظ من دون القلوب الجنن

كيف لى تخلص من سهمك المرسل   فصل واستبقـــى حيـــا ولاتقتل

يا سنا الشمس ويا أبهى من الكواكـــب

يا منى النفس ويا سؤلى ويا مطلبـــى

ها أنا حـــل بأعدائـــك مـــا حـــل بـــى

عذلى من ألم الهجران فى معزل   والخلى فى الحب لا يسأل عمن بنى

أنت قد صيرت بالحسن مـــن الرشد غى

لم أجد فى طرفـــى حبـــك ذنبـــا علـــى

فاتئـــد وإن تشـــأ قتلـــى شيئـــا مشـــى

أجملـــى ووالنـــى منـــك يد الفضل فهى لى من حسنات الزمن المقبـــل

ما اغتـــدى طرفـــى إلا بســـنا نـــاظريك

وكذا فى الحب ما بى ليـــس يخفى عليك

ولـــذا أنشـــد والقـــلب رهـــين لديـــك

يا على سللت جفنيك على مقلتى   فا بق لى قلبى وجد بالفضل يا موئلى

وأسلوب موشحة عبادة بن ماء السماء تغلب عليه الصنعة ، ولانغالى إذا قلنا إن معانيه وأفكاره وصوره وأخيلته خرجـــت كلها مطروقة مألوفة ،لا يلمس القارئ فيها جدة ولاابتكارا ،هـــذا

فضلا عن هذا الحشد الهائل من القيود والأصفاد الثقيلة والمرهقـة التى وردت فى الأقفال والأبيات.

والأقفال تلتزم فى الضرب قافية اللام وهى بهذا تتفــق مــع القصة الشعرية ، ولكنها زادت عليها بقيدين ثقيلين إذ لا تقتصـــر على اللام فى الضرب ولكنها تلتزم بها فى العـــروض أيضـــا ، وهذا هو الجديد الذى نراه فى القصيدة الشعرية إلا فـــى المطلـــع أحيانا والشاعر قد لا يتقيد به.وهناك قيد آخ جديـــد وهـــو تقفيـــة التفعيلة الأولى من شطرى القفل .

وفى رأيى أن اهتمام الشاعر بالصنعة هـــو الـــذى أفقـــد موشحته جمال الغزل العذرى ، وجعل معالم هذا الغزل لا تبـــدو واضحة جلية فى الموشحة ،فى إطار تلك الصنعة التى تبحث عن اللفظ المتفق مع النغم .

ومن الموشحات التى تبلورت فيها معالم الغزل العـــذرى موشحة أبى جعفر أحمد بن عبد الله بن هريرة الأعمى التطيلى .

يقول التطيلى[1]:

ضاحك عن جمان　　　سافر عن بدر
ضاق عنه الزمان　　　وحواه صدرى
آه ممـــا أجـــد　　　شفنى مـــا أجد
قام بـــى وقعـــد　　　باطش متئـــد
كلمـــا قلـــت قـــد　　　قال لى أين قد
وانثنى خوط بان　　　ذا مهز نضـــر

---

(1) ديوان الموشحات الأندلسية : ١ / ٢٤٧ . ودار الطراز ص٤٣ . والمغرب فى حلى المغرب : ٢ / ٤٥٣ والأدب الأندلسى د / الشكعة ص ٤١٠ وديوان التطيلى ،تحقيق د / إحسان عباس ص ٢٥٣ – ٢٥٤.

عابثتـه يـــدان	للصبـا والقطـــر
ليس لى منك بـد	خذ فؤادى عـن يد
لم تدع لـى جلـد	غير أنـى أجهـد
مكرع مـن شهد	واشتياقـى يشهـد
ما لبنـت الدنـان	ولـــذاك الثغـــر
أين محيا الزمـان	من محيـا الخمـر
بى هوى مضمـر	ليت جهـدى وفقه
كلمـا يظهـر	ففـؤادى أفقـه
ذلـك المنظـر	لا يـداوى عشقـه
بأبى كيـف كـان	فلكـــى درى
راق حتـى استبان	عـذره وعـذرى
هل إليـك سبيـل	أو إلى أن أيأسـا
ذبـت إلا قليـل	عبـرة أونفسـا
ماعسى أن أقـول	ساء ظنـى بعسى
وانقضى كل شـأن	وأنـا استشـرى
خالعا مـن عنـان	جزعى وصبـرى
ماعلـى من يلوم	لو تناهـى عنـى
هل سوى حب ريم	دينـه التجنـى
أنـا فيـه أهيـم	وهوبـى يغنـى
قـد رأيتـك عيان	ليس عليك ستدرى
سيطـول الزمـان	وستنسى ذكـرى

ففى هذه الموشحة نرى صدق العاطفة ، وتفانى المحـب فى الإخلاص لمحبوبته ،كما نرى شدة الوجـد ، وآلام البعـد ، ومرارة الحرمان.

وقد ذكر ابن خلدون [١]: " أن جماعـــة مـــن الوشـــاحين اجتمعوا فى مجلس بإشبيلية ، وكان كل واحـــد منـــهم اصطنـــع موشحة ، وتأنق فيها ، فتقدم الأعمى التطيلى للإنشاد ، فلما افتتـــح موشحته المشهورة بقوله :

" ضاحك عن جمان ، سافر عن بدر ، ضاق عنه الزمـــان ،وحواه صدرى ، حرق ابن بقى موشحته ، وتبعه الباقون " .

ومن الموشحات الغزلية التى فاضت رقة وعذوبة موشـحة ابن زهر الأولى والتى يقول فيها [٢] :

هل للعزا فيــك سبيـــل ... يا هاجرى ما أعذرك
ذدت الكرى عن بصرى ... للـــه طـــرف أبصرك
صارعت فى رأى النوى ... ولـــم تـــرق لى شفقا
وليس لى ذنب ســـوى ... أمـــر لحينـــى سبقا
تجوز أحكـــام الهـــوى ... ليت الهوى ما خلقا
صيرنى عبـــدا ذليـــل ... إن كان مولى صيرك
ولـــم يكن فـــى القـــدر ... من حيلة أن أحـــذرك
بـــعـــد مـــا نمـــت ولا ... ألفـــت إلا السهـــرا
فى ليلـــة طالـــت بـــلا ... صبح ولا ضوء يرى
فقلـــت للبـــــدر علـــى ... حين من الليل ســـرى
ياليل طـــل أولاتطـــول ... لابد لى أن أسهـــرك
لوبات عنـــدى قمـــرى ... ما بت أرعى قمرك[٣]

---

(١) المقدمة ص ١١٣٩ .

(٢) ديوان الموشحات الأندلسية ، د / سيد غازى : ٢ / ٨٧ .

(٣) هذه الخرجة مقتبسة من مقطوعة شعرية لابن زيدون عنوانها: " يا ليل طل " الديوان ، شرح وتحقيق كرم البستانى ص ٦٣.

وهناك موشحة للأعمى التطيلى استهلها بـــالحديث عـــن الخمر ، ثم انتقل إلىالتغزل بغلام اسمه "عبد الملك " وقد تمثـــل الوشاح فى أبياته بالمحب الصادق ، فأخذ يعدد مفاتن هذا الغـــلام ومحاسنه بأسلوب يفيض بالحب الصادق ، وينطق بـــألم الوجـــد والحرمان ، وغير ذلك من الأوصاف التى توصف بـــها النســـاء الفاتنات [١] .

(ب)وصف الطبيعة:

وصف الطبيعة من بين الأغراض التى تناولـــها شـــعراء الموشحات وكان لهم فيه باع طويل ونصيب وافر ، حتى جـــاءت موشحاتهم التى وصفت الطبيعة صورة من صور الإبداع .

وليس يخفى أن الله سبحانه وتعالى قـــد وهـــب الأندلـــس طبيعة خلابة ساحرة ،وكان لجمـــال هـــذه الطبيعـــة ، ولتنـــوع مشاهدها أثر كبير فى توجه شعراء الأندلـــس بعامـــة وشـــعراء الموشحات بصفة خاصة ،فراحوا يرسمون صورهـــا المختلفـــة ويتغنون فى كل ذلك بمفاتنها وجمالها .

ومن شعراء الموشحات الذين نظموا فـــى الطبيعـــة ابـــن اللبانة (ت ٥٠٧ هـــ) وأبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن ســـعيد (ت ٥٥٠ هـــ) وأبو الحسين بن مسلمة (ت ٥٨٥ هـــ) وأبـــو بكر محمد بن عبد الملك بن زهر (ت٥٩٥هـــ) وأبـــو الحجـــاج يوسف بن عتبة (ت٦٣٦هـــ) وإبراهيم بن ســـهل الإشـــبيلى (ت

---

[١] انظرها فى ديوان الموشحات الأندلسية :١ / ٢٥٦ .وفى ديوان التطيلى ، تحقيق د / إحسان عباس ص ٢٥٨ – ٢٥٩ نشر وتوزيع دار الثقافة بيروت ١٩٦٣ م.

٦٤٩ هـ) وابن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ) وأبو عبد الله محمد بـن يوسف بن زمرك (ت ٧٩٢ هـ) وأحمـد بـن علـى اللحمـى الغرناطى [١] .

وهذه موشحة لأبى جعفر أحمد بن سـعيد يصـف فيـها الطبيعة ، ويخص بالذكر منها : النـهر ، وشـمس الأصيـل ، والغصن ، وما إلى ذلك .

يقول[٢]:

ذهبت شمس الأصيل فضـة النهـر

أى نهـر كالمدامـة

صيـر الظل فدامـه

نسجتـه الريح لامه

وثنيت للغصن لامه

فهو كالعضب الصقيل حـف بالشفـر

مضحكا ثغر الكمـام

مبكيـا جفن الغمـام

منطقا ورق الحمـام

داعيـا إلى المـدام

فلهـذا بالقبـول خـط كالسـطر

***

وينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الخمر فيقول [٣] :

قلت والمزح استدارا

---

(١) انظر المغرب فى حلى المغرب (الجزء الثانى) ، وانظر ديوان الموشحات الأندلسية (بجزءيه) .

(٢) المغرب فى حلى المغرب : ٢ / ١٥٣ .

(٣) المصدر نفسه ٢ / ١٠٣ .

بذرى الكــأس ســوارا
سالبــا منــه الوقــارا
دائرا مــن حيــث دارا
صار أطيار العقــول   شبـــك الخمـــــر
وعد الحــب فأخلــف
واشتهى المطل فسوف
ورسولى قــد تعــرف
منه ما أدرى فحــرف
بالله قل لى يارسولى   لــش يغيــب بــدرى

ولأبى الحجاج يوسف بن عتبة الإشــــبيلى موشــحة فـــى الطبيعة ، وقد تناولت وصفين : وصف الرياض ، ثـــم وصـــف مجالس الشرب فى تلك الرياض ، وقد عبر عن إعجابه ومتعتـــه بالروض وهو في حلل خضر والليل قد أشرقت فيه كئوس الخمر ثم ينتقل إلى وصف ساقى الخمر وأخذ يخلع عليه صفات الحســن والجمال .

يقول [١] :

الروض فى حلل خضر عروس
والليل قد أشرقت فيــه الكئوس
وليــس إلا حمياهــا شمــوس
تجلى بكف غلام   كالغصن لدن القوام
ريقه سلسبيــل   يشفى لهيب أوامى
ياحبــذا يومنــا يــوم الخليــج
والموج تركض أطراف المروج

---

[١] المصدر نفسه : ١ / ٢٨١ .

أحبب بـــه وبمـــرآه البهيـــج

يفتر ثغـــر الكمـــام عن باكيـــات الغمـــام

والغصـــون تميـــل سكـــرا بغيـــر مـــدام

فقـــم نباكرهـــا للاصطبـــاح

والشهب تنثر مـــن خيط الصباح

والقضب ترقص فى أيدى الرياح

على غنـــاء الحمام والكأس ذات ابتســـام

والظـــلام قتيـــل والصبح دامى الحسام

(جـ) الخمر

من الموضوعات التى احتفـــل بـــها شـــعراء الموشـــحة الأندلسيون وصف الخمر ، شأنهم فى ذلك شأن شعراء المشـــرق ،فلا تكاد تخلو موشحة أندلسية من وصف الخمر، تســـتوى فـــى ذلك كل العصور الأندلسية ، وقد عنى كثير من الشعراء به بـــأن جعلوه فى صدر موشحاتهم على اختلاف موضوعاتها ،عنـــى أن وصف الخمر قد ورد فى أكثر الموشـــحات ممتزجـــا بوصـــف الطبيعة والغزل .

وتلتحم الخمر بالطبيعة عند ابن شرف كما فى قوله[1]:

شمس قارنت بـــدرا راح ونـــديـــم

أدر أكؤس الخمـــر

عنبريـــة النشـــر

إن الروض ذو بشر

وقـــد درج النهـــرا هبوب النسيـــم

---

[1] ديوان الموشحات الأندلسية : ٢ / ٣٥ . ودار الطراز ص ٤٥ .

وسلت علـــى الأفق
يد الغرب والشـــرق
سيوفا من الـــبرق
وقد أضحك الزهرا بكاء الغيـــوم
ألا إن لـــى مولـــى
تحكـــم فاستولـــى
أمـــا إنـــه لـــولا
دمع يفضـــح السرا لكنت كتـــوم
أنى لـــى كتمـــان
ودمعـــى طوفـــان
شبت فيه نيـــران
فمن أبصر الجمـــرا فى لج يعوم
إذا لامنـــى فيـــه
مـــن رأى تجنيـــه
شـــدوت أغنيـــه
لعـــل لـــه عـــذرا وأنت تلـــوم

ويستهل أبو بكر يحيى بن بقى القرطبى أحد الوشاحين فى عصر المرابطين معظم موشحاته بالحديث عن الخمر .

فمن ذلك قوله فى مطلع إحدى موشحاته الغزلية [١] :

حيتك أربـــع مـــن العمـــر
أجل جفونـــك فـــى لألاء
ضدان من أعجب الأشياء
من الحباب عليهـــا شـــرر

[١] ديوان الموشحات الأندلسية : ٢ / ٣٥ . ودارالطراز ص ٤٥ .

ظل و مـــاء ، والمـــدام والوتر
ســنا الزجـــاجـــة والصهبـــاء
لـــهيب نـــار فـــى كأس مـــاء
لـــهـــا جلاء فى النفوس معتبر

ومن الموشحات التى نالت شهرة فى الحديث عن الخمـــر موشحة أبى بكر مخمد بن زهر ، ولعل شهرتها راجعة إلى مـــا فيها من رقة وعذوبة ،وروعة نغم ، وجمال موسيقى[١].

(د) المديح والتهانى:

على الرغم من أن فن المدح قد شاع وانتشـــر فـــى كـــل العصور الأندلسية ، فإن أحدا من شعراء الموشحات لـــم ينظـــم موشحة واحدة خاصة بالمديح ، وإنما دأبـــوا علـــى أن يســـتهلوا موشحاتهم فى المديح بوصف الخمر أو الحديث عن الطبيعـــة أو الغزل ، وقد تلتحم كل هذه الأغراض عندهم فى مقدمة موشـــحة المديح.

والمنهج الذى سار عليه شعراء الموشحات فى مديحهم هو بعينه منهج الشعراء القدامى ، فهم يمهدون للمديـــح بـــالغزل أو بوصف الطبيعة أو الخمر ، يضاف إلى ذلك أن الصفـــات التـــى خلعوها على الممدوح هى بعينها الصفات التى طرقها من قبلـــهم شعراء العربية فى المديح.

---

(١) انظرها فى الكتاب ص ١٤٠ ، ١٤١ . وانظر المغرب فى حلى المغرب : ١ / ٢٧٢ . ودار الطراز ص ٧٣ ومعجم الأدباء : ١٨ / ٢١٩ . والوافى بالوفيات : ٤ / ٤٠ .

فأبو الحكم أحمد بن على بن هـــرودس ، أحـــد شـــعراء الموشحات فى عصر الموحدين ، يمدح ملك غرناطة (عثمان بـن عبد المؤمن) بموشحة[١] ، استهلها بالغزل فقال :

يا ليلة الوصل والسعود باالله عودى

كم بت فـــى ليلة التمنى

لا أعرف الهجر والتجنى

ألثم ثـــغر المنى وأجنى

من فوق رمانتى نهود زهر الخدود

ثم يتحدث عن الخمر فيقول:

يا لائمى اطرح ملامى

فلا براح عـــن الغرام

إلا انعكافى على مدام

ويسمع صوت ونقر عود من كف خود

ثم يتحدث عن ممدوحه فيصفه بالعظمة وعلو المنزلـــــة ، وغير ذلك من الأوصاف المألوفة فى المديح ، فيقول:

مـــدح الأمير الأجل أولى

السـيد المـاجد المـعلى

تاج الملوك السنى الأعلى

أفضل مـــن سار بالجنود تحت البنـــود

أكرم بعنيـــاه مـــن عمام

إمام هدى و ابـــن الإمام

مـــبدد الروم بالحســـام

يعقد فى هامة الأســـود بيض الهنـــود

---

[١] انظر ديوان الموشحات الأندلسية : ٢ / ٦٠ ، ٦١. والمغرب فى حلى المغرب : ٢ / ٢١٥ ، ٢١٦.

لله يـوم أغـــر زاهـر
قـد حل بالأندلس آمـر
قالوا و قد و افت البشائر
بالملك السيد السعيد أبـى سـعيد

وللسان الدين بن الخطيب موشحة فى مدح الأمير الغنـى بالله محمد بن أبى الحجاج أحد ملوك بنى الأحمر ، وقد نظمـها يعارض بها موشحة إبراهيم بن سهل الإسرائيلى التى مطلعها:

هل درى ظبى الحمى أن قد حمـى قلب صب حلـه عـن مكنس

يقول ابن الخطيب فى مدح الأمير [1]:

سلمى يا نفس فـى حكـم القضـا واعمرى الوقت برجعى ومتاب
ودعى ذكـر زمـان قـد مضـى بين عتبى قد تقضت وعتـاب
واصرفى القول إلى المولى الرضا ملهم التوفيق فـى أم الكتـاب
الكريـم المنتهـى و المنتمـى أسد السرج وبـدر المجلـس
ينـزل النصـر عليـه مثلمـا ينزل الوحـى بـروح القـدس
مصطفى اللـه سمـى المصطفـى الغنى باللـه عـن كـل أحـد
مـن إذا عقـد العهـد وفـى وإذا ما فـدح الخطـب عقـد
من بنى قيس بـن سعـد وكفـى حيث بيت النصر مرفوع العمد
حيث بيت النصـر محمـى الحمى وجنى الفضـل زكـى المغرس
والهـوى ظـل ظليـل خيمـا والندى هـب إلـى المغتـرس
هاكهـا ياسبـط أنصـار العلـى والذى إن عثـر الدهـر أقال
غـادة ألبسهـا الحسـن مـلا تبهر العيـن جـلاء وصقـال
عارضـت لفظـا ومعنـى وحلى قول من أنطقـه الحب فقال :
"هل درى ظبى الحمى أن قد حمى قلب صب حلـه عـن مكنس

---

[1] ديوان الموشحات الأندلسية : ٢ / ٤٨٧ - ٤٨٨ ومقدمة ابن خلدون ص ١١٥٢ .

فهو فى حــــر وخفــق مثلمـــا   لعبــت ريــح الصبـــا بالقبس "

ونحن نلاحظ أن ابن الخطيب قد بدأ موشحته بالغزل ، ثــم انتقل إلى الحديث عن ممدوحه وأخذ يبالغ فى وصفه حتى جعلــه " المولى " ، و " الرضى " و " الملهم " وغير ذلك ، كما يلاحــظ أنه قد أخذ مطلع موشحة إبراهيم بـــن ســهل وجعلــه خرجــة لموشحته.

(هـ) الرثاء

ذكرنا أن الموشحات هى عماد الغناء ، وأن الغناء هو سر ظهورها ، ومن ثم نظمت فى الأغراض التى تناسب فن الغنــاء ، كالغزل ووصف الخمر ووصف الطبيعة ، وما إلـــى ذلــك مـــن الأغراض التى تبعث فى النفس البهجة والطرب والنشوة .

لكن الملاحظ أن شعراء الموشحات فى الأندلس قد تطلعوا إلى منافسة الشعراء فى مجالات عديدة من مجالات الشعر وفنونه ، ومن ثم أخذوا ينظمون فى كل الموضوعـــات الشـــعرية التـــى عالجها الشعر التقليدى ، فكان أن نظموا فى فن الرثاء ذلك الفـــن الذى يتعارض كلية مع الغناء الذى من أجله كانت الموشـــحات ، وإن كان ما نظموه فى الرثاء قليلا جدا إذا ما قيس بما نظموه فى الغزل ووصف الخمر والطبيعة .

ولابن اللبانة موشحة نظمها فى رثاء المؤيد محمد بن عباد أحد ملوك بنى عباد بإشبيلية .

يقول[١] :

---

(١) ديوان الموشحات الأندلسية : ١ / ٢٣٢ – ٢٣٤ .

طل النجيع وفـل الأسـر غربى مهنـد
وكان من منتضاه الدهر ومـا تقلـد
صبرا على مـا قضاه الله
حط المؤيـد مـن علياه
وعطل الملـك مـن مرآه
أقول شوقـا إلـى لقياه
آن الطلـوع فلـح يا بدر فالجو أربـد
وعد بشارقـة يـا فجـر فالعود أحمد
ياسائلى عن بنـى عبـاد
حدا بهم فـى ذكرهم حاد
فالبيت بيت بـلا عمـاد
وما لنا بعدهم مـن هـاد
فلى دموع عليهـم همـر تنهل سرمد
وطى ماضم مبنى الصـدر جمر توقـد
أين المؤيد قطـب المجـد
أين الرشيد مـع المعتـد
أين اللذان هما فى اللحـد
أين القرابـة زيـن العقد
ولى الجميع وولى الصبر فليس يوجد
مـن ذا وذلـك إلا ذكـر وجد تجـدد
أفديهم من نجـاد محض
تفرقوا بعضهم عن بعض

وصـــار مـــا أبرمـــوا للنقض

كانوا إذا ما مشوا فى الأرض

أحيا الربيـــع وجـــاء الزهـــر   فيهــــا منضـــد

و" ˝ فـــوق رباهـــا بحـــر   من ذوب عسجد

عيـــش كريـــم محـــاه الدهر

أبكيهـــم مـــاتراخـــى العمـــر

قصـــر مشيـــد وروض نضر

وربمـــا قـــال فيـــه الشعـــر

بكى البديـــع ونـــاح القصر   علـــى المؤيـــد

لم يبق يسر وولـــى البشـــر   بعـــد محمـــــد

(و) الحنين

وقد يختلط شعر المديح والتـــهانى بـــالحنين والتشـــوق ، واشتهر هذا بخاصة عند الوشاح الأندلسى محمد بن يوسف بـــن زمرك ، ولعل نفيه إلى مدينة فاس المغربية كـــان الســـبب الأول والأخير لمكابدته الشوق والحنين ، وهو السبب نفسه فى نظمـــه أكثر موشحاته فى الشوق والحنين إلى أيامه الأولى التى قضاهـــا فى غرناطة .

يقول متشوقا إلى غرناطة وهو بمدينة فاس [1]:

أبلغ لغرناطـــة سلامـــى   وصف لها عهـــدى السليم

فلو رعى طيفهـــا ذمامى   ما بت فى ليلـــة السليـــم

كم بت فيها على اقتراح   أعل من حمرة الرضـــاب

أدير منهـــا كئـــوس راح   قد زانهـــا الثغـــر بالحباب

. أختال كالنهر فى الجماح   نشوان فى روضة الشباب

---

[1] انظر أزهار الرياض : ٢ / ١٨١ .والموشحات الأندلسية : ١٨ / ١٠٠ .

أضاحك الزهر فى الكمام   مباهيا روضة الوسيم
وأفضح العصن فى القوام   إن ذهب من جوها بالنسيم
بينا أنا والشباب ضاف   وظله فوقنا مديد
ومورد الأندلس فيه صاف   وبرده رائق جديد
إذ لاح فى الفوز غير خاف   صبح به نبه الوليد
أيقظ من كان ذا منام   لما انجلى ليله البهيم
وأرسل الدمع كالغمام   فى كل واد به أهيم
يا جيزة عهدكم كريم   وفعلهم كله جميل
لا تعذلوا الصب إذ يهيم   فقبله قد صبا جميل
القرب من ربعكم نعيم   وبعدكم خطبه جليل
كم من رياض به وسام   يزهى به الرائد المسيم
غديرها أزرق الجمام   ونبتها كله جميم
أعندكم أننى بفاس   أكابد الشوق والحنين
أذكر أهلى بها وناس   واليوم فى الطول كالسنين
الله حسبى فكم أقاسى   من وحشة الصحب والبنين
مضارخا ساجع الحمام   شوقا إلى الإلف والحميم
والدمع قد لج فى انسجام   وقد وهى عقده النظيم
يا ساكنى جنة العريف   اسكنتم جنة الخلود
كم تم من منظر شريف   قد حف باليمن والسعود
ورب طود به منيف   أدواحه الخضر كالبنود
والنهر قد سل كالحسام   لراحة الشرب مستديم
والزهد قد راق بابتسام   مقبلا راحة النديم *

(ز) الموشحة الدينية

وإذا كنا قد أسلفنا القول بأن أكثر الموشحات قد نظمت فى الغزل ومجالس الخمر والمجون ، ووصف الطبيعة ، باعتبار هذه

الموضوعات أنسب الفنون وأكثرها ملاءمة لفن الموشحات ، فإننا يجب أن نقول إنه وكرد فعل لهذا الاتجاه المسرف في اللذات والمتع واللهو ومجالس الشراب ظهرت الموشحة الدينية ، إذ جرت العادة أن الغلو في ناحية من نواحي الحياة لابد وأن يؤدي إلى ظهور اتجاه آخر مقابل ، ومن هنا كانت الموشحة الدينية.

والحق أن هذا اللون من الموشحات إنما ظهر في عصر الموحدين ، وقد انفرد به ثلاثة من وشاحي الأندلس وهم : محيي الدين بن عربي (ت ٦٣٨ هـ) ، وأبو الحسن الششتري (ت ٦٦٨ هـ) ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد الصباغ ، وقد نظموا جميعا موشحاتهم في الزهد والوعظ ، والتصوف ، والمديح النبوي .

وقد تناول أبو عبد الله محمد بن أحمد الصباغ في موشحة له الزهد والتصوف ، وأخذ يذم الدنيا ، ويندم على ما فرط فيها ، يقول [1] :

قد ذوى غصن الشباب	ومضى عمري وولى
آن لي وقت الإياب	كم أمنى النفس جهلا
هذه عرس المتاب	في قباب الوصل تجلى
حسنوا فيها الظنون	وادخلوها آمنين
قد وصلنا كل بين	وعفونا ورضينا

وفي موشحة أخرى له نراه يذم الدنيا ، ويدعو إلى الزهد فيقول[2] :

---

[1] ديوان الموشحات الأندلسية ٢ / ٣٨٦ . وأزهار الرياض ٢ / ٢٣٠ .

[2] ديوان الموشحات الأتندلسية ٢ / ٣٩١ ، ٣٩٢ . وأزهار الرياض ٢ / ٢٣٣ .

قف بالديار واعتبـر إن كنت من أهل العبـر
وانظـر لها وازدجر فـإن فيهـا الأجـر
كـم معلـم قـد دثر فلـم يبـن فيـه أثـر
تبكيـه ورق الفـلا وفى بكا الحمائم أشجان
فلننتـدب للطـلا ففى فؤاد الهائم أحزان
سما علا فى الوجـود عنه بنـا فهـم العقول
فغيبـة وشهـود كلاهمـاعـين الدليـل
حتى متى يا مريـد تختال فى ثوب الخمول
تشكـو لنـا العـلا وأنت بالمأثـم جـذلان
فلـذ بعـز العـلا فعندنا للنـادم إحسـان

ولابن زمرك موشحة من بحر السريع فى الزهـد ، يتحسـر فيها على فوات العمر وتولى الشباب وعدم الاستعداد للآخـرة ، وفيها يقول [1]:

لو ترجع الأيام بعد الذهاب لم تقدح الأشواق ذكرى حبيب
وكل من نام بليـل الشباب يوقظه الدهر بصبح المشيـب
ياراكب العجـز ألا نهضـة قد ضيق الدهر عليك المجـال
لاتحسبن أن الصبا روضة تنام فيها تحت فـىء الظـلال
فالعيش نوم والردى يقظة والمرء مـا بينهـا كالخيـال
والعمر قد مر كمر السحاب والملتقـى باللـه عمـا قريب
وأنت مخدوع بلمع السراب تحسبـه مـاء ولا تستريـب
والله ما الكون بما قد حوى إلا ظـلال توهـم الغافـل
وعادة الظل إذا ما استوى تبصـره منتقـلا زائـلا
إنا إلى الله عبيـد الهـوى لم نعرف الحـق ولاالباطـل

---

(١) انظرها فى : أزهار الرياض : ٢ / ٢٠٥ ،ونفح الطيب : ١٠ / ١٤٠ . وديوان الموشحات الأندلسية ٢ / ٥٤٧ .

فكل من يرجـو سوى الله خاب وإنمـا الفـوز لعبـد منيـب
يستقبل الرحـى بصدق المتاب و يرقب اللـه الشهيـد الرقيب
يا حسرتـا مر الصبا وانقضى وأقبـل الشيـب يقـص الأثـر
واخجلتا والرحل قـد قوضـا وما لنـا فـى الخبر غير الخبر
وليتنى لوكنـت فيمـا مضـى ادخـر الـزاد لطـول السفـر
قد خاب من ركب التصابى إياب ورائـد الرشـد أطـال المغيب
يا أكمه القلـب بعيـن الحجاب كم ذا أناديـك فـلا تستجيـب
هل يحمل الزاد لـدار الكريـم والمصطفى الهادى شفيع مطاع
فجاهـه زخـر الفقيـر العديم وحبـه زادى ونعـم المتـاع
والله سمـاه الرؤوف الرحيـم فجاره المكفـول ما إن يضـاع
عسى شفيع الناس يوم الحساب وملجأ الخلـق لرفـع الكروب
يلحقنـى منـه قبـول مجـاب يشفـع لى فى موبقات الذنوب
يا مصطفى والخلق رهن العدم والكـون لم يفتق كمام الوجود
مزيـة أعطيتهـا فـى القـدم بها علـى كـل نبـى تسـود
مولـدك المرقـوم لمـا نجـم أنجـز للأمـة وعـد السعـود
ناديت لو يسمح لـى بالجـواب شهر ربيع يـا ربيـع القلـوب
أطلعت للهدى بغيـر احتجـاب سما ولكن مالها مـن غـروب

وألفاظ الموشحة سهلة لدرجة أن القارئ لا يحتـاج إلـى معجم من معاجم اللغة ، ولا يخفى أن حالة العروض والضـرب تختلف فى الأقفال عن الأبيات .

ولمحى الدين بن عربى موشحة فى التصوف تنطق بـأن الحق هو أصل كل الموجودات ، وفيها يقول[1]:

الحق صورتى فى كل صوره
كمثله بسملة من كـل سوره

---

[1] ديوان الموشحات الأندلسية : ٢ /٢٥٢ .

أقامنى عند حشر الناس سوره

بجنـــة وبنـــــار | على احتلاف الذرارى
فأنا بيـــن حـــى | وميت فى تبـــــار

ولأبى الحسن الششترى موشحة فى التصوف هام فيها فى حــب الله سبحانه وتعالى وفيها يقول [1]:

يا غـــايتى فى الهـــوى يا أنسى
أنت العـــليم بمـــا فى النــفـس
ملكـــت منـــى القـــوى مع حســى
فعســـى أن تختـــار | لمدنف مستهام قــد حار
ما أشتهـــى إلا أن تحييـــــــنى
بالوصل منـــــك وأن تســـقـينى
من خمـــــر ودك مـــا يرويـــنى
يا لهـــــا من أ دوار | تزيــل ظمأ لصب قد خار
إن دارت الكــأس زال العطــش
والمحـــو راح وبـــان القــش
وصـــار مـــا كان ســرا يفشـــو
وأضاءت أنـــوار
وانهـــل مزن وفاحت أزهـــار
وعاد جسمى مـــنـــى روحـــا
والشك بالغـــيب لى موضوحا
وعدت ما إن أرى تبـــريحـــا
وســـاعدتنى أقــدار
وصـــرت شخصا رفيـــع المنار

---

[1] المصدر نفسه : ٢ / ٣٤٠ ، ٣٤١ .

ولابن الصباغ موشحة فى المديح النبوى ،وفيها يقول[١]:

لأحـــمد المصطــفى مقـــــام
جـــــل علا فلا يـــــــرام
بنــــــوره يهتدى الأنـــام
فأى شمــــس وأى بــدر   قـد أطلعتــه لنـــا سعود
بنوره تشـــرق الشــموس
فى حبــــــة تخلع النفــوس
يا أيــــــها المسمع الرئيــسى
أدر علــيـنـــا كئوس فخــر   من ذكـــره تعط ما تريد
أمداح خيــــر الـــــورى
نحــن أناس بهـــا نهيــم
يـــا مادحــيه بالله قومـــوا
حوضوا بنا موج بحــر فخر مـــن مـــات فيه فهـــو شهيد
الشطح فى حبـــه مبــــاخ
ونحن قـــوم لـــنا ارتيـــاح
قلوبنـــا حشوهـــا جـــراح
من نأى معنـــاه ليت شعـــرى   متى يـــرى قبره العميــد
إن سمـــح الدهـــر بالوصول
لقبر حـــير الورى الرســـول
السيد الأرفـــع الجلـــيل
فثم نخــــلع ثياب طهـــــر   ونوفى روحى لمـــن نريد

---

(١) المصدر نفسه : ٢ / ٤٠٣ ، ٤٠٤ .

أهمية الموشحات و أثرها في الأدب العربي المعاصر

أولا : أهمية الموشحات

وخلاصة القول إن الموشحات قد لاقت عند ظهورها رواجا شديدا ، ونحن إذا نظرنا موضوعاتها رأيناها تكاد تشتمل على كل موضوعات الشعر التقليدية ، وإذا نظرنا إليها من ناحية العصر الذى نشأت فيه وجدناها تمثل ذلك العصر خير تمثيل .

وفي رأيي أنه لو قدر لشعراء الموشحات أن يرتفعوا إلى صحة أسلوب الشعر التقليدى ، وروعة معانيه ؛ لكان هذا التجديد الذى جاءت به الموشحات تجديدا ناجحا للغاية ، ولصارت الموشحات فتحا جديدا فى الأدب العربى ، ولمثلت من ناحية أخرى وجه الشعر العربى المزدهر .

وقد أشار ابن بسام إلى منزلة الموشحات عندما قال [١]:

" وهى أوزان كثر استعمال أهل الأندلس لها فى الغزل والنسيب ، تشق على سماعها مصونات الجيوب بل القلوب " .

ويؤرخ لتطور قالبها فيقول [٢]:

" إنها كانت فى بادئ الأمر تصاغ على الأعاريض غير المستعملة ، يأخذ اللفظ العامى والعجمى ويسميه المركز ، ويضع عليه الموشحة دون تضمين فيها ولاأغصان "

وهويشير بذلك إلى موشحات " القبرى ".

---

(١) الذخيرة ق ١ م ٢ ص ١ .

(٢) المرجع نفسه ص ١ .

ثم يشير إلى التطور الذى حدث فيها على يد عبادة [١]:

" ..غير مرموقة البرود ، ولا منظومة العقود ، فأقام ...منآدها ، وقوم ميلها وسنادها ،فكأنها لم تسمع بالأندلس إلا منه ولاأخذت إلا عنه " .

ويقول عنه أيضا [٢]:

" إنه اعتمد مواضع الوقف فى الأغصان فيضمنها كما اعتمد الرمادى مواضع الوقف فى المركز "

ولابن عبادة موشحات أخرى يزيد فيها من حسن التقسيم للمراكز والأغصان معا ، الأمر الذى جعل الموشح يأتى راقصا مرحا ... ولعل هذا الجانب هو الذى لحظه أبو بكر بن زهر الوشاح حين قال : "كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله [٣]:

بدر تم شمس ضحى غصن نقا مسك شم
ما أتم ما أوضحا ما أورقا ما أتما
لاجرم من لمحا قدعشقا قد حرم

لقد طور الوشاحون موشحاتهم وأخذوا يحاولون بشكل أوبآخر استرضاء عامة السامعين وإشباع رغباتهم ومشاعرهم ،ومن هنا حرص الوشاح على فنه ، وسلامة البنية والإعراب ، ولم يسمح لنفسه أن يدخل عاميا فى الأغصان والمراكز ، بل

---

(١) المرجع نفسه ص١ .

(٢) المرجع نفسه والصفحة نفسها .

(٣) تاريخ الأدب الأندلسى ص٢٣٣ .

لعلهم أشركوهم معهم ، وهذا هو السبب الذى جعلهم يذكرون فـى البيت الذى قبل الخرجة " قال أو قلـت ، أو غنـى أو غنينـا أو غنت[١].

وهكذا ظلت الموشحات فنا مسموعا يتناقلـه الأندلسـيون شفاها ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أنها كـانت فنـا شعبيا يكثر الاعتزاز بها والإشادة بأصحابها.

ثانيا أثر الموشحات فى الأدب العربى المعاصر

والذى يذكر للموشحات أنها أحدثت ثـورة كـبرى علـى أوزان الشعر وقوافيه [٢] ،وكان لظهورها أثر كبير فـى الشـعر العربى المعاصر ، إذ شجعت الشعراء على التجديد والتحرر مـن قيود القصيدة العمودية ، كما شجعتهم على اختراع أوزان جديـدة حتى ظهر ما يسمى بالشعر المرسل ، والشعر الحـر ، ومجمـع البحور .

وقد تأثر كثير من شعراء العصر الحديـث بالموشـحات الأندلسية ، فراحوا يقلدونها حينا ،على أنهم لم يقتصـروا علـى التقليد ، وإنما جنحوا فى بعض الأحيان إلى التجديـد فـى بنـاء موشحاتهم من حيث الأوزان والقوافى والألفاظ والأساليب ،وكأنها دفعتهم إلى إظهار ما كانوا يضمرونه فى أنفسهم قبـل ظـهورها من رغبة ملحة فى التجديد فى أوزان الشعر وقوافيه ، وفى رقـة الأساليب والألفاظ ، وعذوبة الأنغام والألحان .

---

[١] دار الطراز ص ٣١.

[٢] انظر كلاما للدكتور عبد العزيز الأهوان ص ٩٢ بجلة المجلة عدد فبراير ١٩٥٧م.

وهذا شاعر العربية أحمد شوقى ، إنه يعشق الأندلس ، وحاول أن يعارض موشحات الأندلسيين وذلك كعادته مع الشعراء السابقين ، فنظم موشحة عن الداخل .

ومع حفاظ بعض شعراء المهجر – وبخاصة شعراء المهجر الجنوبى – على نظام القصيدة العربية فى موسيقاها الشعرية ، وبنائها الشعرى المتواتر عبر عصور الأدب ، ومع حرصهم قدر الإمكان على التمثل برسومها والتقيد بقواعدها ، نحن نراهم يخطون بفنهم الشعرى خطوات جديدة استوحوها من الموشحات ، فلقد اتخذوا من ألوانها الموسيقية " وسيلة للتخفف من قيود الوزن والقافية الموحدة ، فتلاعبوا بأقفاله وأبياته ، حتى نجحوا فى تقديم صور أكثر لطفا ورقة من الموشحات الأندلسية "[١] .

وقد استخدم المهجريون الموشحات على نطاق واسع ، ومع ذلك جاءت موشحاتهم معبرة عن خلجات النفس ونوازع الحياة وتخلصت إلى حد كبير من الزخارف اللفظية المفسدة للمضامين [٢] ،وقد استطاعوا من خلال هذا الفن تحقيق نزعاتهم الذاتية فى مضمار التجديد ، واستطاعوا كذلك أن يصبوا خلاصة مشاعرهم وعصارة أفكارهم فى قالب شعرى غنى بالموسيقا

---

[١] . العصبة الأندلسية ، هجرة الأدب العربى إلى أمريكا الجنوبية د / نعيمة مراد ص ١٩١ . نشر منشأة المعارف ، الإسكندرية ١٩٧٧ م .

[٢] انظر أدب المهجر د / عيسى الناعورى ص ٢٣٠ . دار المعارف بمصر ،ط ٣ عام ١٩٧٧ م .

والألوان ، وبصورة ذات جدة وابتكار ، وبخاصة فيما اســتحدث من موضوعات .

وقد ترسم شعراء المهجر الجنوبى بخاصة خطى أســلافهم ، وظل شعرهم مرتبطا بماضيه وعناصره التقليديــة ، لدرجــة جعلت شعرنا العربى يترك بصمات واضحة فى شــعر هــؤلاء الشعراء ، ويضفى مسحة من سحره القديم وعراقته عليه[1] ، كل ذلك مع الاحتفاظ بأصالة المنطق الــذى ارتضــوه منــهجا فــى شعرهم.

وقد لجأ هؤلاء الشعراء إلى هذا الفن الشــعرى محافظــة منهم على ما ورثوه من أنماط التعبير ، وتأسيا بنظرائهم العــرب فى بلاد الأندلس .

والحق أن هذا الميراث الثقافى الذى جرى فى دمائــهم ، وارتوت به نفوسهم ، وكان له أكبر الأثر فى تكوين شخصياتهم ، كان دافعا جعل البعض يصف المهجريين بــالتقليد والاتباعيــة ، وجعله كذلك ينفى صفة الجدة والابتكار عن موشحاتهم .

وحين نستعرض موشحات المهجريين ، ونقف على نماذج منها بالدراسة والتحليل يتضح لنا أنهم حاولوا الاقتراب من النسق الموسيقى المعهود فى الشعر الأندلسى .

---

[1] انظر أدب المهجرين بين أصالة الشرق وفكر الغرب د / نظمى عبد البديع ص١٧٨ دار الفكر العربى دمشق ١٩٧٦ م .

وهذا نموذج من موشحة الشاعر المهجرى إلياس فرحـــات " يا حمامة " [١] ، يقول فيه :

يا عروس الروض يا ذات الجناح	يا حمـــــامـــة
سافرى مصحوبة عنـــد الصبـــاح	بالســـــلامة
واحملى شكوى فؤادى ذى جراح	وهيـــــامـــه
أسرعى من قبل أن يشتد الهجير	بالنـــــزوح
واسبحى ما بين أمـــواج الأثيـــر	مثـــل روحى
وإذا لاح لك الـــروض النضيـــر	فاستريحـــى
رفرفى فى روضة الأفق الجميل	واستكنــــى
وانظرى محبوبتـــى عند الأصيل	ثـــم عنـــى
خبريهـــا أن قلــب المستهـــام	ذاب وجـــدا
وسليهـــا كيــف ذيـــاك الغـــرام	صــــار وجـدا

وهذا نموذج آخـــر مـــن موشحـــــة القـــروى " تحيـــة الأندلس " [٢]، ومنه يقول :

خبرينـــا كيـــف نقريك السلاما
طيب النشر كأنفـــاس الخزامى
والشذا المحيى بسوريا العظاما
غادر الشـــام وبيروت وهامـــا
خبرينا كيف نقريـــك السلامـــا

***

يا بنت الزهـــراء يا أندلسيـــة
لم تزل فيك مـــن المجد بقيـــة
لمعت فيها السيـــوف المشرقية
ضاربـــــات بزنـــود عربيـــــة

---

[١] . ديوان فرحات ص ٤٨ . مطبعة مجلة (الشرق) سان باولو ١٩٣٢ م .

[٢] ديوان القروى (رشيد سليم الخورى) : ١ / ٤١٥ . منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، الطبعة السادسة ١٩٨٣ م .

فعلى مثلـــك لا تلقـــى التحيـــة
خبرينا كيـــف يقريـــك السلاما

***

فالموشحة الأولى نظمت فى غـــرض الحنيـــن واختـــار الشاعر لها (مجزوء الرمل) وهو بحر يتناسب مع انفعال النفس ودواعى الطرب والهيام والحنين ، هذا فضلا عن الجمال النـــاجم عن المقاطع الرشيقة الإيقاع ، الوافرة الإيحاء [1] ، يضاف إلـــى ذلك تفنن الشاعر بطريقة ذات جدة وابتكار فى توزيع تفعيلاته .

والناظر للقافية يرى الشاعر يقسم القصيـــدة إلـــى أقســـام تختلف القوافى بين أجزائها ، وهذا تصرف يكسب القافية تركيبـــا إيقاعيا ثابتا فى كل قسم ، والشاعر باختياره للحروف والألفـــاظ ، وبالملاءمات الصوتية التى أحدثها للأشطر يجعل موشحته تتدفـــق بأرق النغمات العاطفية وأعذبها .

أما موشحة القروى والتى نظمت فى موضوع وطنـــــى ، فإن صياغتها الموسيقية أقرب شبه بالموشحات الأندلسية ، ســـواء من حيث التنويع الذى أحدثه الشاعر بيـــن القوافـــى فـــى أدوار الموشحة وأقفالها ، أومن حيث تزيينها بالألفاظ الرقيقة والصـــور البديعة ، هذا فضلا عن استحدام الشـــاعر للألفـــاظ المتجانســـة وحرصه على التناظر الموسيقى النـــاجم عـــن تـــوازن أشـــطر الموشحة .

وهكذا استحدم الشاعر المهجرى الموشحات على نطـــاق واسع ، وتفنن بالقوافى الشعرية المتوارثة ، وتخلص إلى حد مـــا من الأجزاء التقليدية التى اتسمت بها الموشحة الأندلسية وتحـــرك

---

[1] انظر الشعر العربى فى المهجر الأمريكى ، وديع أديب ص ٦١ . دار الريحان ، بيروت ١٩٥٥ م .

باجتهاد داخل إطار التنويعات التى لجأ إليها الوشاحون [١]،حتى وصل بموشحته إلى صورة ذات جدة وابتكار أكثر حيوية مما عرفته الموشحات الأندلسية ، وتجاوز بالموشحة الموضوعات الأندلسية إلى النظم فى موضوعات الحنين والتأمل ، والفلسفة والأخلاق ، وغير ذلك من الموضوعات التى لم تطرق من قبل .

والحق أن الموشح الأندلسى بموسيقاه وأوزانه وتحرره الفنى ، واختيار ألفاظه وأساليبه ،كان أهم نموذج تجديدى أمام الأدباء المهجريين الذين شاركوا الأندلسيين فيه [٢] ، والشاعر المهجرى متأثر فى كل ذلك بالشاعر الأندلسى ، من حيث العاطفة القومية والإحساس الوطنى [٣] ،ومن حيث رقة الألفاظ وجزالتها ، والعمق والبساطة ، وتصور خلجات النفس ونبضات الحس ، ونزعات العواطف ، وغير هذا وذاك من ملامح الشعر الأندلسى [٤] ، ولعل هذه الدرجة من التأثر هى التى جعلت البعض يحكمون على حركة التجديد فى الشعر المهجرى بأنها امتداد لانطلاقة شعراء الأندلس ، وإن حوى الشعر المهجرى أفكارا أعمق وصورا أكثر تجديدا من الأندلسيين [٥] .

---

(١) انظر التجديد فى شعر المهجر د / أنس داود ص ٣٥٤ دار الفكر العربى ط أ ١٩٥٧ م .

(٢) انظر قصة الأدب المهجرى د / خفاجى ص ١٥١ . دار الكتاب اللبنانى ،بيروت بدون تاريخ .

(٣) انظر أدب المهجر د / عيسى الناعورى ص٢٤٦ .

(٤) انظر الأدب العربى فى المهجر د / حسن جاد ص٤٣٤ دار قطرى بن الفجاءة ، الدوحة ١٩٨٥ م .

(٥) انظر أدب المهجر د / عيسى الناعورى ص ٢٣٠ ومابعدها .

الزجـــل

إن الحديث عن الزجل والعلاقة بينه وبين الموشح حديـــث تجاذبته وجهات نظر متعددة ، وإذا كانت هنــــاك وجهـــة نظـــر منطقية تميل إلى أن الموشح والزجل قد ظهرا معا فى وقت واحد فإن المشهور بين الأدباء والنقاد أن الموشح قد تقدم على الزجـــل وسبقه .

يؤكد ذلك ويعضده قول ابن خلدون [١] :

" ولما شاع فن التوشيح فى أهـــل الأندلـــس وأخـــذ بـــه الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه ، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ، ونظموا فـــى طريقتـــه بلغتـــهم الحضرية مـــن غير أن يلتزموا فيها إعرابا ، واستحدثوه فـــن سموه "الزجل".

فهذا القول صريح فى أسبقيه الموشح!

ولكننا حين نقرأ الموشحات الأولى نجدهـــا تســتند إلـــى المركز العامى ، وهو المعبر عنه اصطلاحا بالخرجة ، وقد نص على ذلك ابن بسام حين قـــال فـــى الذخـــيرة عـــن أول مـــن نظم الموشحات:

" وكان يضعها على أشطار الأشعار غير أن أكثرها علـــى الأعاريض المهملة غير المستعملة يأخذ اللفظ العامى والعجمـــى ويسميه المركز ، ويضع عليـــه الموشـــحة دون تضميـــن فيـــها ولا أغصان " .

---

[١] مقدمة ابن خلدون : ٣ /٤٠٤ . تحقيق المستشرق كاترمير ط باريس ١٨٥٨ م.

وقد احتضنت الموشحات فى الخرجة ألفاظا عامية غـــير عربية ، وهذه الألفاظ كانت تشكل الحلقة الوسطى بيـــن الشــعر الفصيح والشعر العامى الذى اصطلح على تسميته بالزجل ، يقول ابن سناء الملك [١] :

" والخرجة هى إبراز الموشح وملحه وســكره ، ومســكه وعنبره وهى العاقبة ، وينبغى أن تكون حميـــدة والخاتمـــة بـــل السابقة إن كانت الأخيرة ...وقولى السابقة لأنها التى ينبغـــى أن يسبق الخاطر إليها ويعملها من ينظم الموشح فى الأول ، وقبـــل أن يتقيد بوزن أوقافية وحين يكــون مســببا مرحـــا ،ومتبحبحـــا منفسحا ، فكيف جاء اللفظ والوزن خفيفا على القلب أنيقـــا علـــى السمع ، مطبوعا عندالنفس ، حلوا عند الذوق تناولـــه وتنولـــه ، وعامله وعمله ، وبنى عليه الموشح لأنه قد وجد الأساس وأمسك الذنب ، ونصب عليه الرأس "

والذى لاشك فيه أنه كان لحياة اللهو والمجون التى كـــانت منتشرة فى الأندلس أثر فى اختراع الزجل وظهوره فـــى تلـــك الأرض ذات الطبيعة الوارفة الظلال التى تساعد علـــى الســـمر والغناء ، وهذا يدعونا إلى أن نقول إذا كان انتشار الغنـــاء فـــى الأندلس قد استدعى ظهور الموشح ، فإنه أيضا قد ساعد بشـــكل أو بآخر على ظهور الزجل وانتشاره .

وقد اشتهر فى الأندلس عدد من الزجالين منهم : أبو بكـــر محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان الأصغر ، وأحمـــد بـــن

---

[١] دار الطراز ص ٣٢ تحقيق جودت الركابى ط دمشق .

الحاج ، وابن غرله ، وابن جحدر الإشبيلى ، وأبو زيد الحداد ، وأبو عبد الله محمد بن حسون الحلا ، وأبو عمرو الزاهد ، وأبو بكر الحصار ، وأبو عبد الله بن خاطب ، وأبو بكر بن صارم الإشبيلى ، والحسن بن أبى نصر الدباغ [١].

ومما قاله ابن قزمان من الزجل [٢] :

حبيبى كبش العيد أنا حريفك
لس تصطحى تنفر ؟ ارحم ضعيفك
اش حال جبينك إش حال صديقك
اش حال شوايتك اش حال قديدك

****

من يرانى ثالث العيد وأنا نقطع ونشوى
وترى كبش معلق والقطيطس تحت يعوى
وأنا عريان فى السراول أو فى منديل خبز ملوى
وأنا نصهل إن عرس ماعى أو عقيقه

ومن الزجالين من قدم ملحه وطرائفه فى وصف الطبيعة ، فهذا هو أبو على بن الدباغ يقول [٣] :

لا شراب إلا فى بستان	**والربيع قد فاح نوار**
يبكى الغمام و يبكى	**أقحوان مع بهار**
والمياه مثل الثعابين	**فى ذاك السواقى داروا**
والنسيم عذرى الأنفاس	**قد نحل جسم وقد رق**
وعشية مليح فتنة	**عنه المسك ينشق**

---

(١) الأدب الأندلسى موضوعاته وفنونه د / الشكعة ص ٤٤٩ .

(٢) الزجل فى الأندلس. د/ عبد العزيز الأهوانى ص ٧٨ ، ٧٩ ط القاهرة عام ١٩٥٧ م.

(٣) المغرب فى حلى المغرب : ٤٣٨/١.

والطيــورتحكى المثـــانى　　　وتـــسقها أحسن سياقا
فى ثمـــارا يلهمـــــون　　　لزمـــان العشـــق طاقـــا

فغصـــن لآخـــر يقبـــل　　　وقـــضيـــب لآخر يعنق
وشعاع الشمس قد غاب　　　وبقـــا فالجو نـــــور
والشفق فالغرب ممـــدود　　　قـــد كتـــب بزنجفـــور
أحرفـــا تقـــرى وتفهـــم　　　فتراهـــم فـــى سطـــور

السمـــاك ميمـــا مـــدور　　　والهلال نونا يعنـــــق
ونحن فى طيـــب مـــدام　　　قوم جلوس وآخر يميل
ونديـــم يسقى نـــــديـــم　　　وخليل يهـــوى خليـــل
وعـــذار الليل قـــد شاب　　　لمـــا أن دنـــا رحيـــــل
ودليل الصبـــح قـــدام　　　قـــد ركـــب جوادا أبلق

وعن بناء الزجل يقول الدكتور مصطفى الشكعة (١):

" هذا والزجل من حيث بناؤه يخضع لبعض القيود التـــى تخضع لها الموشحة ، ولكن قيوده أوتكوينه أخف قليلا من تلـــك التى تخضع لها الموشحة .

فالزجل يستفتح كالموشحة بالمذهب أوالمطلع الذى يتكـــون عادة من أربعة أغصان ، يلى ذلك الدور ، وكل دور ينتهى بقفـــل يكون مكونا من غصنين اثنين وتكون قافية القفل متحدة مع قافيـــة المطلع .

(١) الأدب الأندلسى موضوعاته وفنونه ص ٤٦٢ .

أما الأدوار فإن لكل واحد منـــها قافيتـــه الخاصـــة بـــه ، ويتكون الدورعادة من ثلاثة قسيمات ، تكـــون أحيانـــا قســـيمات بسيطة ، وأحيانا قسيمات مركبة ، وفى هذه الحالة الأخيرة يكـــون الدور مكونا من ستة أسماط ، ووحدة القافية أمر أساســــى فـــى الدور إذا كان بسيطا ، وفى أعجاز المصراعات إذا كان مركبـا ، وينتهى الزجل عادة بخرجة من بحر وقافية المطلع والأقفال .

هذا وفى القليل النادر تكون الأقفال أوالخرجة مكونة مـــن أربعة أغصان مثل المطلع ، فإن الكثرة من الزجالين لم يراعـــوا هذه القاعدة واكتفوا بالأقفال والخرجة البسيطة " .

هذا ولا يمكننا أن نقول الكلمة الأخيرةعن الزجـــل ،وقـــد ذكر ابن سناء الملك فى كتابه " دار الطراز " كلاما وافيـــا عـــن الزجل ، كما ذكر أمثلة على جميع ما ذكرنا ، يمكـــن الرجـــوع إليها لتسهيل الإيضاح فى أمور كثيرة مثل :

ــ هل يعد الزجل نوعا أدبيا جديـــدا فـــى حقـــول الأدب الأندلسى ؟

ــ أم أنه يعد ظاهرة انتكاس وتحلف ؟!

الفصل الرابع

النثر الفنى فى الأندلس

توطدت الصلة الثقافية والأدبية بين المشرق والمغـــرب ، وكثر الوافدون من أهل الشرق إلى الأندلس ، ولذلك تأثر النـــثر فى الأندلس بالنثر فى المشرق العربى ، بل إن أى تطـــور فـــى النثر المشرقى كان ولابد أن تنعكس آثاره على أهل الأندلس .

ومن ينظر حياة أهل الأندلس يجد أن الترف قد دب فـــى نفوس الأندلسيين وعقولهم ، كما دب فى حياتهم ومجتمعاتـــهم ، ونضجت عقولهم ، وتهذبت أفكارهم ، واتســـع أفـــق خيالـــهم ، واشتغلوا بالتأليف والكتابة والعلم ، فانتقلت إليهم تلـــك الصبغـــة الفنية فى النثر بمذاهبها وألوانها وأغراضها .

وقد امتاز كثير من كتاب الأندلس بجمعهم بيـــن الشـــعر والنثر ، كابن زيدون ، وابن شهيد ، وابن برد ، ولسان الدين بـــن الخطيب ، ورأينا النثر عندهم يناهض الشعر فى أغراضه ، بـــل يفوقه عند البعض منهم من حيث تجدد الموضوعات .

وما من شك فى أنه كان لهذا الجمع بين الفنين أثره الكبير فـــى صبغ النثر بالصبغة الشعرية ، مما أعطاه جمالا ودقـــة وحســـن اختيار للألفاظ والأساليب .

كذلك كان لطبيعة بلاد الأندلس الجميلة أثر واضـــح فـــى اتساع خيال الأدباء وتفكيرهم ، كما كان لها أثـــر فـــى اتســـاع أغراض النثر عندهم ، فقد تعدوا به حياة اللهو واللعب والمـــرح والاستعطاف إلى حيث كان مظهرا لحياتهم الاجتماعية والسياسية

والفكرية ، فطرقوا الموضوعات الاجتماعية والأدبية العامة بشكل قصصى كرسالة ابن شهيد ، وكرسالة أبى محمد بن حزم .

كما كان للطبيعة الأندلسية أثر بالغ فى إمعان الأندلسيين فى ضروب الخيال ، فكتبوا فى المناظرات الخيالية ، وإنك لتجد أثر اتساع الخيال والبيئة فى مثل ما كتبه ابن برد الأصفر فى المناظرة بين السيف والقلم ، أوفيما كتبه فى تفضيل الورد على غيره ، وفى المناظرة بين بلدان الأندلس لأبى بحر بن صفوان ابن إدريس ، وفى رسالة ابن زيدون الهزلية ، ورسالة التوابع والزوابع لابن شهيد .

وأهم فنون الأدب الأندلسى :

(١) الخطابة :

والحق أن العرب عندما دخلوا الأندلس فاتحين توفرت لهم دواعى الخطابة بسبب الخصومات السياسية والعنصرية والقبلية التى كانت بين العرب أنفسهم من جهة ، أوبينهم وبين البربر من جهة أخرى ، هذا فضلا عن أنهم كانوا بطبيعتهم ميالين إلى الخطابة ،ثم ازدهرت الخطابة فى عصر الولاة بسبب ما أصاب ذلك العصر من اضطراب وحروب وصراع بين العصبيات العربية ، وصارت من موضوعات النثر الرئيسية .

ومن أشهر خطباء الأندلس : طارق بن زياد فاتح الأندلس ، والأمير عبد الرحمن الداخل مؤسس الحكم الأموى فى الأندلس ، ومنذر بن سعيد البلوطى ، والقاضى عياض ، ولسان الدين بن الخطيب .

وقد امتازت الخطبة الأندلسية فى تلك الفترة بالوضوح والسهولة والإيجاز والبعد عن التكلف ، لأن الخطباء من الأمراء والولاة والقادة كانوا عربا مطبوعين على الخطابة والارتجال .

وعندما عادت الأمور فى الأندلس إلى الاستقرار ومال الناس إلى الدعة ضعفت الخطابة ، وتفوق الشعر والنثر الفنى على الخطابة ، وتستثنىمن هذا الحكم الخطابة الدينية فإنها لم تضعف بل ازدهرت ، وحسبنا أن نعرف الفضل الذى كان لبعض العلماء الذين كانوا يجيدون الخطابة من أمثال القاضى منذر بن سعيد البلوطى .

لكن الأندلس حينما عادت إلى الاضطراب مرة أخرى وبخاصة فى عصر ملوك الطوائف والمرابطين والموحدين أخذت الخطابة فى الضعف ، وبدأت تمتلئ بالسجع المتكلف ، ودخلها كثير من الصنعة اللفظية ، ولم يعد لها من تاثير يذكر .

ومن خطبة طارق بن زياد فاتح الأندلس[1]:

" أيها الناس : أين المفر، البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه،وأقواته موفورة وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم،ولا أقوات لكم إلا ما تخلصونه من أيدى أعدائكم .

---

[1] نفح الطيب : ١ / ٢٢٥ . والواقع أن هذه الخطبة المنسوبة إلى طارق بن زياد قد اكتنف صحة نسبتها إليه كثير من الشكوك (انظر النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى د / زكى مبارك : ١/ ١٢٢ ط ٢ مطبعة السعادة ١٩٣٤ م ، والتاريخ الأندلسى ، عبد الرحمن الحجى ص ٥٨ – ٦١ . دار القلم الكويت – الرياض ط أ ١٣٩٦ هـ ١٩٧٦ م ، والأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة ، أحمد عبد المقصود هيكل ص ٧٨ – ٨٣ دار المعارف بمصر ط ٣ عام ١٩٦٧ م) .

وإن امتدت لكم الأيام على افتقاركم ، ولم تنجزوا لكم أمرا ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكـــم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمنـــاجزة هــذا الطاغية ، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة .

وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بـــالموت ،وإنى لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة ، ولاحملتكم علـــى خطـــة أرخص فيها متاع النفوس إلا وأنا أبدأ بنفسى ، واعلموا أنكـــم إن صبرتم على الأشق قليـــلا استـــمتعتم بالأرفـــه الألـــذ طويـــلا ، فلاترغبوا بأنفسكم عن نفسى ، فما حظكم فيه بأوفى من حظى .

وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان مـــن بنات اليونان الرافلات فى الدر والمرجان ، والحلـــل المنســـوجة بالعقيان ، والمقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان ، وقـــد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عزبانـــا ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا ... ليكـــون حظـــه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته ، وإظهار دينه بهذه الجزيـــرة ، وليكون مغنمها خالصا لكم من دونه ومن دون المؤمنين ســـواكم ، والله تعالى ولى إنجادكم على ما يكون لكم ذكرا فى الدارين .

واعلموا أنى أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه ، وأنى عنـــد ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق فقاتلـــه إن شاء الله تعالى ، فاحملوا معى ، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه ، واكتفوا الهم مـــن فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يخزلون " .

ومن خطبة منذر بن سعيد البلوطى عندمـــا حضـــر إلـــى قصر عبد الرحمن الناصر رسل ملك الروم :

" أما بعد حمد الله والثناء عليه ، والتعداد لآلائه ، والشـكر لنعمائه ، والصلاة والسلام على محمد صفيه وخاتم أنبيائه ، فـإن لكل حادثة مقاما ، ولكل مقام مقالا ، وليس بعد الحق إلا الضـلال ، وإنى قد قمت فى مقام كريم ، بين يدى ملك عظيم ، فـأصغوا إلى معشر الملأ بأسماعكم ، وافقهوا عنى بأفئدتكم .

إن من الحق أن يقال للمحق صدقت ، وللمبطل كذبـت ، وإن الجليل تعالى فى سمائه وتقدس بصفائه وأسمائه ، أمر كليمـه موسى صلى الله على نبينا وعليه وعلى جميع أنبيائـه أن يذكـر قومه بأيام الله جل وعز عندهم ، وفيه وفى رسول الله صلـى الله عليه وسلم أسوة حسنة .

و إنى لأذكركم بأيام الله عندكم ، وتلافيه لكم بخلافة أمـير المؤمنين التى لمت شعثكم ،وأمنت سربكم ، ورفعت قوتكم ، بعـد أن كنتم قليلا فكثركم ، ومستضعفين فقواكم ،ومستذلين فنصركـم ولاه الله رعايتكم ، وأسند إليه إمامتكم ، أيـام ضربـت الفتنـة سرادقها على الآفاق ، وأحاطت بكم شعل النفاق ، حتى صرتـم فى مثل حدقة البعير ، من ضيق الحال ونكد العيش والتغيـير ، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء ، وانتقلتم بيمن سياسته إلـى تمهيد كنف العافية بعد استيطان البلاد .

أنشدكم بالله معاشر الملأ : ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها ، والسبل مخوفة فأمنها ، والأموال منتهبة فأحرزها وحصنـها ؟ ألم تكن البلاد خرابا فعمرها ،وثغور المسلمين مهتضمة فحماهـا ونصرها ؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته ، وتلافيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته ، حتى أذهـب الله عنكـم غيظكـم وشـفى صدوركم ، وصرتم يدا على عدوكم ،بعد أن كان بأسكم بينكم .

فأنشدكم الله : ألم تكن خلافته قفل الفتنة بعد انطلاقها من عقالها ؟ ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها ، ولم يكل ذلك إلى القواد والأجناد حتى باشره بالقوة والمهجة والأولاد ، واعتزل النسوان ، وهجر الأوطان ورفض الدعة وهى محبوبة ، وترك الركون إلى الراحة وهى مطلوبة ،بطوية صحيحة ، وعزيمة صريحة .. متجملا للنصب ، مستقلا لما ناله فى جانب الله من التعب ، حتى لانت الأحوال بعد شدتها ، وانكسرت شوكة الفتنة عند حدتها فأصبحتم بنعمة الله إخوانا وبلم أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعوانا ،حتى تواترت لديكم الفتوحات ، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات ، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم ، وآمال الأقصين والأدنين متجهة إليه وإليكم ، يأتون من كل فج عميق وباد سحيق ، للأخذ بحبل بينه وبينكم جملة وتفصيلا ، ليقضى الله أمرا كان مفعولا ، ولن يخلف الله وعده ولهذا الأمر ما بعده ..

فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم ،والتزام الطاعة لخليفتكم وابن عم نبيكم صلى الله عليه وسلم ، فإن من نزع يدا من الطاعة ، وسعى فى تفريق الجماعة ، ومرق من الدين ، فقد خسر الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين ، وقد علمتم ما أحاط بكم فى جزيرتكم هذه من ضروب المشركين ، وصنوف الملحدين الساعين فى شق عصاكم ، وتفريق ملاكم ، الآخذين فى مخاذلة دينكم ، وهتك حريمكم ، وتوهين دعوة نبيكم صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين والمرسلين ، أقول قولى هذا وأختم بالحمد لله رب العالمين ،مستغفرا الله الغفور الرحيم ، فهو خير الغافرين ".

ومن خطبة الأمير عبد الرحمن بن الحكم بعد وفاة والـــده ومبايعة الناس له [١] :

" الحمد لله الذى جعل الموت حتما من قضائه ، وعزمـــا من أمره ، وأجرى الأمور على مشـــيئته ، فاســـتأثر بـــالملكوت والبقاء ، وأذل خلقه فيما لهم من نجاة من الفناء ، تبارك اســـمه وتعالى جده ، وصلى الله على محمد نبيه ورسوله وسلم تسـليما ، وكان مصابنا بالإمام – رحمه الله – مما جلـــت بـــه المصيبـــة وعظمت به الرزية ، فعند الله نحتسبه ، وإياه نسأل إلهام الصبر ، وإليه نرغب فى كمال الأجر والذخر ، وعهد إلينا فيكم بما فيـــه صلاح أحوالكم ، ولسنا ممن يخالف عهده بل لكم لدينا المزيـد إن شاء الله " .

ونحن إذا استعرضنا الخطابة فى الأندلـــس بيـــن القـــوة والضعف ، نجد أن العناية بها قد ازدادت فى القرن الرابع مـــن حيث الشكل والمضمون ، وتفسير ذلك إنما يرجع إلـــى ازدهـــار الحياة وتقدم الثقافة وتطورها ، هذا فضلا عن اشـــتداد دواعيـــها وأسبابها .

ونحن إذا استعرضنا النماذج المتوفرة فى خطب العصـــر الأندلسى لوجدناها تقترب كثيرا فى أسلوبها من أسلوب الخطـــب المشرقية ، فهى تستهل بالحمد لله والصلاة والسلام على الرسـول ، وتعتمد كثيرا على السجع المقبول الذى لاينبو بالفطرة الســليمة ولا يجافى الذوق ، وقد تجنح عباراتها نحـــو الطـــول والتكـــرار أحيانا كما كان الحال فى جمل الجاحظ وعباراته وأسلوبه .

---

[١] البيان المغرب ، للمراكشى : ٢ / ١٣٥ .

ويستطيع الباحث فى الخطابة فى عصر الخلافة أن يلاحظ زيادة العناية بالسجع ، والتأثر بأساليب المشارقة من حيث فخامة العبارة ، واعتماد السهولة والوضوح فى المعنى هذا فضلا عن الأغراض والموضوعات الشائعة فى المشرق .

(٢) الكتابة الأدبية:

اشتغل الوافدون من اهل الشرق إلى الأندلس بالتأليف والكتابة والعلم ، وفى كثير من الأحيان يجنح كبار الشعراء أنفسهم إلى النثر الفنى يؤدون به من الأغراض ما يمكن أن يؤدى بالشعر ومالا يمكن .

والذى لا يمكن تجاهله أن الكتابة الأدبية فى عصر الولاة وفى بداية الحكم الأموى كانت محدودة الأغراض ، لاتتعدى القدر الذى تدعو إليه ضرورات الحياة ، كالمكاتبات الرسمية ، والعهود والرسائل الإخوانية ، وكانت الكتابة آنذاك نقية مشرقية ، تتمثل فيها فطرة الأندلسيين المثقفين بالثقافة العربية الخالصة ، وعروبتهم المتحضرة بحضارة الطبيعة الصافية .

وكان أسلوبها يميل إلى الوضوح والبعد عن الصناعة اللفظية، كما برئ من تعقيد الأساليب المنطقية ، والتواء العبارة المتفلسفة، وقد لبثت لغة الكتابة تبعد عن التكلف إلى أن هبت رياح الصنعة اللفظية من المشرق على الأندلس ، فأغرم بعض الكتاب بالصناعة وكلفوا بها ، وأخذوا يتأنقون فى فقراتهم حتى صارت لازمة لا تفارق أقلامهم ، وقد تبلور الأمر أكثرفأكثر لدرجة جعلت من كتاب الأندلس من يقلد ابن العميد والصاحب بن عباد والقاضى الفاضل وغيرهم .

ويمكننا أن نقسم الكتابة الأدبية إلى :

(أ) الرسائل الديوانية

وهى رسائل رسمية تصدر من الديوان الحاكم إلى ولاة الأقاليم أو قادة الجيوش ، ومنها كذلك ما يرسل إلى الخارجين على السلطة ، المناوئين لها .

وكلها تدور حول وعود ومواثيق يقطعها الحاكم إلى الولاة أو إلى القادة المنفصلين عن حكمه ، وإلى العرب النازلين بأطراف مختلفة من الأندلس ، يطلب منهم النصر والتأييد ، أو يخوفهم ويحذرهم .

وكان من هذه الأغراض والموضوعات : رسائل التولية والعزل ، ورسائل العهود والمواثيق ، ورسائل المديح والمودة بين الأمراء أنفسهم ، ومخاطبة الخارجين والمتمردين ، ورسائل التهانى والتعازى ، ورسائل الاستغاثة والشفاعة والعتب والاعتذار .

ويمكن القول إن هذه المراسلات هى أهم الموضوعات النثرية فى عهد الدولة الأموية ، وذلك نظرا لكثرة الاضطرابات فى أرجاء بلاد الأندلس ، ويظهر أن معظم هذه المراسلات كانت تدور حول أوامر وتوجيهات سياسية أوعسكرية ، يرسلها الأمير إلى عماله أوقواده فى أرجاء الأندلس ، أو توجيهات من السلطة المركزية لهم فى هذه الأمور .

وأسلوب هذه الرسائل لا يخلو من لمحات أدبية وخصائص بيانية تدل على فصاحة وبيان وعناية بوضوح العبارة وقوة تأثيرها ، والبعد عن الخيال والصنعة .

ومن أشهر كتاب هذا النوع من الرسائل الديوانيـــة ابـــن زيدون ، وابن برد الأصغر ،ولسان الدين بن الخطيب .

ومن نماذج الرسائل الديوانية رسالة كتبها لسان الدين بـــن الخطيب على لسان السلطان محمد الغنى بالله بن الأحمر حــــاكم غرناطة .

ومنها :

" أيها الناس ، ضاعف الله بمزيد النعم سروركم ، وتكفــل بلطفه الخفى مثل هذا القطر الغريب أموركم.

أبشركم بما كتب به سلطانكم السعيد إليكم ، المترادفة بيمنه وسعادته نعم الله عليكم ، أمتع الله الإسلام ببقائه ، وأيـــده علـــى أعدائه ، ونصره فى أرضه بملائكة سمائه . وأن الله تعالى فتـــح له الفتح المبين ، وأعز بحركة جهاده الديـــن ، وبيـــض وجـــوه المؤمنين ، وأظفره بطرير البلد الذى فجـــع المســـلمين بأســـرهم فجيعة تثير الحمية ، وتحرك النفس الأبية ، فانتقم الله تعالى منـــهم على يده ، وبلغه من استئصالهم غاية مقصده ، فصدق أمـــن الله تعالى لأوليائه ، وعلى أعدائه الوعد والوعيد ، وحكى بإبادتـــــهم المبدئ والمعيد ، " وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمـــة إن أخذه أليم شديد ".

وتحصل من سببه بعدما رويت السيوف من دمائـــهم آلاف عديدة ، لم يسمع بمثلها فى المدد المديد ، والعهود البعيدة ، ولـــم يصب من إخوانكم المسلمين عدد يذكر ، ولا رجل يعتبر.

فتح هنى ، وصنع سنى ، ولطف خفى ، ووعـــد وفـــى ، فاستبشروا بفضل الله تعـــالى ونعمتـــه ، وقفـــوا عنـــد الافتقـــار والانقطاع لرحمته ، وقابلوا نعمه بالشكر يزدكم ، واســـتبصروا

فى الدفاع عن دينكم ينصركم ويؤيدكم ، واغتبطوا بـــهذه الدولـــة المباركة التى لم تعدموا من الله تعالى معها عيشا خصيبـــا ، ولا رأيا مصيبا ، ولا نصرا عزيزا ، ولا فتحا قريبا ، وتضرعوا فى بقائها ونصر لوائها إلى من لم يزل سميعا للدعاء مجيبـــا ، والله عز وجل يجعل البشائر الفاشية فيكم عادة ، ولا يعدمكم ولا أولـــى الأمر منكم توفيقا وسعادة ، والسلام الكريم يخصكم ، ورحمـــة الله تعالى وبركاته من مبلغكم ذلك فلان ".

ومن هذه الرسائل رسالة أو وثيقة كتبها عبد العزيز بـــن موسى بن نصير إلى تودمر أحد حكام القوط يقر له فيها بعهد الله وذمته والمحافظة على حياته وحيـــاة رعيتـــه وحريـــة تعبدهـــم واعتقادهم ، ماداموا محافظين على العهد متجنبين كل خيانـــة أو غدر أو نقض للعهد .

يقول فيها[1]:

" بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد العزيز إلى تدمـــير ، إنه نزل على الصلح وإن له عهد الله وذمته ألا ينزع عن ملكـــه ولا أحد من النصارى عن أملاكه ، وأنهم لايقتلون ولا يســـبون أولادهم ونساؤهم ، ولا يكرهـــون علـــى دينـــهم ، ولا تحـــترق كنائسهم ما تعبد ونصح وأنه لا يأوى لنا عدوا ولا يخون لنا أمنا، ولا يكتم خبرا علمه.... "

ويدخل فى هذا النوع الوصايا التى كان بعـــض الأمـــراء يوجهها لقواده فى المعركة ، أو يوجهها لولى عهده يبين له مـــا

---

[1] نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار ، لابن الدلائى ، تحقيق د / عبد العزيز الأهوانى . ص ٨٠ ، ٨١ . مطبعة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٦٥ م .

ينبغى أن يفعله عند تولية زمام الأمــور ، ويلفــت نظـــره إلــى الاعتماد على مشورة أهل الثقة ، والبعد عن أهل الغدر والخيانة.

ومن ذلك تلك الرسالة التى أرسلها الحكم لابنه يرسم لـــه فيها الخطوط العامة للسياسة التى ينبغى أن يسير عليها من بعده. يقول[1]:

" إنى قد وطدت لك الدنيا ، وذللت لك الأعداء ، وأمنــت عليك الخلاف والمنازعة ، فاجر على ما نهجته لك من الطريقــة، واعلم أن أولى الأمور بل وأوجبها عليك حفظ أهلك ثم عشــيرتك، ثم الذين يلونهم من مواليك وشيعتك ، فبهم أنزل ثقتك ، وإيـــاهم واس من نقمتك..".

والملاحظ أن الرسائل كانت وما تزال تعــبر عــن حيــاة الأمراء الأندلسيين ، وطبيعة العلاقات التى تربط بينــــهم وبيــن مجتمعاتهم ، وهى فضلا عن ذلك كله تمتاز بالوضوح والبساطة، والميل إلى شىء من الإطناب ، كما يلاحظ طابع الحرص علـــى العناية باللفظ واختياره .

(ب) الرسائل الإخوانية

وهى الرسائل التى تكون بين الإخوان والأصدقـــاء فـــى أمور الدنيا وقضايا اجتماعية مختلفة ،وغالبا ماتكون بين الأدبـــاء أنفسهم ، أو بينهم وبين إخوان وأصدقاء لهم من القضاة والعلمــاء وغيرهم ، وتكون فى التهنئة أو فى التعزيـــة ، أو الشــوق ، أو الشكر أو العتاب ومالإلى ذلك .

---

[1] الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة ، د / أحمد هيكل ص ١١٢ .

ومن هذه الرسائل ما كان يدور بين أديبين ، ومن ثم كانت ميدانا فسيحا للإبداع الأدبى ، يظهر فيها كل أديب براعته للآخر ، ويرتفع بمستوى رسالته إلى آفاق سامية من الإبداع والخيال .

ولما كانت موضوعات الرسائل الإخوانية إنما تصور العلاقات الاجتماعية ، وأساليب التخاطب بين الأصدقاء والأتراب ، فإن هذا يعنى أن تكون هذه الموضوعات ممايشيع بين الناس فى علاقاتهم وأساليب تعاملهم ، وفى مقدمة ذلك تصوير عواطف الإخاء والمودة ، ومشاعر المحبة المتبادلة ، والوفاء والإخلاص .

وهذه الرسائل بتغطيتها العلاقات المختلفة بين الناس تقترب كثيرا من الرسائل الاجتماعية فى التعبير عن العلاقات التى تربط بين أفراد المجتمع ، تلك العلاقات التى تقوم فى الغالب على المودة الخالصة والحب الصادق والوفاء الحق .

ومن كتاب الرسائل الإخوانية : ابن زيدون ، وابن برد الأصغر ،والفتح بن خاقان ، ولسان الدين بن الخطيب .

ومن نماذج الرسائل الإخوانية رسالة أبى حفص بن برد الأصغر إلى صديق له يعاتبه . ومنها يقول :

" أظلم لى جو صفائك ، وتوعرت على أرض إخائك ،وأراك جلد الضمير على العتاب ، غير ناقع الغلة من الجفاء ، فليت شعرى ماالذى أقسى مهجة ذلك الود ، وأذوى زهرة ذلك العهد ؟

عهدى بك وصلتنا تفرق من اسم القطيعة ، ومودتنا تجل عن صفة العتاب ، ونسبة الجفاء ، واليوم هى آنس بذلك من الرضيع بالثدى ، والخليع بالكاس ، وهذه ثغرة إن لم تحرسها

المراجعة ، وتدك فيها عيون الاستبصار ، توجهت منها الحيـــل على هدم ما بيننا ، ونقص ما اقتنينا ، وتلك ناعيـــة الصفــاء ، والصارخة بموت الإخاء .

لا أنتبذ – أعزك الله – من الكتاب إليك ، وإن رغم أنــف القلم ، وانزوت أحشاء القرطاس ، وأخرس فم الفكر ، فلم يبــق فى أحدها إسعاد لى على مكاتبتك ، ولا بـشاشة عنـد محاولـة مخاطبتك ، لقوارص عتابك ، وقوارع ملامك ، التى قـد أكلـت أقلامك ، وأغصت كتبك ، وأضجرت رسلك .

وكثيرا ما يكون عتاب المتصافين حيلة تسير المودة بـها ، وتستثار دفائن الأخوة عندهما ، كما يعرض الذهب على اللـهب ، وقد يخلص الود على العتب خلاص الذهب على السبك ، فأما إذا أعيد وأبدى ، وردد وولى ، فإنه يفسد غرس الإخاء ، كما يفسـد الزرع توالى الماء " .

(٣) المنـــاظـــرات

المناظرات الأدبية وألوان الحوار مما كان يحصـــل بيــن الأدباء فى الأندلس ميدان فسيح للإبداع .

ولأدباء الأندلس مناظرات أدبية كثيرة أجادوا فيها وأبدعوا ، وقد يفاضلون فيها بين المشرق والأندلس ، كما فعل الإمام ابــن حزم فى كتابه " فضائل الأندلس " ، وكما فعل أبو الوليد إسماعيل الشقندى . وقد يفاضلون كذلك بين مدن الأندلس كما فى رســالة الأديب أبى بحر بن إدريس إلى الأمير عبد الرحمن بن يوســف الموحدى ، أويبين أنواع الورود والزهور والفواكه . وقد تكــون المناظرة خيالية كتلك التى عقدها ابن برد الأصغر بين الســيف

والقلم ، وحسب مايرويه ابن خاقان فإن ابن برد برسالته هذه كان أول من أوضح الفرق بين السيف والقلم [١] .

وفيها يقول [٢]:

" أما بعد حمد الله بجميع محامده وآلائه ، والصلاة على خاتم أنبيائه ، فإن التسابق من جوادين سبقا فى حلبة ، وقضيبين نسقا فى تربة ، والتحاسد من نجمين أنارا فى أفق . وسهمين صارا على نسق ، والتفاخر من زهرتين تفتحتا من كمامة ، وبارقتين توضحتا من غمامة ، لأحمد وجوه الحسد وإن كان مذموما مع الأبد ، وربما امتد أحد الجوادين بخطوة ، أو خص أحد القضيبين بربوة ، أو كان أحد السهمين أنفذ مصيرا ، أو راح أحد النجمين أضوأ تنويرا ، أو غدت إحدى الزهرتين أندى غضارة ، أو أمست إحدى البارقتين أسنى إنارة ، فالمقصر يرتقب تقدما ، وتقارب الحالتين فى المجانسة ، يشب نار المنافسة ، وإن حال بينهما قدح النقاد ، وقبح تحاسد الأضداد.

وإن السيف والقلم لما كانا مصباحين يهديان إلى القصد ، من بات يسرى إلى المجد ، وسلمين يلحقان بالكواكب ، من ارتقى لساميات المراتب ، وطريقين يشرعان نهج الشرف لمن تقرى إليه ، ويجمعان شمل الفخر لمن تأشب عليه ، ووسيلتين يرشفان العلى فم عاشقها ، ويبسطان فى وصال المنى يد وامقها ، وشفيعين لا يؤخر تشفيعهما ، ومجمعين لا يفرق تجميعهما جررا أذيال الخيلاء تفاخرا ، وأشما بأنف الكبرياء تنافرا ، ودعى كل واحد منهما أن الفوز لقدحه وأن الورى لقدحه ، وأن الدر من

---

[١] مقامات ورسائل أندلسية نصوص ودراسات ، فرناندودى لاجرانجا ، ترجمة عبد اللطيف عبد الحليم ص ٣٣ مطبعة الفجر الجديد ، دار الثقافة العربية ، القاهرة عام ١٩٨١ م .

[٢] المصدر السابق ص ٤٧ وما بعدها .

أصدافه ، وأن البكر من زفافه ، وأن البناء من تشييده الطـــائر ، محمودة الباطن والظاهر ، أحكم فأعدل ، وأشهد فأقبل ، وترحـــل عزماتي شرقا وغربا ولاأرحل . أعد فأفي وأســـتكفى فـــأكفى ، أحلب الغنى من ضروعه ، وأجتنى الندى من فروعه ، وهل أنـــا إلا قطب تدور عليه الدول ، وجواد شأوه يدرك الأمل ، شفيع كل ملك إلى مطالبه ، ووسيلته إلى مكاسبه ، وشاهد نجواه قبل كـــل شاهد ووارد معناه قبل كل وارد .

فقال السيف : ياالله ! استنت الفصال حتـــى القرعـــى ! ورب صلف تحت الراعدة ! لقد تحاول امتدادا بباع قصيرة ، وانتفاضـــا بجناح كسيرة ، أمستعرب والفلس ثمنك ، ومستجلب وكل بقعـــة وطنك ؟! جسم ودمع بار تحفى فتنعل بريا، حتى يعـــود جســـمك فيئا ، إن الملوك لتبادر إلـــى دركـــى ولتتحاســـد فـــى ملكـــى ، ولتتوارثنى على النسب ، ولتتغالى فى على الحســـب ، فتكللنـــى المرجان وتنعلنى القيان ، وتلحقنى بخلل كحلل ، وحمائل كخمائل ، حتى أبرز براز الهندى يوم الجلاء ، والروض غب السماء ...

ومن ينظر النص جميعه ، ويرى خصائصـــه ومميزاتـــه على صعيدى الشكل والمضمون يجده يتسم بالبساطة والوضوح ، والاعتماد على السجع الذى وافق هوى نقاد الأدب الأندلســـيين ، والاستشهاد بالقرآن الكريم ، وهو يشترك مع النصوص الســـابقة من حيث استكمال بعض أوجه المحسنات البديعية .

(٤) المقامات

المقامات نثر قصصى ذو خصائص ومميزات معينة ، وهى تهدف إلى التعليم ، تعليم الإنشاء والكتابة بأسلوب منمق وأبلغ فى التعبير والتصوير ،وكان أول نشأتها فى المشرق .

والمعروف أن العلاقات العلمية والثقافية والاجتماعيةوالدينية كانت قوية ومتينة بين الأندلس والمشرق ، ومن هنا كان تقليد الأندلسيين للمشارقة فى فن المقامات . ومع أنهم كتبوا مقامات عديدة فإنهم لم يصلوا فى هذا الباب إلى شهرة المشارقة فيه ، هذا فضلا عن أن مقاماتهم لم تنل من الشهرة ما نالته مقامات المشارقة بصفة عامة ، ولا مقامات الهمذانى والحريرى بصفة خاصة .

والحق أن هناك بواعث وأسبابا ساعدت مجتمعة على نشأة المقامة الأندلسية ، ومن هذه البواعث الرحلة فى طلب العلم ، وهناك بواعث أخرى نابعة من البيئة الأندلسية أو الشخصية الأندلسية ، وعلى رأس هذه البواعث حب الأندلسيين لتقليد المشارقة ، وغلبة الخيال عليهم ، وشغفهم بالموضوعات الخيالية [١] .

ومن كتاب المقامات فى الأندلس : أبو العجاج القضاعى ، وأبو حفص عمر الشهيد ، وأبو طاهر محمد التميمى السرقسطى صاحب " المقامات السرقسطية " وعددها خمسون مقامة على عدد مقامات الحريرى ، وقد عارض بها مقامات الحريرى

---

[١] انظر الرمزية فى الأدب العربى الحديث د / درويش الجندى ص ٣١٩ . نهضة مصر ١٩٥٨ م .

الخمسين ، ولزم فى نثرها المسجوع ما لا يلزم . ومنهم كذلــــك لسان الدين بن الخطيب ، ومن مقاماته مقامة بعنــــوان " معيــــار الاختيار فى أحوال المعاهد والديار " و "خطرة الطيــف ورحلــة الشتاء والصيف " وأبو محمد عبد الله بن إبراهيم الأزدى ، ولــــه مقامة تسمى " مقامة العيد " .

ومنهم كذلك الأديب الأندلسى ابن فتوح [1] ، وله مقامـــــة عن شعراء عصره وفيها يقول [2]:

" كنت ليلة فى رمضان أطوف بالمسجد الجامع بألمريــــة سنة ثلاثين وإذا فتى حسن المنظر فسلم على سلاما ارتاحت لــــه نفسى ، وانشرح له صدرى ، فرددت عليه رد من توسم فيه سمة الفهم ، فقال لى : بحرمة الأدب إلا ما أعدت على البيت ، فأعدته وأنشدت سائر الأبيات ، فقال : الشعر إثم ، (ثم) قال لى :إنمــا أخذته من قول العباس بن الأحنف :

وأحســـن أيـــام الهـــوى يومـــك الـــذى
تـــروع بـــالهجـــران فـــيه وبـــالعـــتب
إذا لـــم يـــكن فـــى الحـــب سخط ولارضا
فـــأين حـــلاوات الـــرســـائل و الكـــتب

فقال : وريت بك زنادى ، فأخبرنى عن السبب الموجــــب لترديدك البيت، قلت له : منيت بخل مولع بالخلاف مائل إلى قلــة الإنصاف ، إن لاينته غضب . وإن استعتبته عتب ، وقد علــم الله شفقة نفسى لفرقته ، فقال : قلب الله لك قلبه ، وجنبك عتبه ، ثـــم ولى عنى وقد غرس فى كبدى ثمرة وده ،فبت الليلـــة مستأنســا بخياله ، جذلان بوصاله ، حتى رأيت غرة الفجر تلمع فى كفـــل

---

[1] انظر ترجمته فى مقامات ورسائل أندلسية ، ترجمة عبد اللطيف عبد الحليم ص ٦١ – ٦٧ .
[2] مقامات ورسائل أندلسية ص ٧١ ، ٧٢ .

الدجى ، فخلته بحرا تسرب فيه جدول ، أوعجاجا سل من تحتـــه منصل ، فقمت بانيا على قصوده ، فلم ألبــث أن ســمعته ينشــد ويطلب منزلى فقرع الباب ، وأذنت له فدخل ، فرحبت به وقمت إليه وأقبلت عليه ، فقال لى : يا ابن الكرام إن هذا يوم قد بكـــى ماء غيمه ، ونبض عرق برقه ، وخفق قلب رعده ، واغرورقـت مقلة أفقه ، ونحن لانجد الخمر ، فبم نقطع تأويبه ؟ فقلت : الرأى إلى سيدى أبقاه الله ، فقال لى : كيف ذكـــرك لرجـــال مصـــرك ووقوفك على شعراء عصرك ؟ فقلت : خير ذكر ، فقـــال :مـــن أعذبهم لفظا ، وأرجحهم وزنا ؟ قلت الرقيق حاشية الظـــرف ، الأنيق ديباجة اللطف أبو حفص بن برد . قـــال : فمـــن أقواهـــم استعارات وأصحهم تشبيهات ؟ قلت البحر العجـــاج ، والســـراج الوهاج أبو عامر بن شهيد . قال : فمن أذكرهم للأشعار وأنظمهم للأخبار ؟ قلت : الحلو الظريف البارع اللطيف أبو الوليـــد بـــن زيدون ، قال : فمن أكلفهم بالبديع ، وأشغفهم بالتقسيم والتتبيـــع ؟ قلت : الرائع فى روضة الحسب ، المستطيل بمرجه الأدب أبـــو بكر يحيى بن إبراهيم الطبنى ، فأنشد :

وخاطب قسا فى عكاظ محاورا على البعد سحبان فأفحمـــه قسى ... "

ومن كتاب المقامات الفقيه الأندلسى عمر المالقى ، ولـــه مقامة مشهورة فى أمر الوباء[1].

والحق أن من يتأمل النماذج المتوفرة لدينا من المقامـــات الأندلسية يراها تصور كثيرا من ظواهر المجتمع هذا فضلا عـــن تصويرها للمناسبات السياسية والحربية ، وتضمنها موضوعـــات

---

(١) انظر مقامات ورسائل أندلسية ص ١٥٨ – ١٦٤ .

ثقافية شخصية .بيد أن الطابع الاجتماعى كان أظهر فـــى هــذه المقامات من غيره ، وفيه يعالج الأديب مـــن خـــلال المقامـــات الأحداث الاجتماعية المختلفة والعلاقات بين الأفراد .

ونحن إن سلمنا بأن المقامة الأندلسية قد انطلقت من قواعـد وأصول مشرقية ، واعتمدت على المقـا مة الشرقية فى النشأة ، واعتمدت عليها كذلك فى أسلوب القصـــص والحكايـــة ــ لكننـــا ينبغى أن نقول إن هناك فروقا فى الخصـــائص والســـمات بيـــن مقامات المشرق والمقامات الأندلسية [١].

ومن الفروق التى تلاحظ فى المقامـــات الأندلســـية عـــن نظيرتها فى المشرق ، أن الأولى تطورت وخرجت إلى حد مـــا عن إطار المقامة المشرقية ، وقد تمثل هذا التطور فـــى أنـــواع الرسائل التى تصف الرحـــلات إلـــى المشـــرق وعلـــى وجـــه الخصوص الرحلات الدينية [٢].

وفى ظنى أن هذا الميل إنما هو وليد الحياة الأندلسية إلـــى حد كبير ، ذلك لأن الأندلسيين كانوا يكثرون من الرحلات إلـــى المشرق وغيره من الأقطار .

وفيما يتعلق بالخصائص الشكلية نحن نلاحظ ميل المقامـــة الأندلسية إلى الإطناب لدرجة تقترب من الرسالة فى عـــدد مـــن خصائصها ، أما الألفاظ فهى لاتخلو من الغرابة ، والجنوح إلـــى عمق المعنى ، وإن كان لا يصل إلى تلك الدرجة التى كانت فـــى المقامة المشرقية .

---

[١] انظر الرمزية فى الأدب العربى الحديث د / درويش الجندى ص ٣١٨ .

[٢] انظر تاريخ الأدب الأندلسى د /إحسان عباس (عصر الطوائف والمرابطين) ص٢٩٩ . وانظر كذلك الأدب العربى فى الأندلس د / عبد العزيز عتيق ص ٤٨٢ .دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت .

وهناك رسالة فى النخلة لابـن بـرد الأصغـر ، وفيـها يقول[1]:

" أما بعد : جعلك الله مـن المؤثريـن علـى أنفسـهم ، والموقين شحها، والمنجزين لمواعيدهم ، والمعطين صدقها ، فقـد علمت ما سلف لنا فى العام الفارط من عتابك ولبسنا شكته مـن ملامك ، لما كتمتنا صرام النخلة التى هى بأرضنا إحدى الغرائب ، وفريدة العجائب ، هربا من أن تلزمك الإسهام فـى رطبـها ، وحرصا على تمام لذة الاستبداد بها ، وقلت وقد سألناك من جناها قليلا ،ورجونا أن تنيلنا منها ولو فتيلا : " لو علمت أن لكـم بـه هذا الكلف ، وإليه هذا النزع لأمكنه عليكم وجعلت حكـم جـذاذه إليكم ، ولكنها إن شاء الله فى العام القادم غلتكم ، عتاد نفيس لكـم ، وذخر حبيس عليكم " . فأما نحن فرسمنا تلك العدة فى سويدات قلوبنا ، ووكلنا بها حفظة خواطرنا ، وأما أنـت فـهلت عليـها التراب ، وأسلمتها إلى يد البلى ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها ، وازينت زينتها ، وبلغت غايتـها ، وأشـبع القمـر صبغـها ، وأحكمت الشمس نضجها ، دببت إليـها الضـراء بصرامـك ، ومشيت نحوها الخمر بحرابك ، على حين نام السمار ، وغفلـت الجارة والجار ، وأبت بها إيابة الأسد بفريسته ، وتحكمت فيـها تحكمه فى عنيزته ،ولما رأينا على ذلك طلائـع الرطـب فـى الأسواق ،والجنى من بحر النخيل على الأطباق ....."

هذا وينبغى أن نقول إن النثر قد تطور فى القرن الرابـع وظهر ما يسمى بالنثر التعليمى ، أو النثر التأليفى ، ويقصد بـه ذلك النثر الذى تصاغ به قواعد العلوم والمعـارف المختلفـة ،

---

[1] مقامات ورسائل أندلسية ص ٥٣ – ٥٦ .

ويؤلف كذلك للتعبير عن الأفكار والآراء ووجهات النظر العديـدة ، وقيل إن هذا النوع من النثر تمثل فى فرعين : (الفرع الأول : التاريخ الأدبى ، والفرع الثانى التأليف الأدبى)[١] .

على أن وراء هذه الظاهرة أســبابا أدت إلـى أن تكتـب الحقائق العلمية والروايات التاريخية والنصوص المختلفة بأسلوب أدبى ، وهذه الأسباب تتصل اتصالا مباشرا بعلماء الأندلس ، كما تتصل بالمستوى الثقافى والعلمى الذى كان عليه الأندلسيون ، هذا فضلا عن أن ظروف العصر قد حتمت على الأدباء أن يستوعبوا مظاهر الحياة وجوانبها وأن يساهموا فى تصويرها[٢].

---

[١] انظر الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة د / أحمد هيكل ص ٢٦٦ – ٢٦٨ .

[٢] انظر النثر الأندلسى فى عصر الطوائف والمرابطين د / حازم عبد الله خضر ص ٥٣٨ – ٥٤٢ .

الرسالة الجدية لابن زيدون

نص الرسالة

" يامولاى وسيدى الذى ودادى له ، واعتمـــادى عليــه ، واعتدادى به ، ومن أبقاه الله تعالى ماضى حد العزم ، وارى زند الأمل[١] ،ثابت عهد النعمة ، إن سلبتنى – أعــزك الله – لبــاس إنعامك ، وعطلتنى من حلى إيناسك ، وأظمـــأتنى إلــى بــرود إسعافك ، ونقضت بى كف حياطتك ، وغضضت عنــى طــرف حمايتك – فلا غرو : قد يغص بالماء شــاربه ، ويقتــل الــدواء المستشفى به ، ويؤتى الحذر من مأمنه ، وتكون منية المتمنى فى أمنيته ، والحين قد يسبق جهد الحريص [٢]:

كل المصائب قد تمرعلى الفتى وتهون غير شمـــاتة الحســاد

وإنى لأتجلد وأرى الشامتين أنى لريب الدهر لاأتضعضــع فأقول : هل أنا إلا يد أدماها سوارها ، وجبين عضه إكليلـــه [٣] ومشرفى ألصقه بالأرض صاقله [٤] ، وسمهرى عرضـــه علـــى النار مثقفه [٥] ، وعبد ذهب به سيده مذهب الذى يقول :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحـــم

هذا العتب محمود عواقبه ، وهذه النبوة غمرة ثم تنجلــى ، وهذه النكبة سحابة صيف عن قريب تتقشع ، ولن يريطنى مـــن سيدى أن أبطأ سحابه ، أو تأخر ــ غير ضنين ــ غناؤه ، فأبطــأ الدلاء فيضا أملؤها ، وأثقل السحائب مشيا أحفلها ، وأنفع الحيا ما

---

(١) ورى الزند : خرجت ناره حين يقدح .

(٢) الحين : الموت .

(٣) الإكليل : التاج ، أو عصابة للرأس مكللة .

(٤) المشرفى : السيف ، والصاقل : الحداد .

(٥) السمهرى : الرمح الصلب ، والتثقيف : التقويم .

صادف جدبا ، وألذ الشراب ما أصاب غليلا ، ومع اليوم غـــد ، ولكل أجل كتاب .

له الحمد على اهتباله ، ولا عتب عليه فى إغفاله : [١]

فإن يكن الفعل الذى ساء واحدا   فأفعاله اللاتى سررن ألوف

وأعود فأقول : ما هذا الذنب الذى لـــم يســـعفه عفـــوك ؟ والجهل الذى لم يأت من ورائه حلمك ؟ والتطـــــاول الـــذى لـــم يستغرقه تطولك [٢] ،والتحامل الذى لم يـــف بـــه احتمـــالك [٣] ، ولاأخلو من أن أكون بريئا فأين العدل ، أومسيئا فأين الفضل ؟

إلا يكن ذنب فعدلك واســـــع   أو كان لى ذنـــب ففضلـــك أوســـع

فكيف ؟ ولاذنب إلا نميمة أهداها كاشح ، ونبأ جـــاد بـــه فاسق ، وهم الهمازون المشاءون بنميم ، والواشون الذين لايلبثون أن يصدعوا العصا[٤]، والغواة الذين لايتركون أديمـــا صحيحـــا ،والسعاة الذين ذكرهم الأحنف بن قيس فقال : مـــا ظنـــك بقـــوم الصدق محمود إلا منهم :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة   وليس وراء الله للمرء مذهب

والله ماغششتك بعد النصيحـــة ، ولا انحرفـــت عنـــك بعـــد الصياغة ،ولا نصبت لك بعد التشيع فيك ، ولا أزمعت يأسا منـــك مع ضمان تكلفت به الثقة عنك ، وعهد أخذه حسن الظن عليـــك ، ففيم عبث الجفاء بأذمتى، وعاث الـــعقوق فى مودتى ، وتمكـــــن الضياع من وسائلى ؟ ولم ضاقـــت مذاهبى ؟ وأكـــدت مطـــالبى

---

[١] الاهتبال : الاغتنام . والإغفال: الترك والإهمال .

[٢] التطاول : التعالى والتكبر ، والتطول : التفضل والإحسان .

[٣] التحامل : التكلف على مشقة ، والاحتمال : العفو والإغضاء .

[٤] صدع العصا : الخروج على الطاعة .

"وعلام رضيت مـن المركب بالتـعليـق ؟ بـل مـن الغنيمـة بالإياب[١] ".

***

وفى الرسالة يتوجه ابن زيدون مستعطفا الأمير ، فيناديـه بكلمة (مولاى وسيدى) ويخبره بأنه لا معين له إلاه ، فهو عدته وعتاده ، لا يعمد إلا به ولا يمتد إلا منه .

ويتوجه إلى الله تعالى فيدعوه بأن يحقق آمال الأمير ، ثـم يقول : لاعجب أن حجبت عنى نعمـك ، وانـتزعت منـى مـا توجتنى به من رعاية ، حتى صرت عرضة للمصـائب والآلام ، ولم أصنع صنعا إلا أن لى قصائد نوهت بمـآثرك ، وأصبحـت مشهورة حتى أبصرها الأعمى وسمع بها الأصم .

وأخذ يعتذر عنه فيما ناله به من أذى فقال : ولاعجب فـى هذا الذى يتداوى به ، وقد يصاب المحترس من حيـث يحـذر ، ويهلك الإنسان من باب أمنه .

ويصور له ما يلاقيه وما يحس به فيقول : وكل المصـائب تهون إلا شماتة الحساد ، ولذلك يتجلد ولا يتوجع لصروف الدهر وأحداثه ، فالأمير إذا آلمه بعقابه فكثيرا مازانه بإحسانه وإنعامه ، فلست إلا يدا أدماها سوارها ، وجبينا غص به أكليلـه ، وسـيفا ألصقه بالأرض صاقله ، ورمحا عرضه على النار مقومه .

ثم يتعلل بالآمال ، ويسلى نفسه فيقول : لعل هذا العتـب محمود عواقبه ، ولعل هذه الخصومـة غمـرة ثـم تنكشـف ، أوسحابة صيف سرعان ما تنقشع ، ولن يحملنـى علـى الشـك والارتياب الترك والإهمال ، فأبطـأ الـدلاء أملؤهـا ، وأثقـل

---

[١] أى لم قنعت من عظيم الأمر باليسير ، و لم قنعت من الغنائم بسلامة العودة .

السحائب أحفلها ، وأنفع الأمطار ما صادف جدبا ، وألذ الشــراب ما أصاب غليلا ، ثم إن الأحوال تتغير ، والدول تتقلب ، ولكــل أجل كتاب ، وحمدا للأمير على ما أغنمنى إياه ، ولاعتب عليــه إن أبطأ فهو معذور .

وهذا الأسلوب من الاعتذارعن الإبطاء من أقوى الأساليب استدرارا للعطف والشفقة ، وكأن ابن زيدون يشعر الأمير بـــأن هذه الجفوة ليست إساءة حتى لايتمادى فيها ، وإنما هـــو تـــأهب للإحسان واستعداد له ، وهذا من التلطف الجميل فــــى أســلوب الاستعطاف .

وبعد أن يطول الترك والإهمال يتوجه إلى الأمير فيســـأله البراءة أو العفو ، فابن زيدون لا يخلو من أن يكون بريئا فيخلــى سبيله ، أو مذنبا فينال حظا من عفو الأمير وتفضله وإحسانه .

ويستطرد ابن زيدون فينفى عن نفسه كل ذنب ، ولئن كان ذنب فهو يستصغره فى ساحة عفو سيده ، ثم يتســـاءل : كيــف يعامل تلك المعاملة ، وكيف يتعرض لهذا العقاب وهو غير مذنب ؟ والأمر ليس إلا وقيعة سعى بها حساده الذين من طابعهم شـــق وحدة الجماعة .. أما هو فناصح أمين للأمـــير ، متشـــيع شـــديد الولاء له ، ومع ذلك فلم يظفر من الأمير بخير ، وكأنه يقنع مـــن عظيم الأمر باليسير ، ومن الغنائم بسلامة العودة .

وابن زيدون يجرى فى رسالته علـــى طبيعـــة عصـــره ، ولذلك سلمت من التكلف البغيض ، وقد مكنته موهبته من اتقـــان وسائل التعبير وصياغة الأساليب ، والعناية بالصور فوق العنايــة بالأفكار .

والدارس لهذه الرسالة يرى أن ابن زيدون قد أفرط في الاقتباس من القرآن الكريم ، مثل قوله : (ولكل أجل كتاب) وكقوله : (الهمازون المشاءون بنميم)فهو مقتبس من قول الله تعالى فى حق الوليد بن المغيرة : (ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم) .

كذلك بالغ فى الاستشهاد بالأبيات الشعرية أو شطورها دون إشارة إلى قائلها ، حتى كادت شخصيته تخفى وراء ما اقتبسه من غيره ، مثل قوله :

كل المصائب قد تمر على الفتى   وتهون غير شماتة الحساد

فالبيت لعبد الله بن محمد بن أبى عتبة المهلبى .

وكقوله : " وأثقل السحائب مشيا أحفلها " وهو مقتبس من قول المتنبى :

ومن الخير بطء سيبك عنى   أسرع السحب فى السير الجهام

وهذا اللون كثير جدا فى الرسالة .

كذلك أسهب فى ضرب الأمثال المعروفة والاستئناس بالحكم المأثورة وذلك ليقوى بها حجته ، ويدعم موقفه ، ويكشف عن قدرته الأدبية ،ومن أمثلة ذلك : " فأبطأ الدلاء فيضا أملؤها " و " مع اليوم غد " و " علام رضيت من المركب بالتعليق ؟ بل من الغنيمة بالإياب " .. لكنه تمكن من أن يوائم بين هذه الحكم والأمثال مواءمة تجعلها من صياغته ، لما يبدو عليها من اتحاد واتساق .

وكان لثقافته الواسعة أثر كبير فى ولوعه بسرد الأسماء والأحداث التاريخية ، وكثيرا ما يستشهد بحوادث التاريخ ، وليس بين يديه وهو فى السجن من مراجع تاريخية فضلا عن أنه كتبها

وهو فى حالة نفسية سـيئة ، ممـا يعكـس الموهبـة الفطريـة والاستعداد الخصب .

وقد التزم أحيانا بالسجع وإن كان لم يلتزمـه فـى كـل رسائله،وشغف بالمحسنات البديعية والصور البيانية ، مـع أنـه يبالغ فى ذلك كما كان سائدا فى عصره ، فقد كان أسلوب الكتابة انعكاسا لحالة العصر الحافلة بأسباب الترف والنعيم .

ويؤخذ على ابن زيدون أنه أكثر من الإدلال على الأمـير إلى حد يشبه المن أو قل التأنيب ، وهذا دون شك أسلوب غـير موفق فى مخاطبة الحكام ، وإن كان قد صاغ ذلـك كلـه فـى أساليب لينة وعبارات رقيقة.

ويشفع له أنه أراد أن يذكر الأمير بسالف خدمته ، لعلـه يغفر ما حدث إذا راعى ما سلف ، أو أنه أراد أن يطلع الأمـير على قوة عارضته لتكون شفيعا لديه فى الإغضاء عن هفوته.

وأخيرا فالرسالة على الرغم من كل هذه المآخذ تعتبر فـى مقدمة الرسائل الخالدة فى الأدب العربى ، فهى أقرب إلى الطبـع وأبعد عن التكلف ، وهى إلى جانب عواطفتـها القويـة تنبـض بالأفكار المنطقية والفلسفية.

وقد تنوعت معانيها ، وتعددت أساليبها ، فمع أن أسـاليبها حافلة بشتى الصور والألوان ، نجدها تتردد بين غيبة وخطـاب ، وضرب أمثال واستشهاد بحكم ، كل ذلـك فـى معـان نابضـة بالحياة،ولعل الرسالة كانت خليقة بكل هذا أن تثـير فـى نفـس الأمير عاطفة الرحمة والإشفاق ، لكنه يظهر أن الوشايات كـانت أقوى من الرسالة لدرجة جعلتها تسد أذن الأمـير ابـن جـهور وتصرفه عن الصفح والغفران.

وجملة القول إن ابن زيدون لم يقتصر نبوغه على الشعر فحسب ، بل تعداه إلى النثر ، حتى صار له فيه باع طويل ، وعده النقاد من كبار الكتاب فى الأندلس.

والدارس لنثر ابن زيدون يراه يتأثر فيه بشاعريته ، فهو نثر كالشعر ، فيه الألفاظ المنتقاة المعبرة ، والخيال المجنح والعاطفة المشبوبة والمحسنات البديعية التى تأتى من غير تكلف ، وفيه كذلك عزة النفس ورفعة الشأن حيث كشفت الرسالة السالفة الذكرعن نفسية ابن زيدون ، وأنه لم يصب بالضعف فى سجنه ، بل ظل معتزا بمكانته وكبريائه وأدبه .

وإذا كان قد تأثر فى شعره بطريقة البحترى ، فلاشك أنه قد تأثر فى نثره بأسلوب الجاحظ ، ويبدو ذلك واضحا فى مواطن كثيرة فى رسالته ، حيث تتناسق الجمل ، ويؤدى المعنى بأكثر من جملة ، هذا فضلا عن الإتيان بالجمل الاعتراضية .

ولابن زيدون رسائل إخوانية ورسائل سلطانية كتبها لابن جهور وغيره عندما كان وزيرا فى قرطبة .

بيد أن أشهر نثر له إنما هو رسالتاه : (الجدية والهزلية). والرسالة الجدية سبق الحديث عنها ، أما رسالته الهزلية فقد كتبها على لسان ولادة بنت المستكفى يتهكم فيها بالوزير ابن عبدوس ، ويكشف جهله ، ويبرز معايبه ، وهى شبيهة برسالة التربيع والتدوير للجاحظ .

والرسالة الهزلية نموذج رائع فى التهكم والسخرية ، وإبراز المعايب وتضخيمها ، وتمتاز الرسالتان معا بالطول ، وكثرة الاستشهاد بالشعر والحكم والأمثال ، والإشارات التاريخية والاقتباس من القرآن الكريم .

والرسالتان الأدبيتان ذاتا قيمة أدبية كبيرة ، وإن كانتا لم تلقيا من الذيوع والشهرة مثل ما كان لشعر ابن زيدون ، ومما هو غنى عن الذكر أن كثيرا من الأدباء قد نهضوا وتحملوا مهمة شرح الرسالتين ، وألف الصفدى شرحا كبيرا للرسالة الجدية سماه : (تمام المنون) وألف ابن نباتة المصرى شرحا للهزلية سماه : (سرح العيون) .

ومن رسالته الهزلية قوله :

" هجين القذال ، أرعن السبال ، طويل العنق والعلاوة ، مفرط الحمق والغباوة ، جافى الطبع ، سيئ الإجابة والسمع ، بغيض الهيئة ، سخيف الذهاب والجيئة ، ظاهر الوسواس ، منتن الأنفاس ، كثير المعايب ، مشهور المثالب ، كلامك تمتمة ، وحديثك غمغمة ، وبيانك فهفهة ، وضحكك قهقهة ، ومشيك هرولة ، وغناك مسألة ، ودينك زندقة ، وعلمك مخرقة :

مساو لو قسمن على الغوانى لما أمهرن إلا بالطلاق

حتى إن باقلا موصوف بالبلاغة إذا قرن بك ، وهبنقة مستحق لاسم العقل إذا أضيف إليك ، وطويسا مأثور عنه يمن الطائر إذا قيس عليك ، فوجودك عدم ، والاغتباط بك ندم ، والخيبة منك ظفر .. ".

...

القصة فى الأندلس

ليس هناك من شك فى أن القصة العربية قد احتلت مكانـــا ــ وإن كان محدودا ــ فى الأدب الأندلسى ، بل إنه ليمكن القـول إن هناك قصصا أندلسية بارعة تعتبر فى المقدمـــة مـــن ألـــوان الأدب الأندلسى بصفة خاصة والأدب العربى بصفة عامة .

وكان كتاب القصة الأندلسية يقتفون أثـــر أقرانـــهم فـــى المشرق ، وينسجون على منوالهم ، ويسيرون علـــى نهجـــهم ، ويجرون فى مضمارهم ، ولعل هذا هو السبب الذى حدا بالدكتور مصطفى الشكعة لأن يقول فى ختام حديثه عـــن قصـــة التوابـــع والزوابع الأندلسية[1] :

" وهكذا يكون فن المشرق هو المحور الثابت الذى عليـــه ترتكز الأعمال الأدبية الكبيرة فى الأندلس " .

على أن هناك ظاهرة تلفت النظر وهى أن كتاب القصـــة فى الأندلس هم أنفسهم كبار شعراء الأندلس المرموقين من أمثـال : ابو عامر بن شهيد الشاعر الكاتب الأندلسى ، وأبـــو القاسـم الإفليلى الأديب الشاعر الكاتب ، وغيرهما ، فكل ما كتبوه مـــن قصص اجتماعية تحوز الإعجاب وتثير الدهشة .

والقصة التى أنشأها أبو عامر بن شهيد هى قصة (التوابع والزوابع) ، وكان الدافع وراء كتابته لهذه القصة دافعا شـخصيا ينبع " من إحساسه بأن معاصريه من الأدباء والنقاد لـــم يولـــوه حقه من التكريم ، ولم ينزلوه المنزلة الأدبية التى رأى نفسه أهـلا لها " [2] .

---

[1] الأدب الأندلسى موضوعاته وفنونه ص ٦٨٢.

[2] المصدر نفسه ص ٦٤١ .

وهذه القصة عمل أدبى جليل الأثر ، تقوم فكرتـــها علـــى النيل من معاصرى ابن شهيد ، والتحقير من شأنهم ، فهو لم يلـق منهم التكريم الذى هو أهل له ، وهم من جهتهم لم يقـدروا أدبـه حق قدره ، هذا فضلا عن أنه بهذه القصة قد أشبع أهواءه الذاتيـة ، كما أشبع غروره وإعجابه بنفسه وبآثاره .

يقول الدكتور مصطفى الشكعة [1] :

لقد نجح ابن شهيد ــ أمام نفسه على الأقل ــ فى أن يثـأر لنفسه من معاصريه ، بعد أن نجح فى أن يحظى بإجـازة كبـار الشعراء والخطباء . لقد ثأر لنفسه بالحملة عليهم والسخرية منـهم فى أكثر من موضع ، وبخاصة من خصمه أبى القاسم الإفليلـــى الذى بالغ فى السخرية من شيطانه أنف الناقة ، بل إنه ازداد غلوا فى التعريض بهم فى مجال حديثه مع بغلة أبى عيسى ، فجعلـــهم ــ وهم الذين يشبهون البغال غباوة ــ وزراء أو أمراء .

لقد حقق أبو عامر هدفه الكبير ــ كما ذكرنا ــ بـا لنيـل من معاصريه وتحقير شأنهم ، على أنه حقق هدفا آخر لايقل شأنا عن هدفه الأصيل ، ذلك أنه أشبع نزعة إعجابه بنفســه وبآثـاره حينما جعل قصته معرضا كبيرا لما انتقاه بنفســـه مـــن أعمالــه الأدبية فى مجال الشعر وفى ميدان النثر " .

---

(١) المصدر السابق ص ٦٧٩ .

النثر الأندلسى بين الأصالة والتقليد

إذا استعرضنا النثر الأندلسى نجد أن نصوصه تعبر عن الإنسان الأندلسى العربى المسلم بعقيدته ولغته وآماله وأهدافه ، وفى كثير من عاداته وألوان تصرفاته ، كما تعبر عن الشخصية الأندلسية بكل مقوماتها وسماتها وملامحها ، وبكل أفكارها ومعانيها وتصوراتها وعواطفها ومشاعرها .

فشخصية الأديب الأندلسى واضحة فى النثر كل الوضوح ، فقد ترجم لنا النثر عواطف ومشاعر الأدباء وأحاسيسهم وعرض جوانب حياتهم والعلاقات التى تربطهم بزملائهم الأدباء وأصدقائهم من الناس بصورة عامة .

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الأديب الأندلسى لم يكن بعيدا عن أحداث مجتمعه ولم يقف عاجزا عن المشاركة فى تصوير ما يقع على صعيده من أحداث سياسية واجتماعية وغيرها ، وليس يخفى أن البيئة الأندلسية تختص بجملة من المزايا والسمات التى تعين الكاتب على التعبير والتصوير .

على أن الدراسات التى دارت حول الأدب الأندلسى بصفة عامة والنثر الأندلسى بصفة خاصة قد ربطت بين النثر المشرقى والنثر الأندلسى ، وأكدت كثير من هذه الدراسات على أن النثر الأندلسى جزء من النثر المشرقى ، فهو تابع له ومعتمد عليه .

وعلى هذا فهنا سؤال لامحيد من الإشارة إليه وهو :

هل ترسم النثر الأندلسى خطى النثر الشرقى بصفة عامة، لدرجة تجعله يخلو من أى أثر للإبداع والتجديد ؟

والذى أراه أن هذا الحكم لا يصح إطلاقه بصفة عامة ، ذلك لأن تقليد الأدب الأندلسى بصفة عامة والنثر بصفة خاصة

للأدب الشرقى إنما كان فى فترات بعينها ولم ينسحب على كـــل فترات العصر الأندلسى، لأننا لوســـلمنا بـــأن الأدب الأندلســـى صورة لأدب المشرق ونسخة مكررة من معانيه وأخيلته وألفاظـــه وأساليبه لكنا قد جعلنا من الأدب الواحد أدبين لأمتيـــن تختلـــف إحداهما عن الأخرى ، وهذا حكم خطير له نتائجه السلبية التـــى لايقرها أحد، على أن بعض فنون النثر الأندلسى وهى المقامـــةقد خالفت المقامة المشرقية فىأمور عديدة ، حيث اعتمد الأندلســيون فكرتها ، وانطلقوا منها فى التعبير عن أهدافـــهم ، وكـــان ذلـــك بسبب ارتباطها الوثيق بالبيئة الأندلسية وتأثرها بمعاييرها الثقافيـــة والاجتماعية [1] ، مما يؤكد الأصالة والتجديـــد والـــنزوع إلـــى التعبير عن موضوعـــات وأفكـــار تتصـــل بالبيئـــة الأندلســـية والشخصية الأندلسية .

والحق أن فكرة التقليد ــ على الرغم من أوجـــه الشـــبه العديدة ــ لامكان لها فى العلاقة بيـــن الأدبيـــن فـــى المشـــرق والأندلس ، فالأدب الأندلسى لا ينفصل عن الأدب المشرقى .

وهناك عدة أمور جعلت الأندلسيين معنيين بأهل المشرق ، وجعلت الأدباء الأندلسيين يتشابهون فى آثارهم بآثـــار إخوانـــهم المشارقة ،مما يرد فكرة التقليد ويفسر أوجه التشابه ونقاط الالتقاء على أنها مقومات وخصائص لأصول وقواعد وتقـــاليد متقاربـــة ومتفقة إلى حد كبير .

وقد أحصى الدكتور حازم عبد الله خضر هذه الأمور فـــى نقاط منها [2] :

---

[1] انظر النثر الأندلسى فى عصر الطوائف والمرابطين د / حازم عبد الله خضر ص ٣٥٠ ــ ٣٥٣ . دار الحرية للطباعة بغداد ١٤٠١ هـــ ١٩٨١ م .

[2] المصدر السابق ص ٥٢٨ .

١ — أن الأدبين مكتوبان بلغة واحدة هى اللغة العربية بكل مقوماتها وبكل ما تنطوى عليه من قواعد وأصول وفنون وعلوم لاتكاد تغادر شيئا منها سواء أكانت فى المشرق أو الأندلس أوغيرها .

٢ — أن ثقافة الأدباء الأندلسيين هى ثقافة الأدباء المشارقة نفسها ، وقد أخذت الطائفتان من معين واحد وسارت على مثل وقواعد متفقة موحدة .

٣ — إن الصلة بين المشرق والأندلس كانت قوية متينة ودائمة مستمرة وبخاصة على الصعيد الثقافى والعلمى ، حيث كانت أفواج العلماء والأدباء تروح وتغدو من الأندلس إلى المشرق أومن المشرق إلى الأندلس ، كما كانت المؤلفات المشرقية تصل تباعا إلى الأندلس وتكون محل اهتمام وعناية ورعاية شديدة من قبل المعنيين بالثقافة والأدب والعلوم بصورة عامة .

٤ — إن وجود الأندلسيين — والكثيرون منهم عرب قدموا من المشرق — فى بلد بعيد عن المشرق وأهله ومهد اللغة وآدابها كان ذلك يحدوهم دائما إلى التطلع إلى إخوانهم ويشدهم إلى التمسك بمثلهم وأفكارهم وعقائدهم ، كما يشدهم إلى آثارهم المختلفة فى شتى ألوان المعرفة .

٥ — إن شبها كبيرا فى مظاهر البيئة الأندلسية بمظاهر البيئة العربية فى المشرق يلاحظ بوضوح لدى كل متأمل متتبع " .

وإذا اتضح هذا أمكن القول بأن الأصالة واضحة وبارزة فى العصر الأندلسى ، ولم لا ؟ وهو العصر الغنى بالتيارات

السياسية والثقافية والاتجاهات العلمية ، وكثرة العلماء والمثقفين والأدباء ، فالأصالة في الأدب الأندلسى هى الأمر المألوف الذى يتفق والواقع الأندلسى كما عرفته آثار الأندلس العلمية والأدبية وما نطقت به دراسات عديد من الباحثين فى الآثار الأندلسية ، بل إن القول بالابتكار والجدة فى الموشح والزجل إنما هو القول الأقرب إلى واقع الحركة العلمية والثقافية فى الأندلس بصورة عامة وإلى واقع الأدب الأندلسى شعره ونثره بصورة خاصة .

ولابد من الإشارة إلى ظواهر أخرى تكمل الموضوع وتتم الصورة التى كان عليها الحال فى الأندلس ، تلك الصورة التى تجعل الأندلس يمتاز عن المشرق ، وتجعل أهل الأندلس يفوقون أهل المشرق .

ومنها[١]:

" البيئة الأندلسية التى التقت مع البيئة المشرقية فى أمور عديدة..ولكنها زادت عليها وأربت على صفاتها ومظاهرها بما احتوته من جمال الطبيعة الدائم تقريبا والمتمثل بمشاهد شتى فى الأرض والشجر والماء والزهر والثمر وغيرها.

ومنها العادات الأندلسية التى انطلقت من العادات العربية الأصيلة وتأثرت بها ، ولكنها أفادت من بعض العادات المحلية التى كان عليها أهل البلاد الأصليون.

ومنها هذا الامتزاج الذى حصل بين العرب وغيرهم من الأقوام سواء أكان من أهل الأندلس الأصليين أو من البربر القادمين من شمال إفريقيا أو غيرهم . وقد أدى هذا إلى إفادة الشخصية الأندلسية من هؤلاء وتكوين سماتها وملامحها من

---

(١) المصدر نفسه ص ٥٣٠،٥٢٩.

الأصول التى يرجع إليها الأقوام المتعددون والمجتمعـون علـى صعيد الأندلس فى ظل الإسلام وفى ظل الحكم الإسـلامى فـى الأندلس.

ومنها نزوع الأندلسيين إلى التجديد ومنافسة إخوانهم فـى الآثار العلمية والأدبية وقد كانت نتيجة ذلـك كتبـا ومؤلفـات لا تحصى فى شتى ميادين العلم والمعرفة ".

كل هذه الأمور تؤكد أصالة الأدب الأندلسى بصفة عامـة والنثر بصفة خاصة وهذا يعنى أن الأدب الأندلسى قد عبر عمـا تحتويه الشخصية الأندلسية من نوازع وطباع ، وما تعانيه مـن أحداث ومشاكل ومحن وعقبات ، وما ترنو إليه من أهداف وآمال وتطلعات ، وقد ترجمت النصوص الأدبية الأندلسية كثـيرا ممـا يتعلق بحياة المجتمع الأندلسى والأحداث التى حصلت لـه فـى النواحى السياسية والاجتماعية ، وفى العلاقات التى تربط أفـراده ، كل ذلك حسب أغراض النصوص وموضوعاتها .

الخاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسول الله محمد وعلى آله وأصحابه وسلم وبعد:

فقد انتهت رحلتنا مع (الأدب الأندلسى) وليس من شك فى أنها كانت رحلة مفيدة ومضيئة ، ولا يمكن الادعاء بأننا قد سددنا فى هذه الرحلة كل الثغرات ، أو اننا قد أحطنا بالموضوع من كل أقطاره ، فقصارى ما يمكن أن نؤكده أننا طرحنا تصورا متكاملا للأدب الأندلسى ، يقوم على استقصاء كل الألوان الأدبية ، ويشفع ذلك كله بدراسة فنية وافية لكل تلك الألوان الأدبية وما توفر فيها من مقومات وسمات خاصة .

والحق أن هذه الدراسة لتعد موفقة بقدر ما ستثيره من حوار وحركة واسعة من الدراسات الأدبية والنقدية حول الأدب الأندلسى ، فمثل هذه الدراسات تدفع بالسير قدما فى البحث العلمى ، وتكون الثمرة المنطقية لكل هذا الكشف عن طبيعة الأدب الأندلسى ، وماسرى فيه من تيارات فنية وسمات وخصائص .

والحق يقتضينا أن نقول إن الدارس للأدب الأندلسى من خلال تلمس التيارات الفنية فى كل الألوان الأدبية سوف يخرج من دراسته بصورة تختلف اختلافا جوهريا عن الصورة التى كانت ترتسم فى ذهنه قبل توفيته للدراسة حقها ، ذلك لأن الأدب الأندلسى وما سرى فيه من تيارات وسمات إنما هو وليد مؤثرات حقيقية ، وظروف وملابسات دفعت الأديب إلى البحث عن ألوان

أدبية بعينها ، وأطر فنيـــة جديـــدة للتعبـــير يعممـــها فـــى كـــل موضوعات أدبه .

والنتيجة المنطقية لكل ذلك أن الأديب الأندلسى كان مدركا لفنه الأدبى ، وكان مقدرا له كل التقدير ، مما كان له أكبر الأثـــر فى اتجاهه إلى الأصالة من جهة والتجديد والابتكار من جهـــــة أخرى .

وإذا كانت دراستنا هذه قد نجحت فى بلورة كل ذلك فإنـــها تكون بعون الله وتوفيقه قد حققت ما ننتظره منها ، بل إن شـــئت فقل حققت غايتها التى ننشد .

والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق .

الأستـــاذ الدكتـــور

طلعـــت صـــبح الســـــيد

فهرس الموضوعات

الفصل الرابع